الدار
للنشر والتوزيع

وشيش

(رواية)

اسم العمل	**وشيش**
النوع	رواية
تأليف	**صخر صدقي**
تدقيق لغوي	أحمد جمعة
لوحة الغلاف	**صخر صدقي**
تصميم الغلاف	يامن الجمل
الطبعة الأولى	نوفمبر ٢٠١٧
الطباعة	مطبعة أتيليه تاتش – المحروسة
الناشر	**الدار للنشر والتوزيع**
المدير العام	**محمد صلاح مراد**
تليفون	٠١١٢٥٨٠٠٤٦٧
بريد إلكتروني	eddar_press@yahoo.com
الموقع على الإنترنت	www.geocities.com/eddar_press www.facebook.com/eldarpublish
رقم الإيداع	٢٠١٧/١٩٩٠٤
الترقيم الدولي	ISBN: 978-977-702-195-1

وشيش

(روايـة)

صخر صدقي

٢٠١٧
الدار للنشر والتوزيع

ما فائدةُ الجناحين؟!

انحنى؛ يرصد بعينين متأملتين حشرةً ضئيلةً جدًا باسطةً جناحين شفيفين دقيقين، ثابتةً في مكانها على الأرض، تهفهفُ جناحيها ولا تطير، بحذرٍ شديدٍ زحفَ بإصبعه حتى كاد يلامسُها، لم تطر. لو نفخ فيها ربما تموت، لو لمسها بالتأكيد ستموت، تملّكته رغبةٌ شديدةٌ في أن يراها تطير، وإلا فما فائدةُ الجناحين؟! ظلّ يحرّكُ إصبعه حولها في كل الاتجاهات، بلا أدنى استجابة، حوّل بصرَه عنها، عندما سمع صوت باب حجرته يفتح، استفزته النظرة المشفقة للعين التي تقف صاحبتها بالباب، في كل مرةٍ تدخلُ عليه فيها، تراه في أوضاعٍ غريبة، كان هذه المرة جاثيًا على ركبتيه.

"الإفطار جاهز يا حبيبي." تنفرُه كلمةُ حبيبي التي تنطق بها، يفتقد سماعها تخرج من فمٍ آخر غير فمها، وهو في الواقع لا يسمعُها من أحدٍ غيرها.

كان قد ترك السيجارة تأكل نفسها، في وضعٍ رأسي، فوق المنضدة الملاصقة لفراشه، زعق فيها وهي تمد يدها إلى السيجارة: "أتركيها تحترق." تراجعت فزعةً: "يا ابني شكلك ممصوص، عظمك جف كأنه عيدان ذرة مخوخة، إذا كنت بتتعاطى صارحني، كل شيء وله علاج، لكن السكوت على الغلط مرض، واللي يزرع الريح يحصد غباره." يندهش من أين تأتي أمّه

بهذه الأمثال التي تكلمه بها من وقتٍ لآخر، راحت تعدّد مصائب الإدمان، ساقت له أمثلةً عديدة، الذين ماتوا من البانجو، والذين أفقدهم الترمادول عقولهم، عن المسلولين، وعن الممثلين الذين ماتوا صغار السن، صرخ فيها يسكتها: "أعرف أكثر من ذلك من المصائب." أشار إلى السيجارة التي تتآكل: "أدرّب نفسي على الاستغناء عنها." أكمل يرد على نظرتها المتحسرة: "وعنكم." هذا الجدل العقيم دبّ في أوصاله بعض النشاط، كان يحتاج إلى شيءٍ من الانفعال، قبل أن ينهض من وضعه على الأرض، ألقى نظرةً أخيرةً على الحشرة، لا تزال ترفرف دون أن تطير، نفخ فيها، فتلاشت.

تجاهل نظرات أمّه التي تصِمُه بالخبل، طالعَ وجهه في المرآة الصغيرة بجوار الباب، شفتاه محتقنتان، جبهته بارزة، يعلوها شعرٌ ناعمٌ فاحم، عيناه برّاقتان حزينتان، لم يطق التمعن في صورته، كانت أمّه تحدّق فيه، طالت وقفتها صامتةً دون أن يعيرَها اهتمامًا، خرجت صافقةً الباب، سقطت المرآة من شدةِ الصفقة، راح يلملم أشلاء وجهه التي تناثرت، يمعن التأمل في كلّ ملمحٍ من ملامِحه، أخيرًا تشظّى وجهه إلى أذن، وأنف، وفم، وعين، وذقن، كان مضحكًا أن يركّزَ على كلّ جزءٍ من أجزاء وجهه المتناثر، بعد أن كان لا يطيق التمعّن فيه كاملًا.

ولأنّه يرغبُ في التحليق

رجع إلى السرير، أشعل سيجارةً؛ يعاند بها النداء المتواصل الذي يأتيه من وراء الباب: "الفطار جاهز." مشاهد ما بعد الإفطار، لا تشجّع على مغادرة السرير، التسكّع طيلةَ النهار في الشوارع، بحثًا عن وظيفة، الاختيار التعس في حدوده الضيّقة لملبسٍ يناسب شهادته الجامعية التي تعب من التخلص منها واستخراج بدلًا عنها. تطلّع بغيظٍ إلى ما فوق مكتبه، الجرائد المفتوحة على صفحة الإعلانات، القصاصاتِ التي يتسوّلُ بها وظيفة، كتب وأوراق مبعثرة، تداخلت كلها في بعضها، منها ما فُتِحَت صفحاتُه، ومنها ما تمزقت أوراقه، على الأرفف المتآكلة، وفوق الكرسي وفي الحقيبة وتحت السرير، لا يتذكر زمنًا لم يكن محاطًا فيه بها وبالحقائب. كان يقاوم دوار النوم الذي تملّكه، زعق يوبّخ نفسَه بصوت مسموع: "قم يا حيوان، لا تدع الديدان تنهش جسدك حيًا." جلسَ على حافة السرير يحدّقُ في طرف بنطاله المتدلي من الشماعة ويحف بالأرضية، خزانة الملابس مفتوحة عن آخرها على فوضى هدومه، يقلّبُها في كل مرة باحثًا عن شيءٍ مناسبٍ يخرجُ به، تلعنُه أمّه، تعيد ترتيبها، وتكررُ لعنَه، وفي ذات الوقت تدعو له بالهداية. نقل بصرَه إلى هرم الحقائب التي جمعها في انتظار إشارة الرحيل، بعيدًا عن تراب الأرض، يبحر أو يطير. أدار دفةَ أفكاره نحو الطائر الذي يزوره من

وقتٍ لآخر، يكتفي بأن يلقي عليه تحيةَ الصباح بصوتٍ مسموعٍ قبلَ أن ينهضَ من فراشه، يسمعُه وهو يخفقُ بجناحيه، ولا يراه إلا في صباح اليوم التالي، فكّر أن يغيّرَ هذه المرة قواعدَ اللعبة، ويطيل من فترة وجوده معه؛ يقتله فضوله أن يكتّشف إذا ما كان للطائر تلك العيون متعددة الألوان، التي ظلّت تخايلُه منذ طفولته بعد أن فارقته أخته الرضيعة، اتجه ببصره نحو زجاج النافذة الذي يغلقه، ويترك الشيش وراءه مفتوحًا، يفعل ذلك متعمدًا حتى يتسنى له رؤية الطائر وهو يحط على إفريزها في كل صباح، يندهش لبلادته في التعامل مع الهلّة غير المتوقعة لهذا الطائر الغريب؛ لم يمنحه ما يستحقه من وقتٍ للتأمل فيه، وهو الأجدر بالاهتمام من أي إعلانٍ عن وظيفة، وما الذي يطمع فيه أكثر من تلك المواقف المثيرة؛ تنعشُ روحَه، تزيد من يقينه بأن الحياة رغم كل شيءٍ تزخرُ بالغرابة البديعة، وبما يتجاوز ما تراه العين، وتدركه الحواس اليومية. ظلّ يحدّق في النافذة، مستنفرًا كل حواسه، متمنيًا حدوث أي شيءٍ غير عادي؛ لينفعل به، ويفكّر فيه، أخذ يترقّب في تلهف لحظةَ وصولِ الطائر؛ حتى يندمج معه خارج نطاق كل ما يراه، وما يحيط به من أشياء ضجَّ من رؤيتها وهي تراوح مكانها، ولا تتبدل إلا نحو القِدم، أحسَ بالزغللةِ في عينيه، وبالتنميل يسري في جسده عندما سمع صفير الطائرِ المنغّم، والرفرفةَ الرقيقةَ لجناحيه. استقر الطائر على إفريز النافذة من الخارج، رآه يشرئب بعنقِه الدقيق، يبادلُه النظرات من وراء الزجاج المغلق، زحف التنميل إلى رأسه، شعر بشعرِه يطقطق من الرهبة. ظلّ الطائر واقفًا، ربما في انتظار أن يسمع تحية الصباح، تبادلا نظرةً طويلةً، راح بعدها ينقر على زجاج النافذة، تبدد التنميل، تراخت ملامحه، اعترته دفقةُ فرح، وقد تملّكه هذا اليقين الهادئ

اللطيف، بأن شيئًا عظيمًا على وشك الحدوث، واحدةً من تلك التجليات التي يحتفظ بسرها لنفسه، والتي كانت بدايةَ عهده بها وهو في الخامسةِ من عمره، عندما ماتت أخته الرضيعة، صمتها الأبدي كان عصيًا على الفهم، حتى أنّه رغب بشدةٍ في معرفة أين ذهبت، وبدلًا من أن يعرف مكانها، رأى حينها ما أذهله.

خاف أن يأتي بأي حركةٍ تفزع الطائر، ظلّت عيناه معلّقتين بالمنقار الأصفر الدقيق وهو يدق بنغماتٍ بدت وكأنّها منتظمة، بل ومشفرةٌ أيضًا، راح يصغي إلى ذلك الهاجس البديع بداخله بالانفراجة المرتقبة، انتظر طويلًا، فلم يحدث شيء، ولكن ما الذي يترقب حدوثه أكثر من ذلك؟ أليس كافيًا أن الطائر يأنس له، ولا يخشاه؟! قال يخاطبه في همسٍ مسموع: "ما الذي تريد أن تبلغني به؟" في إيماءةٍ غريبةٍ ألصق الطائر وجهه بالنافذة واستكان على هذا الوضع، اجتاحته قشعريرةٌ عميقة، حدس معها أن الطائر يصغي إليه، رفع من صوته قليلًا: "أنت غريبٌ يا صديقي، غريبٌ، جميلٌ، وعجيب، ربما تكون فيلسوفًا أو لا منتميًا وسط نوعك، وبالتأكيد لديك ما تود إبلاغي به." ضغط الطائر بمنقاره على الزجاج وكأنّما يرغبُ في فتحه، ظلَّ يدق بمنقاره، وينقر في إلحاحٍ بحذرٍ شديد، جرّب أن يتقدم بهدوءٍ ليختبرَ مدى جدّية الطائر في الرغبة بالدخول، اقترّب من النافذة، توقّف الطائرُ عن النقر، أصدر صوتًا منغّمًا، متقطِعًا، كاد يتوقف قلبه من شدة الحذر وهو يقترب أكثر، لم يبق سوى خطوةٍ واحدة، خطوةٍ واحدةٍ فقط، ويصبح وجهًا لوجه مع صديقه الجديد، سكت الطائر، وكان مثله في حالة ترقّب، ولكنه لم يكن مثله متخشبًا، ظلَّ يحرّكُ رأسه بحركاتٍ وئيدةٍ، بدون خوف، بدون تعجّل،

وكأنّه لا يحركها إلا من أجل ضبط مجال الرؤية، وليس لأي غرضٍ آخر، تشجّع واقترب من الطائر أكثر، راح يملي نظره برؤيته، كان في حجم عصفورٍ صغير، ولكنّه بريشٍ ملوّن، ربما يكون قد هرب من قفصه وجاء يبحث عن مأوى آخر جديد، وربما يكون قد فقد القدرة على الطيران، خلال فترة التحديق بينهما، تجاوزت رغبته في رؤيته وهو يقفز إلى الداخل كل ما رغب فيه طيلة حياته، فقرر أن يتّخذ خطوةً حاسمة، ويزيلَ الحاجزَ الزجاجي بينهما، في حذرٍ شديدٍ فتح النافذة، شعر بالقشعريرةِ التي تسري في كلّ جسده تكاد تشلُّه، وهو يرى الطائر بقفزةٍ رشيقةٍ واحدةٍ قد حطَّ على إفريز النافذة من الداخل، وفي استرخاءٍ ودودٍ فرد جناحيه وكأنه يتمطّى، تراجع مرغمًا إلى الوراء، وكأنه يشجّعُه على التقدم أكثر إلى الداخل، مأخوذًا في استثارةٍ نشوانةٍ همس مرحّبًا: "اتفضل." سقط قلبه عندما انفتح باب الحجرة عنوةً، تجمّد في مواجهة أخته الحانقة، كانت بزي الخروج، وبيدها قطةٌ تموء، تقول في احتدادٍ ساخِط: "ننتظرك على الفطار لأكثر من ساعة." رد عليها مغتاظًا: "قلت لكم ألفَ مرة: لا أحب مشاركتكم المائدة." ردّت بصوتها المعدني الثاقب الذي يوتّره: "أنت كائنٌ بلا فائدة." قذفته بالقطة، خبطت صدره، سقطت على الأرض بخبطة مسموعة، شتمته أخته، خرجت، صفقت الباب، فوجئ بالقطة تقفز في محاولةٍ للانقضاضِ على الطائر، أفلت الطائرُ من قبضتها، هوت بقوة اندفاعِها في المنور، لم يقلقه مصير القطة لأن الشقة في الدور الأرضي، لكن أبهره سلوك الطائر، فبدلًا من أن يفزعَ ويفرَ هاربًا، كان يخفق بأجنحته الملوّنة في رفرفةٍ سريعةٍ مبتهجةٍ شعرَ بها تلفحُ وجهه وتنعش صدره، ارتفع بعدها عموديًا إلى قرب منتصف المسافة بين قاعدة

النافذة وقمّتِها، ظلّ متعلقًا عند هذه النقطة دون أن يكفّا جناحاه الملونان عن الخفقان، عاد وحطّ بقدميه على إفريز النافذة، فكّر أن يجلسَ على حافة السرير بعيدًا عنه، يترقب الخطوة التالية، لكن قبل أن يهم بالجلوس، فوجئ بالطائر ينتفض انتفاضةً قويةً أحدثت صوتًا هائلًا، رآه يومض كالشهاب في صعوده إلى الأعالي، مخلفًا وراءه خطًا طويلًا ممتدًا من زغبٍ رقيقٍ شفيفٍ لا تُحصَى ألوانه، شعر بالزغب الملوّن يتحرك في اتجاهه، يحيط به، يلفه بنعومةٍ شديدة، يداعب وجهه بحنو، استولى عليه شعورٌ رائع، ومرعب، عندما وجد الزغب وقد تشكل رداءً، أحاط بجسده، تأكد له وهو يتحسس برفقٍ ثوبَه الجديد من أنّه أصبح بشكلٍ مذهلٍ مؤهلًا للتحليق، بعيدًا عن التراب، وبعيدًا عن الطين.

حرف الياء

وهو في طريقه إلى التصفية النهائية، كان في حالةٍ تشبه الطيران، منتشيًا ومزهوًا بثوبه الجديد، يملؤه اليقين بأنه سيكون بوسعه اجتياز المقابلة بنفس امتياز التخرج، متبقي أكثرُ من ساعتين على موعدِ المقابلة، يحاول وهو يمشي وحده، أن يتخلّص من عادةِ ملامسةِ يده لكل ما يمر عليه، أعمدة النور، العربات المركونة على جانب الطريق، الأشجار التي يطيب له أن ينقر على جذوعها.

أمام العمارة التي بداخلها الشركة توقّف، أخذ قلبُه يدقُ بعنفٍ قبل أن يخطو إلى الداخل، مكث على عتبةِ الباب يحايل قلبه كي يهدأ، وبعد أن انتظمت أنفاسُه، تجاوز العتبة، فوجئ بالمقاعد العديدة وقد شغلها مجموعةٌ من العاطلين أمثاله.

جلس وقرأ ملامحَ الترقب والتحفز والقلق التي تبدّت بوضوحٍ على الوجوه، ربما لأنها أكثر المحطات خطورةً، التصفية النهائية، لقد خَبِرَ هذا في موقفٍ سابقٍ مشابه، كلّما اقتربت لحظةُ الحسم، تزداد حدةُ التوتر والنفور بين المتنافسين، يستعيد كلمات أبيه: "الوظيفة مناسبة جدًا ليس فقط لشهادتك وتقديرك، لكن أيضًا لشخصيّتك." وهذا ما أقنعه به الأب وهو يمرر له العنوان.

كان قد وضع مجلةً في حقيبته؛ ليقطع بها وقت الانتظار المزعج في إحدى زوايا المكان. لمح مقعدًا خاليًا بجوار أحد العاملين في الشركة، عرفَه من زيّه، قميص برتقالي، بنطلون أصفر، وكاب بلون البنطلون. حيّاه بإيماءةٍ سريعةٍ من رأسه قبل أن يستأذِنَه بالجلوس، أخرج المجلة من حقيبة أوراقه، وضع ساقًا فوق ساق، غاب داخل الصفحات التي يقلّبها، فوجئ وهو في استغراقه بالقراءة بيدٍ تمسك ساقه بقسوةٍ، وتنزل بها إلى الأرض، التقت عيناه بعينين واسعتين لرجلٍ غريبِ الشكل، بوجهٍ مستديرٍ جميلٍ غائرٍ وسط كتفيه، نظر إليه الرجل طويلًا وقال يعنّفه: "عيب يا أخي!" انغلاق فهمِه لتصرف من هذا النوع، يُلجِم لسانه. أمسك برأسه، يفتّش فيها عن موضع الخطأ، أغلق المجلة، قام من مكانه، اتّجه صوبَ باب الخروج، يقدم خطوةً ويؤخّر خطوة، أيقن أنّه لا يميل إلى ترك المكان، بدليل تركه لحقيبة أوراقه على المقعد الذي كان يجلس عليه، وهل من المعقول أن ينسحب بعد أن قطع كل هذا الشوط! رجع إلى مكانه، اتّجه ببصره يتأمل الرجل الذي اعتدى على راحة ساقه، وجده يحملق فيه بنظرة كارهة، يقول موبخًا: "لا تغترّ بشبابك." انفجرَ يامن بالضحك، نهض الرجل من مكانه، مشى صوبه بخطواتٍ متحفزّة، طعنه بنظرةٍ نافذة، غمغم بضع كلماتٍ مبهمة، اتّجه نحو باب الخروج، ظلّ واقِفًا على عتبة الباب، ولم يخرج.

وهو يتصفح المجلة، شعر برأس العامل بجواره تلامس رأسه، ابتعد بها في الاتجاه الآخر، لاحقه العامل بكتفه، أبعد كتفه عنه. عينا العامل على الصفحة، تردد في تقليبها، ولكنّه قلبها، رأس العامل تنكفئ على الصفحة الجديدة، وتحجب عنه الرؤية، بحركةٍ سريعةٍ وضع المجلة في حجر العامل: "اقرأ

براحتك." لم يبد العامل أي ارتباك أو حرج، ردَّ بصوتٍ محايد: "أنا لا أعرف القراءة." ترك له المجلة مفتوحة على الصور: "اتفرج براحتك." نهض.

جلس هذه المرة، قبالة الرجل القابع خلف مكتبه، هو لا يعرف حتى هذه اللحظة وظيفته، يتصدر المكان بوجهٍ متحفز، بوحمةٍ تشبه عينًا ثالثةً بجوار عينه، وبصدرٍ بارز قليلًا للأمام، بدا وكأنه لصٌ للأرواح، يسترق نظراتٍ فاحصةٍ بعينين متيبستين، الجفون لا ترمش، مثبّتة بقوة شدِّ الجلد، لا تعكس ملامحُه إلا انطباعًا واحدًا مملًا لشخصٍ عابسِ الوجه، ينقر على المكتب بقلمٍ في يده، بحركة رتيبة تثير أعصاب من يركز على سماعها، في إحدى نقراته سقط القلم من يده على الأرض، لم يكلّف نفسه عناءَ التقاطه. بعد برهةٍ، وبدون كلمة شكر، تناوله من يد أحد المتسابقين، رفع سماعة التليفون بجواره، همس ببضع كلماتٍ مشفّرة، علا صوته فجأة، يقول لمن يحادثه: "من الأفضل أن أنادي عليهم حسب الحروف الأبجدية." وضع السماعة ببطءٍ شديد، هرش بجوار وحمته، شبّك يديه أمامه على المكتب، أبلغهم بصوت نحاسيٍ رنّانٍ بالقرار: "الدخول حسب الحروف الأبجدية." انتظر دقيقةً يترقب ردود الأفعال، انبرت إحدى المتسابقات، وكانت امرأة في الثلاثينات، سمينة ومحجّبة، قالت معترضة: "هذا ليس عدلًا، المفروض أن يكون الدخول بأولوية الحضور، أنا كنت أول القادمين." نفش صدره، نقل يديه المتشابكتين إلى خلف رأسه، ردَّ عليها متهكمًا: "أنتم لا تقفون في طابور جمعية، من المفترض أنّكم متواجدون في نفس الوقت الذي حدّدناه." أظهرت شيئًا من التبرم، وعضلات وجهها تتقلص: "إذا كنتم تحترمون المواعيد، فلماذا لم تبدأوا في الوقت الذي أعلنتم عنه؟!" بإشارةٍ من يده طلب منها ألا تتمادى، قلّب

في أوراقٍ أمامه، قرّب واحدةً منها إلى عينه، نادى على المتسابق البادئ اسمه بحرف الألف، كان شابًا متأنقًا، بدا شديد الاعتزاز بنفسه وهو ينهض متباطِئًا، التفت للمرأة المتذمرة، أومأ معتذرًا وكأنّه هو الذي اعتدى على دورها، قال يطيّب خاطرها: "الآخِرون أوّلُون، والأوّلون آخِرون." هرشت ذقنها مفكرةً، هزّت رأسها في استسلام: "عندك حق." سكتت، ثم أطرقت، مشى الشاب المتأنق بهدوءٍ في اتجاه الممر الممتد الضيق، وعند الربع الأول من الممر، توقّف، تلفت حوله حائرًا، بدا أنّه لا يعرف أي الأبواب يطرق، ظلّ معلِقًا بصرَه نحو السكرتير، وعندما تبادلا النظر، استفسر بإشارةٍ متسائلة من يده، وعندما لم يلق منه جوابًا، رجع ليقف أمام مكتبه، يسأله في أدب شديد: "من فضلك، هناك حجرات أبوابها مفتوحة وأخرى أبوابها مغلقة، ولا أعرف أي الأبواب أدخل!" دون أن يجيبه أو حتى يلتّفت إليه، اعتمد السكرتير بذقنه على مرفق يده اليمنى، تاركًا سبابته في وضع سهم يشير إلى اتجاه الممر، وقف الشاب على حرف الألف مرتبكًا، قال بدون أن يحتّد: "من فضلك دلّني، الحجرات كثيرة." تجمّد السكرتير على وضع التجاهل، بدون إلحاحٍ، وبدون تذمر، هزّ الشاب المتأنق كتفه، مشى في الممر متمهلًا، يتوقف برهةً ثم يستأنف السير، ظلّ هكذا، حتى وصل إلى قرب النهاية، حيث اختفى داخل إحدى الحجرات، التي بدت من سجادة الضوءِ أمامها أن بابها مفتوحًا.

المتسابق على حرف الياء، تحسّر على المجلة التي تركها للعامل، ولكن هل يترك نفسه ليعيش قلق الانتظار حتى النهاية، مثلما كان يحدث له أيام الدراسة، بسبب اسمه الذي يتذيّل القائمة؟! بمجرد أن ينطق المدرس اسمه

"يامن" يصيبه الجفاف، ربما يكون الأمر مختلفًا الآن، فهو على العكس، يجدها فرصةً لتتبع المسارات، وقراءة المصائر على الوجوه. استرق نظرةً جانبيةً للفتاة بجواره، وجدها تلهي نفسها بمداعبة أزرار المحمول بأناملها الدقيقة السمراء. مرّت فترةٌ طويلةٌ دون أن ينادي السكرتير على المتسابق التالي، ولم يظهر الأوّل، وأخيرًا وبعد أن ظلَّ ينظر في ساعته ويداعب وحمته، رفع رأسه، نادى على من جاء دوره، كانت فتاةً طويلةً نحيفةً على حرف الجيم، مالت على السكرتير تسأله بأدب: "أي حجرة؟" بدون أن ينظر إليها ترك كفه الذي عمل منه سهمًا يشير إلى الاتجاه نفسه، وراح يدور بعينيه على بقية المتسابقين، سألته بصوتٍ كبحت انفعاله: "آخر حجرة في الممر؟" انشغل عنها برفع سماعة التليفون، ظلّ محتفظًا بالسماعة في يده، وبيده الأخرى ينقر بالقلم في دقاتٍ مستفزة، لم تجد ما تعبّر به عن استيائها إلا بإيماءةِ حيرةٍ بكفيها، مشت وعيناها على قدميها. راح يامن يتابعها، وهي تقف أمام سجادة ضوء في منتصف الردهة، وقفت برهةً مترددةً قبل أن تختفي بداخل حجرةٍ غير تلك التي دخلها المتسابق الأول. بدأت الأسماء تتوالى بدون فارقٍ زمنيٍ كبير بينهم، لكن الشيء الذي لفت انتباه يامن، هو وجود أكثر من حجرة يمكن للمتسابقين أن يدخلوها، وما يثير الدهشة هو عدم خروج أي منهم، ربما يخرجون من بابٍ آخر! وربما يجلسون في حالةِ انتظارٍ في بهوٍ آخر! أو ربما يتناظرون كمجموعة! ربما! ربما! بدأ الشك يساوره، برق في رأسه خاطر، لقد بدأت بالفعل اختبارات التصفية النهائية، منذ تلك اللحظة التي وطأت فيها قدمه أرض الشركة، فلا يمكن أن توظف الشركة عاملًا لا يعرف القراءة، وما معنى أن يتجرأ شخص لا يعرفه، أن ينزل إحدى ساقيه من فوق

الأخرى، ليختفي بعد ذلك؟! وهذا الكائن الحجري، الذي يمارس من وراء مكتبه، حيله المتغطرسة! كلّهم ممثلون.

لم يبق إلا هو والمتسابقة التي اعترضت على الدخول بحسب الحروف الأبجدية، عندما التقت نظراتهما انتقلت على الفور من مكانها لتجلس بجواره، مالت عليه تسأله: "لماذا يأخذون كل هذا الوقت بالداخل؟" وقبل أن يفتح فمه كان قد نودي عليها، وكانت على حرف الواو، قامت من مكانها بهدوء، خلفت عطرها الممتزج برائحة عرقها، اتجهت بخطواتٍ واثقةٍ في اتجاه السكرتير المزعوم، وقفت أمامه بثباتٍ تستفسر منه عن المكان، ردّ عليها بسهم يده، فردّت كفيها في وجهه: "لن أتحرك قبل أن تنطق وترشدني على المكان بالضبط." متجاهلًا مدَّ يده ورفع سماعة التليفون، توارى خلف حديثٍ خالٍ من المعنى، التفتت نحو يامن تستنجد به: "هل يعجبك هذا التصرف؟" تردّد في مبادلتها الاستنكار، وقد داعب رأسه هاجسٌ مضحك، بأنها ليست إلا واحدةٌ منهم، اكتفى بهز كتفيه، وبدا المشهد أكثرَ إثارةً عندما لاحظ اختفاء سجاجيد الضوء، من أمام الحجرات التي كانوا يختفون بداخلها، مما يعطي انطباعًا بانغلاق كل الأبواب، لمحها تقطع الردهة ذهابًا وإيابًا، تدق على الأبواب المغلقة التي تمر عليها بعصبيةٍ وبعنفٍ مسموع، رجعت متبرمةً، تشيح بيدها في جزعٍ في كل اتجاه، وكلّما اقتربت من السكرتير ازداد هياجها، عندما صارت أمامه، دقّت بيدٍ غاضبةٍ على مكتبه، صرخت في وجهه: "مهزلة وتهريج واستهانة بالبني آدمين." وعندما رفع سبّابته ليشير إلى اتجاه باب الخروج، جذبت حقيبتها المعلّقة على كتفها، أسندتها على صدرها، فتحتها بعنف، راحت تفتش عن شيءٍ بداخلها، عندما

أخرجته، اتضّح أنّه مقص، راحت تشهره في وجه الرجل: "لا تخف، لن أقتلك، فقط سوف أغرزه في رقبتك، لتكون عظةً لكل الأوساخ من أمثالك." انشقت الأرض على أحد العمال، اندفع نحوها، خلّص المقص من يدها، نزع عنها حجابها، جذبها من شعرها الذي لم يبق منه الكثير، اتجه بها نحو باب الخروج، تعالت على عتبة الباب صيحات العراك، وجلبة المعافرة.

بدا أن عمرًا بأكمله قد مرَّ على يامن، وهو وحده في حالة انتظار، وعندما نودي على اسمه، قرر أن يفعل عكس كل ما رآهم يفعلوه، تجاهل السكرتير تمامًا وكأنّه غير موجود، سار بخطى متمهلةٍ في اتجاه الممر، لن تنطلي عليه ألاعيب كل هؤلاء الممثلين، نقر نقرةً خفيفةً على أول بابٍ قابله في الردهة لم يلحظ أحدًا من المتسابقين يدخله، انتظر برهةً، لم يتلق أي جواب، دق دقتين، وبدون أن ينتظر ردًا حاول فتح الباب، لم يجد مقبضًا يديره، حاول دفعه بيده، لم يستجب، وبكتفه، بلا فائدة، كرّر المحاولة مع الباب التالي في الردهة، لم يفتح، وحتى لا تتملكه الحيرة اليائسة، قرر أن يكفَ عن محاولة النقر على الأبواب، مشى في الممر الذي توجد الحجرات على جانبٍ واحدٍ منه، كان يتحرك بثقةِ من لم يعد تهمه الوظيفة، وإن كان في أعماقه يعرف بأن هذه اللامبالاة، سوف تعزز فرص نجاحه، ظلّ يتحرك بطول الردهة ذهابًا وإيابًا، يداه متشابكتان خلف ظهره، وعيناه تفتشان على أي مصدر ضوء، في التفاتةٍ سريعةٍ إلى حيث يجلس السكرتير، استرعى انتباهه خلو مكتبه، خطا في اتجاه صالة الاستقبال التي كانوا يجلسون فيها، لم يجد أحدًا، وبنظرةٍ سريعةٍ ناحية المدخل، لدهشته وجد باب الخروج موصدًا، رجع إلى الردهة، كل شيءٍ لا يزال على وضعه، إلا أنّه لمح الشمس

تفترش سجادتها المضيئة أمام آخر باب في الممر، فكّ الاشتباك بين ذراعيه من وراء ظهره، أسرع في اتجاه مصدر الضوء، كتم ضحكةً كادت تفلت منه عندما جال في خاطره أنّه أصبح فجأة صاحب المكان، وأنه أخيرًا سوف يتذوق طعم التخرج بامتياز.

وقف على باب الحجرة مترددًا، يتلصص، ويتنصت، لم ير أحدًا، ولم يسمع صوتًا، وبدا الأمر غامضًا، ومسليًا، وكأنّه فيلم هتشكوكي، أو حكايةٌ كافكاوية، لقد قرأ رواياتٍ وشاهد أفلامًا بسيناريوهاتٍ مماثلة، لم يكن هذا إلا ليزيده زهوًا بإمكانياته الخاصة في كشف اللعبة التي بدأت تتبلور معالمها وتستهويه: "الأوغاد! كلّهم، كل من قابلهم ليسوا إلا ممثلين!" قرّر بعزمٍ أكيدٍ أن يُشهِر في وجوههم كلّ أسلحته الفاسدة، اللامبالاة، والتحدي، والمثابرة، والبرود، والتناحة، ليس عنده ما يخسره، ولديه من الوقت ما يزيد عن الحاجة، نقر على الباب المفتوح نقراتٍ مُنغّمَة، كما لو أنّه يقرع طبلة، لم يصدّق أذنيه عندما سمع الرد يأتيه من الداخل آمرًا: "ادخل." تقدّم إلى الداخل، وجدها حجرةً واسعة، النصف الذي يقف فيه خالٍ من الأثاث، يفصله عن الجزء الآخر حاجزٌ زجاجي ينتهي ببابٍ خشبيٍ صغير، لمح من خلال الزجاج المغبّش شبح امرأةٍ تتماوج، كما لو كانت تتدرب على الرقص، وقف برهةً مترددًا قبل أن ينقر بأصابعه نغمةً خفيفةً على الباب، لمح شبحها منتصبًا وساكنًا، وكأنّها تجمّدت، دقّ على الباب مرةً أخرى، تحركت وبدا وكأنها على وشك أن تأخذ وضع الجلوس، انتظر برهةً حتى استقرت على وضعها الجديد، عاود النقر على الباب حتى سمع صوتها الأنثوي: "تفضل." دفع الباب، ليجد نفسه في مواجهة امرأة بعينين براقتين غريبتين لا يمكن

معرفة لونهما، كانت جالسةً وراء مكتبها بظهرٍ مستقيم، ورصانةٍ واضحة، وكأنّها امرأةٌ أخرى غير تلك التي رأها تتقصع وتتلوى من وراء الحاجز الزجاجي، خشي أن يكون قد أخطأ المكان، عندما قرأ في عينيها استفسارًا عن سبب وجوده بالحجرة، قال يبرّئ نفسه: "الموظف المسئول لا يجيب على أي استفسار، ولا ينطق.." بإشارةٍ من يدها أسكتته، وبإشارةٍ أخرى طلبت منه الجلوس على المقعد الأيسر أمام مكتبها، أحنت رأسها، انجذب بصره لخصلة شعرها الحمراء التي بدت كجزيرة مرجانية في محيط من السواد، جلس ملتزمًا صمتًا مترقبًا، كان لها تلك الملامح الجديرة بالتأمل، بدت منشغلة في التفكير فيما ينبغي عمله، لم يطل هذا، ضغطت على زر جهازٍ صغيرٍ أمامها، حرّكت مقعدها نصف دورةٍ تنظر باتجاه الشاشة البيضاء التي تغطّي الحائط وراءها، على الشاشة تمايزت الألوان وتشكّلت، ليُشاهدَ غابةً كثيفةَ الأشجار، قرودًا تتقافز عليها، ثم لقطةً جانبية لظبيٍ شاردٍ في بقعةٍ تتسيدها الحشائش، تتبدّل المشاهد بسرعة، يظهر قطيعٌ من الأفيال، حمرٌ وحشية، وزرافات، لتنتقل الكاميرا بعد ذلك إلى كائنات البحار، وأخرى عند تجمعات المياه، نوارس، وبجع، وتماسيح، وطيورٌ بسيقانٍ رفيعةٍ جدًا تمشي على سطح الماء، ضغطت على زر الإغلاق، استعادت الشاشة بياضها، كان شاردًا يفكّر في مغزى تلك الأدوار التي تلعبها معه، رجعت بالمقعد، ألقت إليه بنظرة ثاقبة متألقة، سألته: "ما هي أكثر المشاهد التي شدّت انتباهك؟" ردّ على الفور: "كنت أفكّر فيك." لم تبد دهشة، ولم تعلّق، وبدون أن تزيح نظرها عنه، وبهدوء شديد أعادت تدوير المناظر ذاتها مرةً أخرى، بعد انتهائها ضغطت على زر الإغلاق، كرّرت عليه السؤال: "ما هي أكثر المشاهد التي

شدّت اتباهك؟" ردّ عليها بعد هنيهةٍ تفكير: "الطيور التي كانت تمشي على سطح الماء، ولكنني لا زلت أفكّر فيك." أخذت وضع الإصغاء وهي تستنّد بيديها على المكتب وتميل بصدرها في اتجاهه، طالت فترة تحفزها لسماع المزيد، ولكنّه التزم الصمت، فردت صدرها، ضغطت على زر التشغيل مرةً أخرى، امتلأت الشاشة بمجموعة متباينة من النباتات آكلة الحشرات، تعرض بالتصوير البطئ آليات الاقتناص، انغلاق نصلّي ورقةِ نباتٍ متوحّشٍ على الحشرة، وآخر يغلق فتحة الدخول على الضحية التي انزلقت إلى داخل دورقه، ونبات ثالث يعتّصر الحشرة بزوائده اللزجة العديدة، أوقفت الصورة، تمعنت في ملامحه، سألته: "بماذا توحي إليك هذه المشاهد؟" تململ وهو يحاذر أن يقع تحت غواية الاستهانة، لا ينبغي أن يفسد المقابلة، ولا مفر من أن يكون صادقًا في بوحه، ردّ: "أوحت إليّ بما يجري في العالم من صراعات." راقبها بفضول، ارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة، تملكه الشعور بأنه في حفل يستوجب العزف على كل آلاته الموسيقية، أكمل: "أرى أن القسوة والافتراس سمةً من سمات الحياة، ولم يشذ عالم النبات عن تلك القاعدة، ولم تأت هذه الوحشية من فراغ، فبداية الكون لم تكن إلا انفجارًا عظيمًا، الكون ملئ بالانفجارات، والأرض نفسها ستنفجر." لم ترتسم على وجهها أي علامة بالقبول، ولا حتى بالاستنكار، يتردد صدى ما قاله في رأسه، وهو يرغب في الاستفاضة، لكن كيف وقد انشغلت عنه بالعبث في الجهاز أمامها! تُخرِج شريحةً وتدخل أخرى، وأخيرًا ضغطت على زر التشغيل؛ ليظهر على الشاشة خلفها مشهدٌ لجنينٍ يمر ببطءٍ شديدٍ بمراحل مختلفة من التطور، تبدأ من كائن وحيد الخلية، تتشكل ملامحه بالتدريج، حتى يصل إلى

الإنسان، لينتهي بمرحلةٍ يتبدل فيها الشكل الإنساني، ليأخد صورةً أخرى غير واضحة المعالم، وإن كان كبر حجم رأسه يفيد بأنّه في مرحلةٍ أكثرَ تقدمًا.

بعد أن دارت بالمقعد دورةً كاملةً، رجعت تسيطّر عليه بعينيها، سألته: "في أي مرحلة من مراحل التطور وجدتَّ نفسك في كل تلك الصور؟" ردّ بعد برهةِ تفكير: "آخر مرحلة." سكت ينتظر تعليقها، وجدها تعيد الكرّة مع مشاهدَ أخرى، كانت هذه المرة لفورانٍ بركاني، حيث تتكاثف سحب الغازات البركانية بشكلٍ مخيفٍ فوق إحدى القرى الآسيوية، الناس تجري مذعورةً إلى خارج القرية، كل من تطاله الغازات يهلك في لحظتها، في إيماءةٍ مباغتة، خبط بيده على جبهته، ضغطت زر الإغلاق، دارت بمقعدها، توقفت، راحت تهز قدميها وكأنّها طفلةٌ تتأرجح، قفزت الابتسامة الغامضة على وجهها، سألته: "هل أزعجك المشهد؟" ارتاح للنغمة الودودة في صوتها، تاهت منه الإجابة وهو يقرأ في عينيها الجذّابتين إعجابًا مُضمرًا، هذه المرأة تمتلك وجهًا بمزيج مدهش من الصرامة والمرونة، تتبدى بوضوح في نظرتها الحازمة وابتسامتها العذبة، بزغت ابتسامةُ رضا على وجهه، جو الحجرة مريحٌ وأنيق، برودةٌ محببةٌ للهواء ممتزجةٌ بعطرها، ضوء النهار يداعب وجهها من كل الزوايا، مثل رقرقةِ المياه في وداعةِ انسيابها على الواجهات الزجاجية لمحلات الزهور، يفكر بأنّه لا ينبغي أن يستغرقَ في التفكير فيها، حتى لا يجرفه التيار بعيدًا عن هدفه في الفوز بالوظيفة، خاصةً وأن ما يجري حوله ليس إلا اللمسات النهائية، ربما بشيءٍ من الغموض اللذيذ. وماذا بعد! كل منهما ينتظر أن يبدأ الآخر بالكلام، الصمت الذي طال بينهما صار محفوفٌ بالتّرقب، ومفتوحٌ على احتمالاتٍ مثيرة، برغم برودة هواء التكييف بدأ يشعر

بسخونة جلد المقعد من تحته، عقد وفك ساقيه مرتين، وهو يحاول أن يغوص في ملامِحَها التي تزداد غموضًا بمرور الوقت، يستدعي تلك الأمنية التي لازمته منذ الصغر، بأنّه سوف يأتي عليه اليوم الذي يستطيع فيه أن يحلَ كلَّ الألغاز، ينبش بفضوله النّهِم في الخبايا المغلّفة بالأسرار، لم يخطر على باله أبدًا أنّه سيكون طرفًا في لغز، في المرة السابقة كان الامتحان تحريريًا، وكان على راحته، يكتب ما يشاء، بدون عيونٍ تراقبه وترصد انفعالاته، والأسئلة كانت من النوع غير المألوف الذي يستهويه الإجابة عليها، وله مطلق الحرية في نقل كل ما يخطر على باله من أفكار، والآن وقد تملكته الرغبة نفسها في طرح أفكاره بلا قيود، ما الذي يمنعه من أن يتمثلها ورقة إجابةٍ بشرية، خاصة بعد أن تجمّد وجهُها على تعبيرٍ واحد، النظرة في عينها لا تحيد عن عينه، بإلحاح غريبٍ أن يبدأ هو بالكلام، كادت تنتابه نوبةُ ضحك، لولا أنّه تجاوزها، لتنقلب فجأة إلى استغرابٍ، نطق بما يحتفظ به في قلبه، وظل يكبح جماح قوله: "لماذا نبالغ في الغموض، ألا يكفينا غرابةُ وجودنا، وغموض العالم؟" شجعته علامة الاهتمام التي بدت متألقة في عينيها على أن يردَّ على نفسه: "ربما يكون من الأفضل أن يظلَّ العالمُ على غموضه، ربما لو تعرّى سنفقد الاهتمام به، تمامًا مثل الفيلم الذي يفقد طعمه عندما نعرف نهايته." أطلقت شيئًا من التنهد المكتوم، سألته: "هل تقبل بوجودك في هذا العالم بكل مافيه من شقاء وكوارث؟" بحركةٍ رقيقةٍ من يدها، وإيماءةٍ خفيفةٍ من رأسها، مرّرت له رغبتها في سماع رده، ولم يكن يرغب في أكثر من تلك الإشارة، يشعر بأن الحوار بينهما قد قفز إلى المياه التي يحب الخوض فيها، وبكامل حريته: "لطالما تملكني شبه يقين بأن كلّ الكوارث الإنسانية ليست

إلا محصلةَ أوهام؟!" غرزت إصبعها في خدها سألته بفضول واضح: "والكوارث الطبيعية؟" ردَّ على الفور: "حقيقية مائة في المائة، وأتوقعها في أي لحظة."

- وما هو الحل في نظرك؟
- أن يتّحد الإنسان ضد الكوارث الطبيعية.
- وكيف في رأيك يتحقق ذلك؟
- برمجةُ العالم من جديد.

دفست نفسها داخل مقعدها، دارت به نصف دورة، انتصبت في جلستها سألته: "ولكنّك لم تُضمّن بحثك هذه النقطة." زاغت عيناه وهو يفتّش في رأسه: "بحثي!" نهضت من مقعدها، أدارته بيدها، تركته يدور، تركت مكتبها، وخرجت إليه، ارتجف قليلًا عندما لفحه عطرها، مالت في اتجاهه، وكأنها تحاول أن توقِظَه: "بحثك يا أستاذ، هل نسيت ما كتبته بإسهابٍ عن الصهير، والانتروبيا، وعن ستيفن هوكنج، ونظرية كل شيء، والثقب الأسود." رجعت إلى مكانها خلف المكتب، قلّبت في الأوراق أمامها، مرّت بسرعةٍ عليها، لم تقرأ المدوّن بها وكأنّها تعرِفُه، رمته بنظرةٍ أدهشته طيبتها: "أنت شابٌ جميل، لكن المشكلة أنك تبحث في أشياءٍ خارج دائرة تخصصك، اسمع يا سيدي ما كتبته، كان حلمُه هو تفسير الكون من خلال قانونٍ واحد، والآن دعني أقرأ عليك ما هو أدهى من ذلك حتى تحكم بنفسك." راحت تفتّش عن صفحةٍ بعينها، توقّفت عندها وقرأت: "الوضع الإنساني مجموعة أوهام، وأنه ينحدر من النظام إلى الفوضى، في

تبددٍ سريع وعشوائيٍ للطاقة، والشائع وسط هذه الفوضى هو خداع النفس، وطالما الأمر خداعٌ في خداع، فكل إنسانٍ حرٌ في أن يعيش وهمَه الخاص، وأنه من العبث وسط عالمٍ من الأوهام، أن يُؤخَذ شيءٌ على محملِ الجد." سدّدت له نظرةً مُتفرِسة، نقرت على الأوراق بأظافرها: "هذا ما كتبته يا أستاذ، لا يمكن أن يُؤخَذ أي شيءٍ على محمل الجد، لا شيء جادٌ في حياةٍ من أهم سماتها التقلّب."

دارت بالمقعد جهة اليمين في نصف دورة، وفي نصف دورةٍ أخرى دارت به إلى الشمال، ظلّت تُكرّرُ هذه الحركة، دون أن تزيح عينها عنه، ثبّتت المقعد، نهضت تقول برنةِ طبيبٍ ساءت حالةُ مريضه: "أنت تعرف تمامًا أن شعار شركتنا هو الجدّية المطلقة، وهذا يتعارض مع استهانتك بكل شيء، للأسف، بصراحة النتيجة غير مشجِّعة." شعر بالتنميل يربط لسانه.

امتلأت الحجرة فجأةً بأصواتٍ متداخلةٍ لكائناتٍ عديدة، تجاوبت الجدران معها وردّدتها، وكأن كل ما عرضته على الشاشة خلفها قد انتزع نسيجها، وخرج منها، بدأ يشعرُ بهواءِ التكييف البارد الثقيل يواصل الدّقَ على صدره دون رحمةٍ ولا هوادة، خُيّلَ إليه أنّه سمع صفير طائرٍ يعرفه يأتي من أحد زوايا الحجرة، عندما تطلّع إلى مصدر الصوت وجده منكّمِشًا من البرد على حافةِ التكييف، انتفض واقفًا، لم يتمالك نفسه من الصياح مستنجدًا: "الطائر يموت، الطائر يتجمد من البرد."

خرجت إليه من وراء مكتبها، كانت في غاية اللطف، وهي تهز يده في حميميةِ من يعز عليه الفراق، وهي تُغمض عينيها، بانت أهدابها الطويلة

الإبريّة وهي تغطّي جفونها، فتحتهما بتأثر، تبلّدت ابتسامتها، وجمُدَت على وجهها، تقدِّمُ اعتذارها بشياكةٍ تفوقُ الوصف: "آسفة جدًا، أنت شابٌّ ممتاز، تقديرك ممتاز، وبالتأكيد تستحق وظيفةً ممتازة." يدها لا تفارق يده، يستشعر ضغطةَ يدها الخفيفة، الحرارة تنتقل إلى يده، يُطبِق بكفِ يده الأخرى على ظهر يدها، يقشعر بدنه من دغدغةِ الحرارة، العطر، والهواء البارد، والأنوثة الفجّة، عيناها تجولان في وقاحةٍ محبّبة، تمسح بهما بجرأةٍ مُشتّهاةٍ كلَّ مواضع الضعف، تبدأ من عينيه، مرورًا بشفتيه، حتى ساقيه، الضغطة الناعمة الحميمية من يدها تُغرِي بالتهور، آه لو يستطيع أن يتهوّر، يفقدُها ويفقد الوظيفة ويفقد نفسه! سحب يده، استعار أناقةَ اعتذارها: "وأنا آسفٌ جدًا لخسارتكم لي." تقوّسا حاجباها بشكلٍ لافتٍ حتّى أن أهدابها الإبريّة انغرست في الجفون، سمعها تردّد: "فعلًا.. خسارة." وضعت يدها على كتفه، وكأنها على وشك أن تقبّلَه، سألته: "أي طائرٍ كنتَ تتكلم عنه؟" كان قد لاحظ اختفاء الطائر بالتفاتةٍ سريعةٍ للمكان الذي رآه منكمشًا فيه، هزَّ كتفه في لا مبالاة: "أحيانًا أتخيّلُ أشياءً." عندما استدار ليخرجَ من الباب الجانبي الذي دخل منه، وجدها توجهه بإشارةٍ من يدها إلى بابٍ بلونِ الحائط بجوارِ مكتبها، لم يلحظ وجودَه من قبل، أو ربما ظنّه جزءًا من الديكور.

لقاء آخر

دقّ دقتين، لم يصله ردًا، ومثل كل الأبواب التي مرَّ عليها، لم يجد مِقبضًا يُديرُه منه، دفع البابَ بكتفه، طاوعه، انفتح بصريرٍ ناعم، انغلق وراءه على الفور بالصرير نفسه، بدلًا من أن يجد نفسه في الممر الذي جاء منه، تبدّل المشهد، واستشعر النقلة وهو بداخل حجرةٍ خالية، انغرزت قدمه في أرضيتها الاسفنجية، وكما لو أنّها شريحةٌ لدِنةٌ اقتُطِعَت من الفضاء، لم يحس بجاذبيتها، ولا بثقل جسده عليها، تملّكته رغبةٌ عارمةٌ في الوثبِ صعودًا وهبوطًا، ظلّ مستمتعًا بلعبة القفز حتى تعثّر وسقط، استشعر ملمسَ الأرضية الرخو الناعم، أمتعه الاستلقاء عليها في استرخاءٍ لذيذ، تطلّع إلى السقف من فوقِه، وجده مثل القبّةِ السماوية مفتوحًا على سماءٍ مضيئةٍ شفّافةٍ مزدانةٍ بالأقمارِ والنجوم، أغمض عينيه، ترك الضوء يضوي بداخله.

انتّفض مُنزعجًا، على أزيزِ طلقةٍ مرّت بجوار أذنه، بدأ الضوء يخبو، وما الذي يحاولونه معه الآن! لن تهتّز له شعرة، لن تخيفه صرخاتُ الهلع التي يخترقون بها أذنه، ولا الشظايا الطائشة التي تتطاير في اتجاهاتٍ عديدة، واثقًا بأنّه في أمان، ولا فائدة لكل ما يعرضونه الآن أمامه على الحوائط، وعلى السقف، من مشاهدِ عنفٍ وقتلٍ وذبح، لقد رأى على الطبيعة ما هو أبشع

مما يعرضونه، طُز! إن الواقعَ ألعن! الواقع ألعن! ملعون أبوكم! لأبو الواقع، لأبو الاختبار.

بدأت الضجة تخبو بالتدريج حتى اختفت تمامًا، ضوءٌ أزرق لا يعرف مصدره بدأ ينساب في وهن، ما لبث أن ازدّادت سرعة تدفقه حتى اكتّست به كل الحوائط، وسط تلك الكثافة الثقيلة للعتمة الزرقاء، لم يستطع الاستدلال على مكان بابٍ أو نافذةٍ أو أي فتحةٍ يخرجُ منها، دقّق بعينيه وتحسّس بيديه كلَّ الأماكن، ظلَّ لفترةٍ شعر بها طويلةً جدًا، يبحث بدون كللٍ في الحوائط، وفي السقف، وفي الأرضية، ولا دليل واحد، اللون نفسه الذي أصبح من كثرةِ التحديق فيه بلون الظلام، حفّزَ نفسه على مقاومة الإحساس بالاختناق، حتى يجتاز تلك المرحلة من الاختبار، التي كان واضحًا أنّها تتعلق بفوبيا الأماكن المغلقة، فكّر بأن يوفر طاقته، ينعم بشيءٍ من التراخي والاستسلام المريح، "كل شيءٍ له نهاية من الممكن احتماله." هو يحب هذه العبارة التي سمعها مرارًا من أبيه، لا مكان للجلوس سوى الأرض، لا مكان لأي شيءٍ سوى التأمّل اللذيذ، أسند ظهرَه للحائط، أغمض عينيه على ظلمة الكهف، يستعيدُ شغف الأسلاف بالصيد، يسترجع حياته في الكهف، وفي الرحم، ومع الآخرين، انفتحت نافذة ذاكرته على ربع قرنٍ من الزمان عاشها فوق هذا الكوكب الذي يلف معه ويدور، ويلف حول نفسه ويدور، يفكّر في تلك العيون متعددة الألوان التي يفتقد رؤيتها منذ طفولته، لم يستطع رؤيتها في عين الطائر الذي انقطعت زيارته له، ولا في عيون تلك الفتاة التي تكاد تقتله بغموضها، وحلاوة طلّتها، لم يعد يراوده أدنى شكٍ في أنّها صاحبةُ الشركة، كل أبحاثه، وتقاريره، ونتائج مقابلاته السابقة، مجمّعة في

ورقٍ أمامها، لن تنطلي عليه كل حيلها لسبر غوره، كلّها مكشوفةٌ وساذجة، يستعيد صورتَها في ذهنه، يطمئّن نفسه بقبولِها له، وأن ما قدّمته من اعتذارٍ ليس إلا جس نبض، كل شيءٍ يبدو مُعدًا سلفًا، ولا يملك في هذه اللحظة الميّتة سوى الانتظار، لا بد سينتهي الأمر بما لا مفر من حدوثه، والحال هكذا، فلا مناص من الارتداد إلى اللامبالاة البديعة، أغلق مفتاح التفكير والدهشة في رأسه، راح يمسّد شعره، يشده، يجدله ويفكّه، يصفّرُ بأنغامٍ متعددة، يقلّدُ طائرَه في صفيره، يمدّد قدميه، يتحسّسُ كل أجزاء جسده، يقرص أجزاءً منها، يداعب أجزاءً أُخرى، يصرخ من الألم، ومن اللذّة، يسلّي نفسه بنفسه، بصوته، وبجسده، وبالهواء الساخن الذي يخرج من فمه، فرد ظهره على الأرض، أغمض عينيه، أسلم نفسه لخيوط الكون الحريرية تُنسج من حولِه، تشرنّق داخلَ نسيجه؛ انتظارًا لبزوغٍ جديد.

أفاق على ضوءٍ، وعلى صوتٍ سدَّ أذنيه، عندما تصاعد الصخب انتفض بوخزةِ رعبٍ أمام الكائن الذي ظهر فجأةً، عكست أشلاءُ الضوء بشاعةَ وجهه غير الإنساني، رأس حليق، وجه مطموس الملامح بندباتٍ وبقعٍ سوداء، وبرقبةٍ تتصدّر هيئته بعضلاتها البارزة وعروقها النافرة، لم يمهله ليتدبر أمر مواجهته، أطلق في أذن يامن صرخةً حادة، شعر بالتنميل يأكل رأسه، كيف يناور في هذا الحيّز الضيق؟ وقف في وضع دفاعٍ عن النفس، كان منظر الرجل عدوانيًا، وهو يمسك يامن من قميصه، يكيل له الشتائم واللعنات التي توجّه لأحقرِ لص: "بتعمل إيه هنا يا حرامي ياوسخ يا ابن المرة ال.. ياابن ال..؟" راح يهزه من قميصه، تمزّق القميص في يده، دفع به دفعةً قويةً صدمته بالحائط، وقف يامن في وضع مقاومة، بجسدٍ يرتّعِد من الصدمة،

أخذ يصد بلا هوادةٍ ضرباتِ الرجل العشوائية، يعرف بأنّه يمر الآن بالخيار الصعب، مواجهة الشر بالشر! أم بصدّه! عاود الرجل محاولة شدّه ودفعه مرةً أخرى، فلت من قبضته هذه المرة، ليدور في دائرةٍ كان الرجل مركزها، يترصّد ردّ فعله، لم يبد الرجل رغبة كبيرة في الإيذاء، ظلّ يامن يدور، ويدور، حتى سرى خدر الشعور بالأمان في أوصاله. توقّف فجأةً، انفلتت منه ضحكة، اندهش هو نفسه لها، انهالت عليه دفعةٌ جديدةٌ من السباب، لم يكن في حالةٍ تسمح له بأي رد فعل، غير أن يكتم ضحكةً أخرى كادت تفلت منه، لم يعد يشغل باله سوى السؤال: "وماذا بعد؟" جاءه الرد سريعًا، عندما وجد نفسه ملقيًا به في الطريق، وكانت السقطة على كتفه الأيسر، مسحوقًا أمام كومةٍ من القمامة، فاقدًا القدرة على النهوض، وسط الذين يتطلعون إليه متغامزين، بدون أدنى نية لنجدّتِه، تحامل على نفسه ونهض، ينقل بصره بين حاله المزري، وعلامات التعجب على وجوه المتحلّقين حوله، وقف في وسطهم يضحك، وكأنّه خرج لتوّه من خمارة، كانوا وهم يركزون انتباههم عليه متحيّرين في أمره، يراقبون بتوجسٍ وحذرٍ كلَّ حركةٍ وأدقَ لفتةِ تبدر عنه، بعد أن انفضَّ الفضوليون من حوله، راح يتأمّل المكان في دهشةٍ وعدم تصديق، لم تكن هي العمارة، ولم يكن هو الشارع، كان مدخل البيت الذي ألقي به منه، ضيقًا وكئيبًا، مختلفًا تمامًا عن مدخل عمارة الشركة الواسع، والمرتفع عن أرض الشارع بدرجات السلم الرخامية، كان يميّزه أيضًا بالصفيحة الصدئة بجوار الباب، وبداخل طينتها المتجمّدة شجيرةٌ ذابلةُ الأوراق، دخل في نوبةِ قلقٍ جارف، مصيبة لو كان قد شاخ وأصابه الخرف! يستعيد كلَّ المشاهد المتداخلة في دوامة أحداثٍ غيرِ منطقية، التصفية الأولى، والتصفية الثانية،

وقد مرَّ خلالهما بكل أنواع الاختبارات، وجاءت التصفية الأخيرة لتكون الأكثر غرابة، يعتّصِر مخّه ليتثبّت من وجود مبررٍ معقولٍ وراء عبثية ما جرى له ومن حوله، الله يخرب بيت كل الكتب التي قرأها، ما فائدتها إذا لم تقفز كلمةٌ من بين صفحاتها العديدة؛ لتسعفه هذه اللحظة! لا يستوعب معنى أن يجد نفسه في الشارع ممزّقَ الهدوم، وبدون حقيبة، استبدّت به فكرةٌ مُلِحّة في البحث عن المدخل الآخر للشركة، غالبًا في الشارع الخلفي الموازي، كان يركض وخياله يسابقه، لا مفر من أن يجد الشركة، حتى ينقِذ ما تبقى له من وعي، كانت السلالم الرخامية هي أول ما وقعت عليها عينه، تنهّد بارتياحٍ عندّما لمح الصفيحة الصدئة تطل منها الشجيرة بوريقاتها الذابلة، ولكن أين الشركة؟! العنوان نفسه، والمدخل نفسه، لكن الشركة نفسها اختفت، اختفت باللافتة الكبيرة التي كانت تعلن عن وجودها، البواب يلجم لسانه وهو يبدي دهشته للسؤال، بدا كل شيءٍ في هذه اللحظة مُنتهكًا وفاجِرًا، تتسرب مرارة الخيبة إلى كلِّ خلاياه، يشعر بشيءٍ داخله يتقلص ويتمدد في تواترٍ مُرعب، وقف مُتحيّرًا بشكله المزري، لا أحد يفهم سؤاله، ولا يجد من يرد عليه، ولا يفهم سر اختفاء الشركة، وبالتأكيد لن يعرف أبدًا شيئًا عن النتيجة حتى لو ظلَّ في حالة انتظارٍ إلى الأبد، طز! لا تهمه نتيجة، ولا تعنيه في شيء، سيظلُّ عاطِلًا يحتّضِن سِرّه، يداعب دهشته، ويظل يتأمّل، تملّكته رغبةٌ مدهشةٌ في التخفيف عن نفسه، "شكله المزري لن يصيبَه بالخزي، ولن يسمح لأي إحساسٍ بالضعة أو المهانة أن يتمكّن منه، ولأنه قادرٌ على اجتياز أجدعها اختبار!" صرخ بأعلى صوتِه وسط كلِّ الفضوليين الذين لحقوا

به، وتحلّقوا حوله من جديد: "ملعون أبوكم، مهما نزعتم من ريشي، ما زلت قادرًا على الطيران."

هل ينتحِرُ الأطفال

وهو يحتّسي قهوته في الكافيه شوب القريب من الشركة التي انخدع فيها، انزرعت أمامه، تحجب عنه الرؤية، تلاقت الأعين في نظرةٍ طويلةٍ مُتسائِلة، ظلَّ يحدّق في وجهها، ملامِحُها مألوفةٌ لديه، يتساءل أين رآها! ذراعاها عاريان حتى عظام الكتف، لحمها وردي، من حلاوة طلّتها ارتبك وهو يدعوها للجلوس، ولكنّها لم تقبل الدعوة، راح ينقل بصره بين جمالها الغامض والصورة التي أخرجتها من حقيبةٍ صغيرةٍ في يدها، قرّبت الصورةَ إلى وجهه، راح يمعن النظر فيها، يا للغرابة! إنّها صورةُ طِفلةٍ تشبه أخته الرضيعة، تلِّح عليه بالسؤال المذهل: "ألم تراها؟ ألم تراها؟" لا تسعفه أي كلمات، ظلّ يحدّقُ في الصورة بعد أن تناولها منها، ليس لها ملامح واضحة، تميّزُها عن أي طفلةٍ رضيعة، وهي ما تزال تنتّظرُ منه ردًا، سألها في شرودٍ: "كيف اختفت؟!" انتّزعت الصورة من يده، قالت بشيءٍ من الحدة: "أنا من يسألك، هل رأيتها؟" ردّ عليها بالحدة نفسها: "وأنا أسألك كيف اختفت؟" متجاهلةً دسّت الصورة في حقيبتها، وظلّت على وقفتها، نهض من مكانه ليجدَ نفسه في مواجهة الفتاة نفسها التي أجرت معه المقابلة في الشركة الوهمية، هي بملامحها شديدةِ الدقةِ والتميّز، الأنف الفرعوني المتجانس، بفتحتيه السخيتين، عينان مبهرتان، لا يمكن معرفة لونهما، وخصلة شعرٍ حمراء وسطَ غابةٍ من

شعرٍ أشعثَ فاحم، دعاها للجلوس، رقّت ملامحها لتصبحَ أكثرَ ليونةً، تعتّذِرُ له عن الخطأ الذي وقعت فيه، لم تمهله ليتمسّك ببقائها، أدارت ظهرها، مشت بخطواتٍ سريعة، يندهش كيف تركها تفلت منه بهذه البساطة؟ تحمل في حقيبتها صورةً لطفلةٍ تذكّره بأخته الرضيعة، توجّه إليه سؤالًا لا يمكن الإجابة عليه، وكأنها لسببٍ ما قصدت أن تُدخله دوامة الغرائب التي لا تنتهي، طغت صورةُ أخته الرضيعة على كل ما عداها، كاد يبكي وهو يقلّب في ذهنه أيامها الأخيرة، كان في الخامسةِ من عمره، لا يعرف كيف ماتت، هل قتلها؟!

كان يجلس فوق المصطبة المواجهة لدارهم، يهزُّ قدميه بعصبيةٍ، ويخبط بهما من تحته، لم يكن الفقد الفجائي غريبًا عليه؛ فقد حدث هذا مع ابنةِ خالته، كانت خالته فهيمة التي أصابها الصمم وهي في العاشرة من عمرها قد أطاحت بها وهي على حجرها، بينما كانت قد انتفضت فزعةً لتهرول كي تنقذ الطفلة الأكبر، التي شبّت النيران في ذيل جلبابها وهي تخطو فوق الموقد، ورغم حزنها، قرأت خالته شفتيه، والفضولَ الحزينَ في عينيه، ولاحظت احتقانَ وجهه وربكّته، فانتقت كلماتٍ بمثلِ ما تريحها تطمئنه على مصير الصغيرة الراحلة: "مع الملائكة."

ولكن هذا الفقد الغريب لأخته الرضيعة، التي كات سَلوّته، وراحته، كان أكثر مما يقدِر على استيعابه، أو تحمّلِه، راح يواري نفسه عن أعين أمّه، التي لمحها تحتّضنُ اللفافة البيضاء بحنينٍ مجروح، وتقبّلُها بصوتٍ مكلوم: "يا حبيبتي." لم يكن يظهر من أخته شيئًا، ومن ناحيةٍ أخرى، بدت أمُّه شرسةً

على غير العادة، وهي تصد بيدها كل من يحاول أن يحمل عنها اللفافة البيضاء، تسرع الخطى وكأنّها تهرب من كل الذين يحيطون بها، تلهيه انقباضة صدره عن دهشته، بل هو يندهش وينقبض، نوعٌ غريبٌ من السكوت أذهّلَه عندما وجدها هامِدةً تمامًا، ومتراخية، كان يحتويها بكلتّي يديه، عندما سقط رأسها على كتفه، وحاول أن يعدّلَه فسقط مرةً أخرى بعيدًا عن كتفه، يتحيّر في أي ناحيةٍ يميل رأسها، وهو يهتّز بها، وخوفًا من أن يقع بها، قرّر أن يأخذها إلى فرشتِها الصغيرة على الأرض، حيث اعتادت أن ترقد، لا يعرف كيف وضعها، وهي في هذه الحالة من عدم التماسك، كل شيءٍ فيها تراخى، ولم يعد يُسمَع لها صوت، حاول أن يضعَ البزّازَة في فمها، لم تبد أي نوعٍ من الاستجابة، لا تلتّقِمُها، ولا ترفضها، لا شيء فيها يتحرك، لم يكن في البيتِ غيرهما، وكان هو أول من تلقّى صدمةَ هذا السكون المطبّق، المطلق، هذا التوقف نفسه أربّكه.

ظلّ يرقب المشهد الجنائزي، وقد كوّم نفسه في زاويةِ المصطبة المتوارية خلف شجرة التوت التي تلقي بظلّها عليه، بدون أدنى رغبةٍ في أن يظهرَ نفسه؛ حتى لا يكون جزءًا من المشهد الكئيب، كان منقبِضًا، وقد انسحبت كآبته على كل شيءٍ من حولِه، على الوجوه المكفَهِرّة، وعلى الدار المعتمة التي يستطيع من مكانه أن يلمح بابها الموارب، كان شاهدًا على موتها، بل تأكله الحسرة وهو يتخيّل نفسَه شريكًا في الجريمة، ليتجسّد له الموت كفعلٍ إجرامي، كيف همدت وهي في حضنه؟! كل ما يذكره في الليلة الفائتة على موتها، أنّه كان راقدًا تحت أقدامهما بينما كانت الرضيعة نائمةً في دعةٍ وسكونٍ على فرشتها بجوار السرير الذي يرقدون ثلاثتهم فوقه، ولأنه اعتاد

على النوم وهو يحتّضن قدم أمِّه، راح يفتّش في حذرٍ عن القدم الصغير الذي تُحرِّكُه أمُّه خلسةً تحت الفراش حتى يتعرّف عليه، يحتّضن قدمها لينام، منتصرًا بذلك على أبيه، الذي لا يطيق أن يراه محتضنًا أمَّه، لم يكد يغمض عينه في تلك الليلة حتى سمع أمَّه تسأل أباه في ذعرٍ: "وهل نتركها تموت!" ردّ الأب في يأسٍ بائس: "وما الذي يمكن عمله بعد أن استنفذنا كلّ السبل؟"

حاول مرارًا وهو يتألم لتدهور صحتها، أن يحايلها لتلتقم بزازةَ زجاجة الرضاعة، ولكنّها كانت تستنفذ ما تبقى لها من طاقة، في إحكام غلق فمها. لن تُمحى صورةُ إصرارها على غلقه من ذهنه أبدًا، الرغبة الأكيدة في الرحيل، لا يعرف حتى الآن إذا ما كانت صامت، أو أضربت عن الطعام، لأنّها فقدت كلَّ السوائل في جسدها! ولكن كيف ماتت؟! هذا السؤال الذي يؤرّقُه لم يتلق عنه إجابةً شافيةً حتّى الآن، هل ماتت وهي في حضنه؟! أم أنّه عندما حملها من فراشها كانت بالفعل قد فارقت الحياة، ولكن أكثر ما يرعبه، هو أن تكون قد سقطت من يده، وهو ينحني بها ليُرقِدَها، وهي في حالتها السائبة، هل انتحرت أم أنه هو الذي أماتها؟!

كان يزعجه ويقلقه تلك الغيمة التي تغشو عينيها شبه المغلقتين، وكانت تأسِرُه باستجابتها السريعة لمداعباته، بضحكتها النقيّة، وبالانتفاضةِ الفرِحَة لجسدها الضئيل عندما يميل عليها ليحملها، كانت هي أول من يهفو إلى رؤيته، بمجرد أن يوقظه ضوء النهار الشحيح، كانت هادئةً ووديعة، ولم يكن صراخها إلا تعبيرًا عن منغصاتٍ مُلّحَة، فكانت استجابته لندائها بأسرعَ مما تفعل أمُّه، هو أول من يجري إليها، يحاول أن يفتّش عن السبب، ولكنَّ

هشاشة بنيانها كانت تعوقُه عن مساعدتها، يخشى أن يزيد من ألمها، فتسعفه الأم، تحاول أن تُرضعها عنوةً، أو تغير القِطع التي تبللت أو اتسخت، بمجرد أن تستعيد بعض الهدوء تناديه، ليس بعينيها الغريبتين المغبّشتين، لكن بكل انتفاضاتها الرهيفة ليحملها، كان يخبّئُها في صدره، ينهنهها، ويبلل رأسها الرقيق بقبلاته، ويقبّلُ عينيها شبه المغمضتين اللتين كانتا تحيّرانه، حبُّه الكبير لها كان يعوّضُه عن فقدانه لهذا الحب في كل ما يحيط به من طين، يكره الطين منذ تلك اللحظة التي رأى فيها النسوة يلطّخن به وجوههن، ازدادت كراهيته له عندما عرف فيما بعد أن أجساد الموتى تتحلل وتصير إلى تراب، ثم إلى طين، منذ أن عرف هذه الحقيقة البائسة، أصبح يُفزعه أن تغوص قدمه في الطين، أو أن يراه عالقًا بالجلابيب، وعندما يراهم يفركونه على العتبات بعد أن يجف على الهدوم الملطّخة به، تنقلب أمعاؤه.

مثل كل الأطفال رفع رأسه إلى السماء، إلى حيث يختبئُ السر، كان مشهد صفاء السماء مهيبًا، ولكنَّ ما لا يستطيع أن يزيحَه عن صدره هو تلك اللفافة البيضاء الكئيبة التي يشعر بها تكتم أنفاسها، وأنفاسه، متى تمزّقها وتطير؟ لقد قضى أوقاتًا طويلةً يراقبُ لفافة دودة القز البيضاء، التي ظلّت تنسجها حتى اختنقت بداخلها، ظلَّ لأوقاتٍ طويلةٍ يترقّبُ انبثاق الفراشة من داخلها، لم تسعه الفرحة عندما مزّقتها وطارت، فهل تفعلها أخته؟! ولكن إلى أين يأخذونها؟! قفز من مكانه فوق المصطبة، راح يجري وراءهم ليلحقَ بها، يراوده أملُ أن يكون معها، يؤنِسُها وهي داخل لفتها، ويترقب لحظة تمزيقها لها، شعر بيدٍ غليظةٍ تمسك بيده وترجع به، مكث في مكانه فوق المصطبة حتى رجعوا، لكنْ بدونها، وجد نفسه مسحوبًا رغمًا عنه بخيوطٍ

دقيقةٍ إلى مستوى آخر من الوعي، غريبًا ومربكًا، وكأنَّه هبط فجأةً على كوكبٍ آخر، يدهشه كل ما يحيط به، وما يجري من حوله، نسي كل شيء وهو يُسائل نفسه كيف وُجِدَ كلّ هذا؟! ولماذا وُجِد؟! وكيف وُجِدَ على هذا النحو؟! لا يُصدِّق ما يراه، غيرمعقولٍ أنَّه هنا، ولكنَّه هنا بالفعل، كيف حدث هذا؟ غير معقولٍ أن تكون كلُّ حاجةٍ موجودة، ولكنّها موجودة! كيف وُجِدَت! ولكنّها موجودة، كانت الارتجاجة من الشدّةِ بحيث راح يفتّش عمّا يتعلق به، لكنّه شعرَ بزغللةٍ في عينيه، وبدوخةٍ، أسند رأسه التي أصابها التنميل إلى الحائط، أغمض عينيه، فتحهما على أطيافٍ من ضوءٍ مُريح، يتشكّل بالتدريج، ليصيرعينين حانيتين، مبتسمتين، تتماوج فيهما كلّ ألوانِ الطيف، شعر بصاحبة تلك العيون الواسعة متعددة الألوان، وهي تقتّرب منه، لم يجفل، بل بدا مُنشرِحًا عندما مالت على أذنه تطمئّنُه على مصير أخته: "الدنيا واسعةٌ جدًا، وهي في مكانٍ أكثرَ جمالًا." مُتهيبًا ومبهورًا أخذ يتابعها وهي تبتّعد، دون أن تُدير له ظهرَها، وبدون أن تتخلى عن ابتسامتها الحانية، لم يعش لحظة سعادةٍ في بهاءٍ وعذوبةِ تلك اللحظة التي أشقته فيها مرارة الفقدان. جرى إلى خالته فهيمة مَخزَنُ أسراره، جذبها بعيدًا عن أمِّه التي كانت تجالسها وتواسيها، قبل أن تقرأ شفتيه، قرأت على وجهه ما لا يستطيع التعبير عنه، وعندما بدأ ينطق خانته الكلمات: "عيونٌ كبيرةٌ وجميلةٌ وملوّنةٌ جدًا." تردد وراءه: "عيونٌ كبيرةٌ، وجميلةٌ، وملوّنةٌ جدًا." يهز رأسه مؤكدًا، تسأله في لهفة: "من صاحبها؟" يهز كتفه مترددًا، تسأله: "رجلٌ أم امرأة؟" مع تتابع هزات كتفه أيقنت خالته بأن هناك حدثًا جللًا يستوجب

عدم البوح، قالت له بصوتٍ متعاطفٍ وجاد: "احتّفظ بما رأيته سِرًا يا يامن، لا تقله لأحدٍ أبدًا.. أبدًا."

منذ هذه اللحظة نما معه الإحساس وتعاظم، بأن هناك العديد من الأسرار ترقد هاجعةً في سباتٍ عميقٍ في أفئدة أصحابها، وجاء وقتٌ أيقن فيه بأنه لو تبرع كل إنسانٍ بالبوح بما يتكتّمه من شكوك ومن أسرار، ربما تعرّى العالم من غموضه، وانصلح حاله، ورغم هذا اليقين إلا أن تلك التجربة الفريدة التي تغلغلت في كيانه، ظلّت طي الكتمان، كما بقيت صورة الفتاة ذات العيون متعددة الألوان ماثلةً في ذهنه على الدوام.

عايدة

من حيث لا يدري كان يفتّش في كل من يتعرف عليهن من فتيات، عن تلك العيون متعددة الألوان التي شاغلته وهو طفل، في الكلية كانت عايدة هي الفتاة الوحيدة التي صادقها، في الحقيقة هي التي تقرّبت منه بجرأةٍ محببةٍ قبل أن تتخذ مكانها في المدرّج بجواره، خصّته بابتسامةٍ واضحة، كانت وحدها بغير صُحبةِ أحدٍ من زميلاتها، وكان قد اعتاد أن يراهن يتحركن في مجموعات، بإيماءة اعتذارٍ خفيفةٍ أزاحت دفترَ محاضراته بعد أن وضعت حقيبتها، زفرت في تبرمٍ وهي تصنع من راحة يدها مروحة، التفتت إليه شاكيةً: "حر، لا تكييف بيشتغل، ولا حتى مراوح." ضحك ضحكةً خفيفةً ولم يعلّق، مدّت يدها تصافِحُه بحرارة: "عايدة." ردَّ عليها: "يامن." كانت هذه هي السنة الأولى لها بالسنة الثانية بالكلية، وكان هو يعيد السنة في بعضِ المواد.

اجتّذبته عايدة باللمعة الشقية الذكية في عينيها، بالإضافة إلى أنها أسرته بجرأتها وهي تتعمد البحث عن مكانِ جلوسه في المدرّج لتجلس بجواره، ومع إصرارها على محادثته، تحرّر من صمته الطويل، الذي ضج هو نفسه منه، لم يقتّصر تبادلهما للحديث على قاعة المحاضرات والسكاشن، ولكنّه امتّد ليشملَ الكافتيريا التي صارت بمثابة واحةِ الراحةِ لهما.

كان راضيًا تمامًا وقانِعًا بما حفّزته بداخله، من مشاعرَ كامنةٍ تترقّب البزوغ، فكانت أجمل أوقات اليوم، هي تلك التي يقضيها معها في محيط الكلية، لم يطمع في أكثر من أن يمتّع نظره بوجهها البشوش وملامحها الشقيّة المفعمة بالحيوية والنضارة، في علاقته معها لم يتعمّد ملامستها، ولو صادف واحتّك جزءٌ من جسدِه بجسدها، يضطّرِب وهو يفتّش عن كلمةٍ اعتذارٍ مناسبة، كانت الكافتيريا هي حصنه وملاذه، عندما تنتهي عايدة من محاضرةٍ تخلّف هو عنها، تمر عليه في الكافتيريا، تقف هنيهةً متنمِّرةً خلف ظهره، تنقّضُ بعدها على يده، تنتّزِعُ منها الكتاب الذي يقرؤه، تقول له بعد أن تقرأ العنوان وتفر في الورق: "الكتب التي تقرؤها أصعب من الكتب المقرّرة علينا." كررت هذه العبارة على مسامعه مرّاتٍ عديدة، وهي تبدي اندهاشها لنوع الكتب التي يطالِعُها، ما علاقة علم الفلك بالمحاسبة! وما علاقة نيتشة بالإدارة! وتخرج من محاضرةٍ أخرى لتجده لم يغادر مكانه بالكافتيريا، ربما يكون قد بدّل كتابًا بآخر، لكن دائمًا خارج المقرر، تقول له مرارًا وهي تخلط الجد بالهذر: "لو رسبت للعام الثاني سيطردونك." يرد عليها ساخرًا: "سنة أولى نجحت بعد سنتين في كل المواد، وسنة ثانية ممكن بشهادة مرضية أكمّل للعام الثالث." تضحك مندهشة: "يظهر إنك بتكره النجاح." أومأ برأسِه موافِقًا: "فعلًا أنا شخص فاشل، أحب الفشل." تحيّرت عايدة في مدى جِدّيته، ورغم تخوّفِها من انتقال عدوى فشله إليها، إلا أنّها وجدت فيه ما يثير الاهتمام، ولم تتردد في مصارحته بذلك، وجودهما معًا أصبح يلفت الانتباه، خاصةً وأنّهما كانا يتملّصان من بين أي مجموعةٍ طلّابيةٍ تشاء الظروف أن يتواجدا معًا وسطها.

لقد تركه زملاؤه مُعلّقًا في السنوات التي يتخلّفُها وانتقلوا إلى الثالثة وبعضهم إلى الرابعة، يشفقون على طالب كلية التجارة، يملأ كرّاساتِه أثناء المحاضرات بالشعر والرسوم الكاريكوتورية، وخارج المدرج يقرأ الكتب غير المقررة، في علم الفلك، والجيولوجيا، والتبدّل المناخي، والفلسفة، تسأله عايدة: "وما الذي تجنيه من وراء قراءة هذا الكلام الصعب؟!" يرد عليها وهو يستعيد الكتاب الذي خطفته من يده: "وما الذي تجنينه من دراستك العبثية؟ تحشين رأسك بأشياء لا تتطلبها الحياة، ولا تجيب على أي سؤالٍ يتعلق بسرها." يشير إلى الصورة على الغلاف، يقول بفخارٍ وكأنّه يتحدث عن نفسه: "ستيفن هوكنج، خليفة آينشتين في العبقرية! ونظرياته عن الكون يفسر بها كلّ شيء، كل شيء." تداعبه عايدة بشدِّ الكتاب من بين يده مرةً أخرى، تعيده إليه، تضحك، وتذهب إلى المحاضرة.

يمر عليه زملاؤه، يقذفونه بكلماتٍ عابرة، غالبًا فارغة، لا يعير اهتمامًا بتصنيفهم له على حسب أهوائهم، رومانسي، عبيط، حالم، روشة، فنان، يعرف بأنهم لا يفعلون ذلك إلا لأنهم غير قادرين على فهمه، يقول في نفسه عنهم: "ليسوا إلا مساكين بلهاء، ينعمون بغيبوبة البهائم، لا يعرفون بأنني وأنا أقرأ عن نشأةِ الكون، وعن الثقوب السوداء، أفكّرُ فيهم وفي مصائرهم." كان يتسلّى عندما يعايرونه بمغامراتهم، ولا يهتز بما يشنّونه من حربٍ على رومانسيته، يبعثون إليه بصورٍ وفيديوهاتٍ ينتقونها من النت، يتفنّنون في التصعيد من وتيرة جو الاستثارة والإغواء، باستخدام المؤثرات الصوتية التي يبعثون بها إليه عبر المحمول، لا يجد أي مبررٍ للغضب أو الحزن، أو أن يقوم بأي مجهودٍ ليغيّر أسلوب حياته، لم يكن يكرههم، ولا يتحاشاهم، بالعكس

كانت علاقاته معهم تتّسم بالبساطة وعدم الكُلفة، ينسحب من بينهم، أو ينضّمُ إليهم، حسب مزاجه وتوقيتاته، ومن ناحيتهم كانوا يحبون فيه اختلافه عنهم؛ ليشاغبونه بما لا يحب الخوض فيه، يتضاحكون عندما يسد أذنيه وهم يتكلمون في ابتذالٍ واضحٍ عن كل طقوس الجنس، عن الملابس الداخلية، والأوضاع، والمنشطات، وعن التسابق في التعريف بالمواقع الأكثر إثارة.

كانت أغرب محاولاتهم معه لنسف رومانسيته، عندما قاموا بدعوته لحفلٍ اجتّذبه غرابةُ عنوانه "حفل تلصّص". طبعوا ملصقات، وزّعوا عدسات زوم، نظارات مّقَرِّبَة، شاشات عرض كبيرة، وهم مجتمعون في حجرةٍ بالدور الأخير لأحد الأبراج شاهقة الارتفاع، فوجئ بهم يطفئون الأنوار، يتلصصون بالتناوب من خلال نظاراتٍ مُقرِّبة، عندما جاء دوره قام بوصف ما يراه والنظارة على عينه: "الناس نايمة أكوام على بعضها في علب صفيح، والأسطح كلها كراكيب، طوب ورمل وزبالة وادشاش." انتزع أحدهم النظارة من يده في عنفٍ كاد يفقأ عينه: "إنت بتبص على إيه يا بني آدم؟!" انتابَه ضيقٌ شديدٌ عندما وجد نفسه في وضعٍ أدنى مما رغب في أن يظهر به، جلس يتفرج عليهم بعد أن انقلب حفل التلصص إلى حفل تمزيقٍ للهدوم، حيث بدأت النظارات تُخطئ التصويب، حتى أن نظارةً منهم أصابت في مقتل صديقة واحدٍ من المشتركين في الحفل، وكانت تغير ملابسها.

كان عند يامن الكثير ليقوله لعايدة عن هذا الاحتفال، لم تصغ إليه بشغفٍ مثلما توقّع، ارتسمت علامات امتعاضٍ جعدت من جبهتها، عنّفته في احتدادٍ لم يعهده فيها من قبل: "ولماذا وأنت لا تصادقهم ولا حتى

تطيقهم وافقت منذ البداية على مشاركتهم؟" شعرت عايدة في تكاسله في الدفاع عن نفسه، وفي عدم رغبته في التبرير بأن الأمر لا يستوجب الخصام، ارتخت ملامحها، غيّرت الموضوع على الفور، تحاول أن تغريه بأن يحضر معها المحاضرة، "هذا ما أحبه فيك يا عايدة." قال هذا وهو يُخرج كتابًا من حقيبته، جذبت الكتاب بقوة من بين يديه وهي تقول ضاحكة: "وسوف تكرهني الآن." بحركةٍ تمثيلية تظاهرت بأنها تمزق صفحات الكتاب ورقةً ورقةً وتلقي بها في الهواء، قرأت العنوان بصوتٍ مرتفع: "إعادة هيكلة العالم." شعرت بما سببته له من حرجٍ عندما تلفّت حوله، عرضت عليه مرةً أخرى أن يحضر معها المحاضرة، وعندما أصرَّ على رفضه، بابتسامةٍ جميلةٍ وبضربةٍ خفيفةٍ على يده، ناولته الكتاب.

شند

وكان الوحيد الذي اختاره صديقًا يأنس به هو شند، الذي يجالسه في كل مرةٍ يراه وحده، لا يهتم إذا لم يرفع يامن عينيه عن الكتاب الذي يطالعه، ولا يتطفّل على ما يقرؤه، كانت المنضدة التي يجلس إليها يامن في كافتريا الكلية هي المأوى المفضّل لشند، قد يترك حقيبته عليها أو كتبه ويختفي ثم يرجع ليجد كل شيءٍ في مكانه، ودون أن يتزحزح يامن عن مقعده، لفت شند انتباهه عندما كان يراه بين المحاضرات، وقد أَلِفَ الجلوس في أغلب الأوقات، في زاويةٍ معينةٍ على إحدى درجات سلّمٍ مبنى مهجور في مُحيطِ الكلّية، يجلس وحيدًا، وفي مناسباتٍ أخرى كان يراه لا يتجاوب مع مشاكساتهم، ولا يرد على تعليقاتهم، ولم يكونوا يقصدون سوى جرّه للمزيد من المهاترات الصبيانية، كان في كلّ مرةٍ يحدّق فيه، يجده يخفض بصره، أو يطرق رأسه، كان يزك في مشيته للاختلاف في الطول بين ساقيه، في مرةٍ انتّهزَ فرصة مشاركته في لَمِّ ما تبعثر منه، وبدأ تعارفهما، في مواقفَ كثيرةٍ انبرى للدفاع عنه ضد رذالتهم، كان لهما تفاهمهما الضمني المشترك ضد أولئك الذين لا ينم مظهرهم عن ذوق، يتجاهلان تمامًا أولئك الذين يتذاكون ويتحذلقون، أحبّ شند لبراءتِه، وانطوائه، ولعزوفه عن اللهث وراء البنات، كان شند قد فقد الثقة في أن يحوز إعجابَ فتاةٍ من الكلّية، وأنّه لن

يكون إلا موضع هزءٍ وسخريةٍ منهن، فاكّتفى بالتعامل معهن في خياله، من بين كل زملاء الدراسة، كان شند هو الوحيد الذي يأنس له يامن، ترك لديه انطباعًا بأنّه يفهمه، وليس مثل الآخرين الذين يتوهون في توصيفه، لا ينتقده، ولا يتدخّل في تصرفاته، ولا يُبدي أي اعتراضٍ عليها، بل كان يتقبّل من يامن كل ما يقوله، وما يفعله كشيءٍ مسلّمٍ به، حتى عزوفه عن حضور المحاضرات، وانشغاله بقراءة كتبٍ خارج المقرر، لم تكن أي من هذه التصرفات تثير حفيظته، ولم يكن حتى يجدها مدعاةً للدهشة، يؤازِرُه يامن في قرفه من المشاكسات قائلًا: "هؤلاء الأوغاد لا يعرفون شيئًا عن الحياة، لا يرون أبعد مما تراه عيونهم." يردّد شند المقطع الأخير في سعادةٍ طفوليةٍ غريبة، تتخللها ضحكةٌ شبه بلهاء، يتشجّع يامن، ويبوح له بما هو أصعب: "هؤلاء الجهلاء لا يعرفون متعة الاندهاش، ورعب عدم التصديق، أمخاخهم مخوّخة." يرد عليه شند بالكلمة نفسها التي يستخدمها يامن في وصفهم: "تافهون." يتشجّع يامن أكثر، يخرج ما في حقيبته من كتبٍ غير دراسية، يستعرض أغلفتها أمام شند، يفتح شند فمه مدهوشًا لغرابة العناوين، يقول يامن بفخارٍ وهو يضع نفسه في وضع مقارنةٍ مع التافهين: "المواضيع التي أقرؤها صعبةٌ عليهم أن يفهموها، فما الذي يعرفونه عن الأنتروبيا، وعن الانتقال المستمر، وبلا عودة، من النظام إلى الفوضى، من الطفولة إلى العجز، ومن اللمعان للصدأ!" عندما تصبح الجملة أطول من اللازم، يرد شند ممسكًا بذيل الكلمات: "من اللمعان للصدأ!" يشرد بعدها، أو يضحك، أو يهز رأسه موافقًا، وفي المقابل يتقبّل يامن كل ما يأتي به شند من حكاياتٍ غريبةٍ مثل أن يقول له: "الفراشة التي جفّفتها أكلها النمل." أو يحدّثه عن

السلحفاة التي اشتراها من وسط البلد وأطلق عليها اسم تونيا: "قَلِقتُ على تونيا عندما أخفت رأسها داخل صدفتها ولم تتحرك طوال الأسبوع." والأغرب من ذلك هواياته، تجفيف الزهور والحشرات، جمع المفاتيح، قصّ وجوه الفتيات من المجلات، يستمع بشغفٍ إلى حكاياته مع كلبِّه الذي يعلّمُه الرقص، ومع عارضات الأزياء اللاتي يخصّص لهن وقتًا كل يومٍ للفرجة عليهن، ومع جارته التي تزورهم وبيدها قطتها، في آخر مغامرةٍ له همس في أذن يامن بنبرةٍ ضاحكة: "لقد مررت بيدي على رأس القطة ولامست صدرها." ومن أغرب هواياته هو الاحتفاظ بكروت الشحن المستّخدمة، وإعادة اللعب بالأرقام، يدخلها على هاتفه المحمول، ويترقّب النتيجة، كان مصمِّما على أنَّه ستأتي تلك اللحظة التي ينجح فيها في استجابةٍ إيجابيةٍ للمحاولة، لم يكن شيئًا مما يمارسه شند أو يفعله يثير حفيظة يامن، والشيء الغريب أن يامن كان يشجّع شند على المذاكرة، وفي أحيانٍ كثيرةٍ كان يشرح له ما استعصى عليه فهمه، بالرغم من أنّه هو نفسه لا يذاكر، ويزوّغ من المحاضرات، وكان شند هو الوحيد المرحّب به من بين كل الزملاء، ليجالسه هو وعايدة، أثناء تواجدهما بالكافتيريا، لم يكن الاهتمام الذي بدأت تبديه عايدة لشند، ليثير حفيظة يامن، بل على العكس كانا عندما يتكلمان عنه في غيابه، يعدّد لها حسناته، وبالتدريج بدأت عايدة تنجذب إلى السمات ذاتها التي اجتذبت يامن، ولفت انتباهها لها.

كان شيئًا جديدًا على يامن، أن تواعده عايدة للقاء خارج أسوار الجامعة، لقد اعتاد على السير وحدّه، ولم يرتح لفكرة أن يسيرَ بجانبها في الليل متسكِّعًا في الشوارع، فاتفقا على أن يكون لقائهما في الكوفي شوب

القريب من فيلا أم كلثوم بالزمالك. كان مستثارًا للفكرة، فهذه هي المرة الأولى التي تواعده فيها فتاة، يعتبرها بدايةً طيبةً لانطلاقةٍ جديدةٍ في علاقتهما، خارج أسوار الجامعة، نوعٌ من التحرر الجميل يملؤه بالزهو، اختار منضدةً على الرصيف، تفاديًا للمكان المغلق بالداخل، المعبأ بالدخان كان الليل قد هلَّ ببرودته المحبّبة، وبأضواء أعمدة النور الخافتة، شدَّ انتباهه خصلةَ عايدة الفضّية، لم تكن وحدّها وهي تعبر الطريق، حيّرَه رؤية شند معها، وكأن الدهشةَ قيّدته، لم ينهض لمصافحتهما، جلست عايدة على المقعد بجواره، وظلَّ شند على وقفته، مضّطرِبًا، ومخطوفًا، وحتى يخرجه يامن من حرجه قام واقترب منه، طوّق رأسه بحركةٍ خاطفةٍ اعتاد أن يداعبه بها: "مالك يا ابني؟!" وهو يستفسر من عايدة عن الكيفية التي تقابلا بها، تملّص شند من بين يدّي يامن متذمرًا، يغمغم بنبرة استهجانٍ من أُهين، وكان هذا غريبًا، وجديدًا. جلس يامن وترك شند على وقفته، مال على عايدة يسألها: "ماله؟!" بدلًا من أن ترد، دفعت بقدمها المقعد الخالي ليخبط الساق القصيرة لشند: "ما تقعد يا ابني." جلس ثلاثتهما مثلما اعتادوا أن يفعلوا في كافتيريا الكلية، كانت عايدة هي أول من بادر بالكلام. مالت بصدرها في اتجاه يامن قائلةً: "عملت له غسيل مخ." حدّقت في شند الذي أطرق، متفاديًا النظر لأيٍ منهما، بعد أن قرأت كلّ علامات الاستفهام على وجه يامن، قالت باقتضاب: "كان لازم يفوق." لكزت شند الذي كان يجلس على يسارها: "قل له ما قلته لك." تململ شند، وضع يده على رأسه، أدارها وهو يتحاشى النظر إلى يامن، خبط بكفه على المنضدة، قال موجهًا كلامه لعايدة: "أنا ويامن كل واحد منّا له شخصيته وبنفهم بعض." ردّت عايدة

برنّة الطبيب الواثق من تشخيصه: "انت يا ابني لا تخطو خطوة بدون مشورته." حوّلت بصرها إلى يامن: "أليست هذه هي الحقيقة؟" بدلًا من الرد عليها، سدّد نظرةً فاحصةً متسائلةً نحو شند، وجده مُطرق الرأس يعتّصر كفيه المتشابكتين، عاد لينظر لعايدة فوجدها متحفّزة للتأكيد على وجهة نظرها، قال بشيءٍ من الاحتداد: "فعلًا كما قال شند نحن أكثر الأصدقاء تفهّمًا لبعض." أراحت عايدة ظهرها، مدّدت ساقيها في استرخاءٍ واثق، قائلة: "لا يمكنك أن تنكر أنّه واقعٌ تحت تأثيرك، ويأتمر بأمرك! صح!" تراجع يامن بمقعده، تململ شند، وهو يفتّش عن كلماتٍ تنشله من هذا المطب: "أنا ويامن دائمًا متفقان.. لكن.. لكن.." تدخّل يامن الذي يعرف كيف يكمل العبارة لشند حتى قبل أن ينطقها: "صداقتنا ليست في حاجة إلى تبرير يا عايدة." أومأ شند موافقًا بحماس: "بالضبط، ليست في حاجةٍ لشرح، كلّ الجامعة تعرف صداقتنا." راح شند يبسط يده ويقبضها، كانت عيناه زائغتين وتحدّقان في اللاشيء، زحزحت عايدة مقعدها لتصبح بجوار يامن، مالت عليه قائلةً في ثقةِ أستاذةٍ تخاطب ولي أمر تلميذ: "لازم أنوّر الولد.. الولد ممكن يضيع." لأول مرةٍ تؤلِمُه كلماتُ عايدة الضاغطة على أذنه، وليس لديه أكثر مما قاله، ولم تعد به رغبةٌ لسماع المزيد الذي يصب في الاتجاه نفسه، عندما جاء النادل بالطلبات، طلب منه يامن أن يضع طلبه على المنضدة المجاورة، بما يعني أنّه ينسحب من بينهما، هذه النقلة، أو السقطة، أو ربما المصيبة كانت بمثابة هزةٍ فجائيةٍ أحدثت تصدّعًا لم يكن في الحسبان، وهو ينتقل من بينهما، اعترته رعدةٌ من مشاعرَ مغبّشة، لا تنسجم مع ما اعتاده في وجودهما من صفاءٍ وسكينةٍ واتّزان، لا يعرف كيف سيكون على

طبيعته والعالم الذي يحيط به يتقوّض؟! ظلّ وحده، جلس صامتًا إلى المنضدة المجاورة لهما، يتسلّى بالفرجة على كل من غاب عنه تأمّلُهم، المتسولين، والباعة الجائلين، والمندوبين من كل صنف، من يقوم بتمرير بضاعته أمام عينيه، ومن يتركها على المنضدة، حوّل عينه بعد ذلك نحو السماء، يتأمّل النصف الباقي من القمر، رآه يتلصّص عليه من وراء غمامةٍ شفيفة، يظهر ويختّفي، مشاكِسًا، مثل طفلةٍ شقيّة.

بالتفاتةٍ سريعةٍ جانبية وجدهما مندمجين في جدالٍ صاخبٍ طويل، يعتريه الآن الشعور بالخجل من جلوسه وحده بعيدًا عنهما، مؤتنِسًا بالقمر، يحاول القفز على هذا الشعور، وجد القمر وقد خلع عنه غلالته، وبدا وكأنّه يقتّرب منه أكثر، ليمنحه فرصةً أكبر لتأمله، شطَّ وهو يفكر فيه في كل أحواله الكونية، بصخوره، وفوهاته وبراكينه، ودورانه، طفرت من عينه دمعةُ عشقٍ على نغمةٍ حانية، تسلّلت خلسةً من داخل المقهى، لا يعرف كيف لم ينتبه إليها من قبل، اعترته رعدةٌ خفيفة، وكأن يدًا رقيقة قد لامست خدّه عندما بدأ القمر يزداد اقترابًا منه، شعر بالخدر في رأسه، والزغللة في عينيه، وهو يرى هذا الكائن الغريب الذي يجالسه، وقبل أن تصعقه المفاجأة قال الغريب بصوتٍ معدنِي خافت: "لا تنزعج، لقد وصلتني ذبذباتك الكونية، فقط رغبت في أن أصطحبك في رحلةٍ لن تستغرق وقتًا." شعر بأشعة القمر وهي تلفه بنعومةٍ وتجتّذبه، أسكرته دوامة الجذب، أسلم نفسه لها، تركها تدور به حول واحاتٍ فضائيةٍ متعددة الألوان، تتدفق منها الأضواء كالينابيع الهادئة، لم يحلم بأن يرى العديد من الكواكب وهي تومض بهذه الروعة، وتتلألأ بهذا الجمال الغامض، لا يعرف كم من الوقت استغرقته الرحلة، إلى أن عاد إلى

ذات المكان في الكافيه شوب، ليجد العالم كما تركه، دون أن يتحرك شيءٌ من مكانه، بمثلما كانت ترعبه تلك اللحظات الخارجة عن نطاق المعقول، كانت تتركه منتشيًا.

أفاق على صوت عايدة تسأله من فوق كتفه: "لماذا لا تجلس معنا؟" ظلَّ مُديرًا ظهره لها، وكان لا يزال منشغلًا باستيعاب واجترار ما عايشه وانتشى به، ربتت على كتفه، لم يلتفت، جذبته من شعره، استدار نحوها، فوجئ بها تطلق صرخةً هلِعةً، اختّل توازنها وهي تتراجع، وقبل أن تسقط، تلقّفها شند.

التسكّع بعد التخرج

يحب التسكّع، يتفرج كسائح، لا تكبّله طقوس الانضباط لنشاطٍ بعينه، انغلاق الأبواب الخارجية، يفتح كلّ الأبواب الداخلية، مؤانسته لنفسه تصد عنه غمّة الإخفاق، يسير ببطءٍ واسترخاء، يحاول أن يكون راضيًا وقانعًا بشطحاته، وخيالاته، وواقعه الذي يمتّزج ويتلون بها بدرجاتٍ مختلفة، عيناه تتقاطعان مع عينّي طفلةٍ قادمةٍ في المواجهة، طفلةٍ صغيرةٍ جميلةٍ تمسك بيد أمّها، وبيدها الأخرى تمسك وردةً، ابتّسم لها عندما التقت عينه بعينيها، بدون أن تترك اليد الممسكة بأمها، مالت بكل جسدها الضئيل نحوه ويدها الممسكة بالوردة ممتّدة عن آخرها تجاهه، كانت أمّها قد مالت قليلًا معها، وقفوا، تبادل الابتسام مع الأم، قالت له ببساطةٍ لطيفةٍ جدًا: "لا تكسفها." فرفص ليتناول من الطفلة الوردة، شمّها وقال بانتشاء: "الله." قبل ظهر يدها الرقيقة، تسربت فرحتها إلى روحه، فردَ جسده، مشى منتشيًا، يجتر في مشيته المتمهلة، تلك الأشياء الصغيرة، الجميلة والبديعة، التي يكفي ظهورها على السطح لتبدل مزاجه من العكارة للصفاء، ابتسامةٌ عارضةٌ لفتاةٍ جميلة، امرأة تنحني انحناءةً خجلةً لتفرد ذيل فستانها الذي رفعه الهواء، شيخٌ مسن يربت على ظهره بحنو، ويودِّعه بدعاءٍ ثمين. يسائل نفسه كيف يترك نفسه تكتئب،

بالرغم من أن شيئًا ضئيلًا، وغايةً في البساطة، قادرٌ على أن يمنحه سعادةً هائلة!

أكمل سيره، عند نقطةٍ معيّنةٍ توقّف مستثارًا، لمحه قادمًا بهيئته وتكوينه الفريدين، بجسده الضئيل، ورأسه البيضاوي، وإحدى ساقيه الأطول من الأخرى، مرّت مدةٌ طويلةٌ لم يره، كان قد تخرّج هو وعايدة قبلّه بعام، فسدت علاقتهما، وشابها التوتر، عندما تخلّف هو في السنة الثالثة، ليصبح لشند مكانًا في قاعة المحاضرات بجوار عايدة، التي علّمته كيف يتمرد ويرفع رايةَ العصيان في وجه صديقه المستّبد، بمجرد أن تلاقت عيونهما احتّضنه ورفعه من على الأرض، شعر بجسد شند الهزيل وقد تخشّب بين يديه، خبطه يامن على كتفه بودٍ وشوقٍ عدةَ مرّات، بلغت الإثارة حدّها وهو يراه متأنقًا على غير العادة: "يخرب عقلك يا شند، شكلك ابن ناس بصحيح!" أمسك بطرف سترته يتملى فيها، تركها، تراجع خطوةً إلى الوراء، راح يتأمّله في دهشةٍ وانبهار، كما لو كان يتأمّل لوحةً فنّية: "يخرب بيتك يا شند، أنا لا أصدق نفسي من جمال أمّك!" لم يستطع شند أن يداري تململه، ورغبته في الفكاك، في لهوّجته، وفي ردوده المبتّسرة على فضول صديقه القديم، بمجرد أن سمع رنة المحمول، دفس شند يده بحركةٍ آليةٍ في جيب سترته وأخرجه، مع تعجّله، سقطت بضع مناديلٍ ورقيةٍ من جيبه، ألصق الهاتف على أذنه، انحنى على الأرض يلملّم المناديل، في تقوّسه سقط قلم من جيب سترته العلوي، التقطه يامن وأعاده إلى الجيب نفسه، كان شند يرد بكلماتٍ مبتورةٍ مقتضبة على من يحادثه، وكانت رأسه تدور في كل الاتجاهات، وكأنّه يبحثُ عن شخصٍ ما، رمى ببصره إلى الناحية الأخرى من الطريق، أومأ برأسه في

حركاتٍ سريعةٍ بعلامةِ الفهم، تلعثّم وكأنّه لا يريد أن يفشي سرًا، ظلَّ يامن يتأمّله في ربكته، هكذا كانت بداية تعارفهما، تصرفات شند المضطّربة العفوية، الخجلة في معظم الأحيان، يسترجع منظره وهو يجلس وحده بين المحاضرات، ملقيًا جانبه بإهمالٍ دفاتره وأدواته، وكأنّها لا تخصه، ينساها، وبعد أن يتحرك مبتعدًا، يتذكّرها، ويرجع ليلتقطها، يستعيد صورته الطيبة، وهو يمشي مطرقًا ومنكفئًا، وهو يظلّ يفتّش في جيوبه حتى يبعثر كل ما يحشوها به من أشياء تافهةٍ ومضحكة، تذكرة أتوبيس، سلسلة مفاتيح، بقايا ساندويتش، مفكّرة جيب، مشط، عملات معدنية، ينحني ليلمها ببطءٍ وبدون أن يلتفت لأحد، يتابع يامن بشغفٍ، وبدون تعليقٍ، حركات صديقه القديم العشوائية، والمحمول ملتصق بأذنه، أنهى شند المكالمة بكلمةٍ راح يكررها في عصبية: "خلاص، خلاص." بإيماءةٍ سريعةٍ بدت مرتعشة، دسَّ المحمول في جيبه، بدا عليه القلق بشكلٍ غريب، وهو يصارع صمتّه، مدّ يده ليامن مصافحًا، حاول يامن أن يستنطقه، فلم يجد هو أيضًا ما يقوله سوى غمغمةٍ مبهمة، وهو يعبر إلى الناحية الأخرى من الشارع، ظلَّ يامن واقفًا في مكانه، عيناه المأخوذتان مركّزتان على ظهر شند، يتابعه ليودّعه الوداع الأخير، والشمس تنعكس على السطح اللامع لسترته الرمادية، يراقب في شغفٍ واندهاشٍ أناقته، والرشاقة التي اكتسبها بدون ملازمته، يتقافز بوثباتٍ خفيفةٍ تغطي على زكه، لم يصدّق عينيه عندما لمحه هناك، على الناحية الأخرى، واقفًا وبجواره فتاةٌ بخصلة شعرٍ فضية، يتجهان بأبصارهما نحوه، الشيء الذي أدهشه هو أن اليد التي كانت تلوّح له محيّيةً ومهلّلةً، لم تكن يد شند ولكنّها يد عايدة.

ميسا

لم يبعد عن البيت إلا خطواتٍ، حتى سمع دقاتِ حذاء نظيرة، بدبيبه العسكري المميّز، التفت خلفه وجد القطّة بين يديها، وقد كمّمتها، تتململ وتموء بأنينٍ مزعج، وعلى كتفها كانت تعلّق حقيبتها، كان خمش القطة واضحًا على يديها وجبهتها. ضبطت نظيرة خطوتها مع خطوة أخيها البطيئة، بما يترك انطباعًا بعدم تعجّلِها الذهاب إلى الكلّية، ومن يدري ربما تكون في طريقها للقاء خطيبها، بادرها بالكلام: "هل تأخذينها معك إلى الكلية لتشرّحِينها؟" ردّت عليه وهي تحاول أن تمررها له بغيظ: "القطة توحّشت، لا أعرف ما الذي فعلّته بها!" تراجع منزعجًا من مخالب القطّة البارزة، وانتفاضة جسدها العنيفة، وسّع من خطواته ليبتّعد تاركًا القطة تتملص في يدها: "إنّها قطتك وليست قطّتي، افعلي بها ما تشائين بعيدًا عني." لحقت به والقطة لا تزال بيدها تعافر، بمجرد أن نزعت عن القطة كمامتها، عضّتها، قفزت من يدها، جرت كالممسوسة في اتجاه البيت الذي تعرفه جيدًا، بعد بضع خطوات مشياها صامتين سألته نظيرة: "ألا ترغب في رؤيتها؟"

- من؟
- ميسا.

اختبرها بنظرةٍ طويلة، ما سر هذا التبدّل المفاجئ! فهي التي تقف دائمًا حائلًا بينه وبين ميسا، لا تسمح له في وجودها بالاقتراب منها، وإذا ما صادف ووجدتهما معًا تجذبها بعيدًا عنه، وتغلق باب حجرتها عليهما، ما الذي جدَّ في الأمر! ردّ بفتورٍ أدهشه: "لا، لا أرغب في رؤيتها." وعلى غير ما توقع صدمها ردّه، حتى أنها نست أنهما في الشارع، دفعته جانبًا بيدها: "كاذب." عندما ارتّد إليها، خفضت من نبرتها المرتفعة: "أنت تموت شوقًا لرؤيتها، لقد دعوتها اليوم على الغذاء، لأنها ترغب في تهنئتك بالتخرج."

- تعرفين أنّي لا أحب أن يحتّفل أحدٌ بي.

عندما اقتربا من الميدان، وسّعت نظيرة من خطواتها، تركت يامن خلفها يفكّر في ميسا، أليست هي البنت نفسها التي كان يلّح على أخته أن تدعوها لزيارتهم؟ لماذا رغب في أن يترك انطباعًا بأن ذائقته العاطفية قد انجرفت بعيدًا عنها؟ هل هي مرحلةٌ وانتهت؟! راحت أيام شند وعايدة، ولم تعد الكلية إلا ذكرى، تخرّج بامتياز وليته ظلّ يرسب إلى مالا نهاية.

عندما رجع إلى البيت بعد مقابلةٍ فاشلةٍ لوظيفةٍ حقيرة، وجد باقةً من الزهور على مكتبه، بدت غريبةً وسط الكتب والأوراق التي تعشّش في كلّ أركانه، لا يجد لها مذاقًا، ومرارة التخرّج تغشيه، لقد رغب في الفتك بأساتذته وبالعميد، بعد أن عرف أنهم لن يعيّنُوه معيدًا بالكليّة؛ لسجلّه البائس طوال الأعوام السابقة لعام التخرّج، فبالرغم من حصوله على تقدير امتياز في آخر عام دراسي، إلا أنّهم عاقبوه على سنوات الاستهانة بالدراسة، وانعدام الرغبة في التحصيل، وبالرغم من أن تلك السنوات، قد لاحقته، وسحبت من

رصيد تقديره، إلا أنَّه ليس نادمًا، ولا يعتبر أنّه أضاع سنواتٍ من عمره بلا فائدة، على العكس من ذلك، لقد قرأ الكثير من الكتب في كلِّ فروع العلوم والآداب، تعمّق في أبحاثه الخاصة عن الخطر الذي يتهدد كوكب الأرض، ولم تأت مرات رسوبه إلا لأنّه دخل كلية التجارة مرغمًا، ولم يحفّزه على التفوق في عامِ التخرّج إلا انتباهه الذي ربما جاء متأخرًا إلى وضعه المشين وسط أقرانه وأفراد أسرته، كشخصيةٍ شاردةٍ، خياليةٍ، ناقصةِ الأهلية، قرر أن يتغابى، يتخلّى مؤقتًا عن قراءاته الخارجية، وعن أبحاثه، وأن يتفرّغ لتقدير امتياز، كان تفوّقه مفاجأةً للجميع، حتى أن رئيس قسم أحد المواد، استدعاه من إجازته الصيفية بتلغراف، طلب مِنه حلَّ الورقة أمامه في مكتبه، وعندما حلّها، قال له الأستاذ مبررًا استدعاءه على هذا النحو الغريب: "لم أجده منطقيًا أن تحصل على (امتياز) بعد أن كان تقديرك (ضعيف جدًا)." كتم ضحكته، والرد على لسانه لاذع، جبن أن يقوله فينزع منه تقديره في ثانية: "وهل من المنطقي أن تستدعيني من إجازتي الصيفية، أجلس بالشورت أمامك؛ لأجيب على ورقة أسئلةٍ سبق وأجبت عليها؟!"

وقف يتأمل الزهور على مكتبه بخليطٍ من المشاعر المضطّربة، بعد أن لاحظ بجوارها بطاقة تهنئةٍ صغيرةٍ من ميسا، ما الذي يدور في ذهن ميسا؟ ما الذي تأمل فيه؟ ليس بينهما ما يستطيع أن يبني عليه أي شيء، لم تكن غير رومانسيةِ مراهقٍ يمارسها عليها، بمثلما كان يفعل ذلك مع عايدة، لم ينطق بكلمة واحدة مع أيٍ منهما، تنطوي على وعدٍ بشيء، حتى كلمة هذه المناسبات، لم تخرج من فمه، لقد تخيّرت ميسا الوقت الذي اصطبغ فيه تفكيره بالسواد، لتضع باقة وردٍ على مكتبه، الوقت الذي يتمثل نفسه فيه

كائنًا لا نفع منه، في حياةٍ بلا فائدة، خاصةً بعد أن تخرّج ليصبح عاطلًا، ولم يتخيّل نفسه أبدًا زوجًا، يزعجه التفكير في التفاصيل، في الرتابة، ونوع الحياة الراكدة التي تنتظره، يأتي بالملبس والغذاء، ينام معها، بلمسة واحدة يتغير لقبها من بنت لامرأة، يضع في بطنها البذرة التي تنبت بالداخل، تتغير رشاقة جسدها، وينتفخ ثدييها الصغيرين البريئين، كيف وهوعاطلٌ بلا فائدة، كيف وهو عجوز أن يجئ بطفلٍ إلى العالم له فائدة! على أية حال هو لم يتخرج من أجلها، المطارق تدق في رأسه، ضغط بكف يده عليها، جذب نفسًا عميقًا، لم يتبدد الصداع. تطلع في غيظٍ إلى الزهور، يفتّش في ذهنه عن المناسبة التي تستحقها، بدت الزهور مناسبةً تمامًا لقبر، رائحتها عطنة، بتلاتها سوداء، وأشواكها سكاكين، لو أنّه حاول لمسها ستنغرز الإبر في راحته، كان على وشك أن يلقي بها من النافذة، لولا أنّه سمع ضحكة ميسا الرنانة الجذلة تأتيه من حجرةٍ نظيرة المجاورة.

مدّت ميسا له يدًا دافئةً تهنّئه بالتخرج: "ألف مبروك، أنا بحبك جدًا." قالتها بعفويةٍ غريبة، تشدُّ على يده بحميميةٍ ظاهرة، والبسمة المتهلّلة بالفرحة تضيُء وجهها، وقف منبهرًا، مشدوهًا، بل ومصدومًا، اندفاعها المستثار أفقده اتزانه، لم يسمع الكلمة تخرج من فمها من قبل، ولا يذكر أنّه سمعها من عايدة أيام الكلية، هو لم يسمعها إلا من أمّه ومن خالته فهيمة التي أصابها الصمم والتي تركها في البلد ولم يرها من سنين، مانطقت به ميسا كان تلقائيًا واضحًا نقيًا مبهجًا ومخيفًا في صدقه، ولماذا اختارت هذا التوقيت بالذات! وبماذا يجيب! ظلّ متخشبًا، يخشى أن يبدر عنه ما لا يستطيع الوفاء به، يتحاشى أن يبدي أي إشارةٍ هلاميةٍ قد تترك لديها انطباعاتٍ خاطئة، من

الأفضل لها أن تعرف أنّها ليست فتاة الأحلام، كما أنّه ليس فارسًا، ولو حملها فلن يحملها إلا على حصان من ورق، لا يصلح زوجًا، ولا أبًا، ولن يستطيع أن يحقّق لها الحد الأدنى من رغباتها، جرّب هذا مع نفسه ولم يفلح، فكيف سيفلح معها! استدار ليواجهها، ماتت على شفتيها كلماتٌ كثيرةٌ كانت على وشك أن تقولها، غربت الابتسامة، تعكّر صفاء وجهها المنشرِح، ومع ذلك لم تبالغ في حرجها، سحبه ليده بسرعةٍ لم تستفز حواسها، وعندما أدار ظهره، لم تحفل، ولم تبدي أي نوعٍ من الغضب، رسم على وجهه تعبيرًا أكثرَ تصنعًا، يقول في برود: "لا أحب الورود لسرعة ذبولها." ترد عليه في هدوء: "ولكنها لن تذبل لو وضعتها في الماء مع قرص أسبرين." قال مؤنّبًا: "ولماذا تختارين ما يموت بسرعة، وأنت تعرفين أنّني أفضّلُ نباتات الظل لأنها تحب الحياة؟" تكاثفت عبارات الألم في عينيها، وبشهقةٍ مكتومةٍ ردّت في اقتضابٍ حزين: "لم أحسن الاختيار."

لا يستطيع أن يُكذّب دلالات ما تفوهت به، قرأها في دفء مصافحتها له، في النظرة الفَرِحة في عينيها، في شعرها الذي احتفظت به قصيرًا، لأنها عرفت أنّه يحبُّه كذلك، وفي وجهها الذي خاصمته المساحيق، لأنّه قال لها بأنّها أكثر جمالًا بدونها، والآن لا يعرف لماذا تصرّف كالملدوغ، وسحب يده بسرعةٍ من يدها المطبقة بحميمية عليها! وما معنى أن يتجنب لغة العيون، وهو يدير لها ظهره؟! لماذا يبذل هذا الجهد لتتجه تعبيراته في الاتجاه المعاكس لطبيعته؟! ربما ليقتل لهفتها المباغتة للزوج المرتقب!

يلعن أخته في سرّه، لا بد أنّها انتهزت فرصة خلو الشقة من الأبوين لتتفنّن في الإخراج الردئ لهذا المشهد، لا يعرف أي دورٍ رسمته لميسا لتقفز هذه القفزة! فهي التي تستحوذ عليها طيلة الوقت، ولم تكن لتسمح لهما أبدًا بأن ينفردا ببعضهما، لا تزال البنت معه في حجرته، تحاول تبديد الجو الملبّد بالحرج، بالحديث عن نظيرة، وعن مشروع محو الأمية الذي تتشاركان فيه، تترقب أيَّ كلمةٍ تخرج من فمه تسكن إليها، تفتّقد تلك النظرة الولهة التي طالما قرأتها في عينيه، وظلّت تؤجّل الاستجابة لها، تسرب إليها ما يحاول أن يوحي لها به، بأنّه عصيٌ عن البلوغ، وبأنّه يحاول بتر العلاقة بينهما، كست وجهها ابتسامةٌ منكسِرةٌ حزينة، بعد أن أيقنت أنّها تتحدث إلى روحٍ غائبة، وجدت نفسها تقول وعيناها ترتعشان: "هل أزعجك ما قلته؟" ثبّتت نظرتها عليه لفترةٍ طويلة، بادلها النظرات، قرأ إجحافه في عينيها، عيناه رغمًا عنه تبتسمان، يكاد يعترّف لها بسخف تصنّعه، قال برنة اعتذارٍ دافئة: "أنا آسف، لست في حالتي الطبيعية، شكرًا على الورد، كانت لفتةً طيبةً منك." أطرقت، بعد هنيهةٍ رفعت رأسها، اتسعت حدقتاها، مرّرت إلى عينيه بصمةَ عتابٍ مؤثّرة، استدارت لتمشي، حاول أن يستوقفها بعد خطوتين، تمهّلت دون أن تتوقف، سمعت خطواته تتبعها، توقّفت، استدارت لتجد يده ممدودةً إليها، مدّت يدًا حذرةً مترددة، حاول أن يبقيها في يده، سحبتها بأسرع ممّا فعل هو من قبل مع يدها، خفضت رأسها، وهي تتجه إلى خارج الحجرة، تركت لديه انطباعًا مؤلمِا بأنّه يدين لها باعتذارٍ أقوى مما يستطيع أن ينقله الكلام.

وهو مع نفسه

تتكشّف له بالتتابع ملامح تلك الشخصية التي يحاول أن يستحدثها مع ميسا، تستهويه السرعة التي يتبدل بها تشكيله لنفسه، وينقلب بها مزاجه وتتغير نظرته للأشياء، لو صدّق نفسه بأنّه كائنٌ لا فائدة منه، سيغوص في مستنقع السوداوية، في كلّ مرةٍ تداهمه الكآبة، يشعر بها كجسم غريب تعافه نفسه وتلفظها، بالتوهم، بالتخيّل، أو بالحلم، وقف يتأمّل الورد على مكتبه، يرى الزهور الآن بشكلٍ مختلف، تشع بالرقة، وتنبض بالحياة، راح يتفحّص بإمعانٍ وإعجابٍ الخطوط الإرشادية الملوّنة على بتلاتها الطريّة الندية، لتتبعها الحشرة حتى تبلغ الرحيق، المسارات مرسومةٌ بدقةٍ، ومعالم الطريق واضحة، حتّى لا تضل، يشعر بمذاق الرحيق في فمه، تتراقص تشكيلة الألوان وهي تنعكس على أسطح وريقاتها التي أخذت تتمايل في ذبذباتٍ إيقاعيةٍ اقشعر لها بدنه، احتواها بين راحتيه واندّهش لليونة إبرها، لامسها، تنسّم عبيرها، مال بشفتيه عليها يقبّلُها، أخذ يلف ويدور بها، يحتضنها، ويتمايل بها، وكأنّها طفلته الوليدة، أخته الرضيعة، منتشيًا، أخذ يلف ويدور بها، وهي في حضنه، لا لن يسقط بها وهو يحتضنها، لن يتركها تهمد بين يديه، سيطير بها، ويبحر بها، سيجد لها المكان اللائق، الذي لا تذوي فيه، والذي تظل تحتفظ فيه بنضارتها، وألقها، وجمالها.

هل من أجل تعلّقها به يجدد نظرته إليها! أم لأنّه لا يجد حتى الآن من يتعلّق به! نظر إليها بعينين استقرّ فيهما ولهٌ جديد، دعاها لمقابلته خارج أسوار البيت، ظلّت عيناها تنظر إلى داخلها في صمت متأمّل، ثم ما لبثت أن هزّت رأسها بالموافقة. تسلّلت يده إلى يدها، أطبق عليها بكفّه، رمشت مرتبكة وهي تسحب يدها: "تذكّر أننا لسنا وحدنا." دخلت عليهما أخته في هذه اللحظة، أخرجت له لسانها وهي تميل على ميسا تجذبها من يدها، داعبت شعرها، أخذتها إلى حجرتها، بعد أن استجوبت ميسا عمّا دار بينها وبين يامن، رجعت إلى أخيها في حجرته، سألته وحاجباها مرفوعان، وسبابتها تغرز خدها في تحفز: "ولماذا قررت فجأةً أن تقابلها خارج البيت؟" ردَّ بغيظ: "بعيدًا عن رائحة أنفاسكم وطبيخكم، والأهم من كلّه، بعيدًا عن خلقتك."

سوف يظل يذكر لميسا ما نطقته بعفويةٍ: "أحبك جدًا." نجحت في جرّه إلى الانشغال بها، كبديلٍ مُريح للتفكير المرهق في عايدة وفي تلك الفتاة الغامضة صاحبة الشركة الوهمية، كان سعيدًا بأن يكون بصحبة فتاةٍ مثل ميسا، لم تمانع في مقابلته خارج أسوار بيتهم الكئيب.

كان مستثارًا وهي تمشي بجواره في الشارع، متجردًا من أي كلفةٍ معها، يمسكها من يدها يعبر بها الطريق، يركل وهو معها الأشياء بقدمه، يدندن بأي لحنٍ يخطر على باله، يشيرُ لها إلى البيوت التي دخلها كمندوبٍ لشركة منظفات، يسخر من نفسه وهو يحكي لها عن كمّ الأبواب التي أُغلقت في وجهه، يشجعه صمتها وابتسامتها المندهشة على المزيد من الحكايات،

يصف لها مكان الشارع الذي كانت به الشركة الوهمية، وما جرى في المقابلة الأخيرة من أحداثٍ غريبة، تتحير بين الجد والهذر في كلامه، تعبت ميسا من المشي ومن الحكايات، ومن نوبات الشهامة التي تنتابه على غير توقّع، وبلا حساب، مثل أن يتركها ويعبر بمسنٍ الطريق، من بين تغضنٍ متوترٍ انبثق فجأة بين حاجبيها قالت: "أكره التسكّع بلا هدف."

أعتّقني

وهو في طريقه إلى محطة الأتوبيس، رأى فتاةً تندفع بسرعةٍ في اتجاهه، ولم يكن يبدو على الشاب الذي يتعقبها أنّه يعرفها، لأنّه سمعه يقول لها: "أموت وأرى وجهك." كان واضحًا أنّها قصدته وهي تتوقف على مسافةِ خطوتين منه، في عينيها الجميلتين رغبةٌ في الاحتماء، أصبحت الفتاة في مواجهته تمامًا، أمّا الشخص الذي كان يطاردها فقد تبخّر في لحظةٍ، لم يكن هناك شيءٌ ظاهرٌ فيها يشي بعمرها سوى رشاقة جسدها، وخفّة حركتها، ليس لها وجه، ولا لحم، ولا شعر، لا شيء غير عينين غريبتين جذّابتين، عيناها تحاوران عينيه بلغةٍ محبّبة، في حركةٍ مباغتةٍ مدّت له يدها المغلولة بالسواد، تقول له: "فكّ قيدي." لم يفهم قصدها، وأمام يديها المتواريتين، لم يتمالك نفسه من أن ينزع عنهما القفّاز، تركتهما يلمعان ببياضهما الناصع، تحت نظره، وكأنّها دعوةٌ أخرى، ولكن لأي شيء؟!

شكرته ومشت بجواره حتى وصلا إلى محطة الأتوبيس، عند المحطة تباعدا عندما أبطأت هي من خطوتها، باسترقاقةٍ جانبيةٍ عرف أنّها اختارت مكانًا وراءه لتقف فيه، انشغل بها لبرهةٍ دون أن يفوته متابعة أرقام الأتوبيسات المتوافدة على المحطة.

سأله عاملٌ يقف بجواره عن الوقت، شمّر عن كمّه ليكشف خلو معصمه من ساعة. وهو لا يزال في حالة انتظار، اقتربت منه امرأة تتعثر في جلبابها الأسود، استفسرت عن رقم الأتوبيس القادم، عندما أبلغها بالرقم ٩٥، هزّت رأسها متحسّرة، وهي تقول: "قالوا لي رقم ١٢ هو اللي يروح السيدة زينب." ظلّت بجواره ترنو إليه بنظرةٍ متسائلةٍ خجلةٍ مع كل أتوبيسٍ قادم: "لا يا ستي، ليس هو." تتطلع إليه بعينين ممتنتين، تخفض رأسها، تداري عينيها بطرحتها في حياء طفلة، تململت عندما لم تتلق منه أي إشارة بخصوص الأتوبيس الذي توقف أمامهم: "هو ده يا ابني؟" ردّ عليها كالمسطول في نصف إفاقة: "لا يا ستي." لم يقل لها أنّه الأتوبيس الذي ينتظره والذي سيغادر المحطة بدونه، ولم يقل لها بأنّه كان شاردًا يتحسّر على الصداقة التي تبخّرت، كان قد لمح شند وعايدة على الناحية الأخرى من الطريق، لا يصدق أنّ فتاته أصبحت امرأة شند، هو يحمل أكياسًا كثيرة، وهي لا تحملُ إلا حقيبة يدها، كانا على وشك عبور الطريق، ولكن يبدو أنّهما غيرا رأيهما، وضعا الأكياس بجانبهما، ووقفا يتجادلان، يتابعهما الآن وهما يتواريان بأكياسهما البلاستيكية، وسط جمعٍ كبيرٍ من الناس، يتركان في رأسه ذكرى باهتة للفتاة التي كانوا يتندرون عليه بسبب رومانسيته معها، ولشند الذي كان يجد سعادةً كبيرةً في بساطة وسلاسة صحبته.

في اللحظة التي شعر فيها بوخزة التنميل في قدميه، اشتّم رائحة دخانٍ تفوح من كل الأشياء من حوله، كان الباعة المتجولين يهرولون ببضائعهم، تتساقط منهم ولا يلمونها، في هبة ريحٍ فجائيةٍ رأى الجرائد تتطاير مع أوراق الشجر الذابلة، شيء غريب ألا تستقر أوراق الشجر على الأرض، ويمتلئ

الهواء بأوراق الجرائد، لم تطل دهشته عندما لاحظ أن كلّ من بيده صحيفة يلقي بها، التصقت في وجهه صفحة، تخلّص منها بسرعةٍ ومسح بكف يده مكان التصاقها، رأى طفل شارعٍ بلون التراب، بوجه ضامر وعيون شقية، بقميص متسخ ممتلئًا بالثقوب، يجري مُطارَدًا من طفلة شارعٍ في مثل لونه، ومثل عمره، بقطعة قماش بالكاد تستر جسدها النحيف، يصطدم الطفل في أحد المارة، يحتمي في جلبابه وهو يخرج للطفلة لسانه، دفعه الرجل في قرفٍ وهو يبصق، وينفض جلبابه، ويشتِم كلّ من ربّوه، ومن وسّخوه، عندما تقابلا فوق الرصيف، أخذ الصبي والصبية يتبادلان حركات خرقاء بالأيدي والأقدام، اندفع كلب شارع بينهما، راح ينبح ويزمجر ليوقف عراكهما، التفتا إليه، تحول نباح الكلب وزمجرته إلى استكانة غريبة، عندما بدأت الأيدي الصغيرة تداعبه وتغوص في شعر ظهره.

نبهته نحنحة أنثوية إلى أنها ما تزال تقف خلفه، استدار ليلقي نظرةً عليها، وجدها مصوبة بصرها عليه، خشي أن يتمادى في هذا الجو المهيّج للمشاعر، فضّل أن يركّز على الأتوبيسات التي يتتابع قدومها، بمجرد أن لمح الرقم الذي تنتظره المرأة بجواره، نبّهها بصوته وبإشارةٍ من يده، وهي تهرول تعثّرت، ووقعت، قبل أن تصل إلى الأتوبيس، جرى إليها ليساعدها على النهوض، لشدة ضآلة جسدها لم تصب بأذى، عندما وقفت على قدميها كان الأتوبيس قد تحرّك، ومن زفيرها المكلوم شمّ رائحة الدخان، تطلعت إليه بعينين متعبتين خجلتين، قالت وكأنّه هو الذي يحتاج المواساة: "خيرها في غيرها يا ابني."

الإحساس نعمة

بعد أكثر من ساعة انتظار، ركب الأتوبيس، جاءت الفتاة ذاتها، التي لا يظهر منها غير عينيها الواسعتين الجميلتين ووقفت بجواره، تزداد التصاقًا به مع زيادة العدد، اهتزّ كيانه، رائحتها حلوة، وملمسها ناعم، لكن كيف وفي هذه الظروف البائسة! انسحب مبتعدًا،، ولكن إلى أين! ربما يجد مكانًا، يتسمّر فيه، ولا يتعدى حدوده، في محاولة بحثه، خبط بكتفه ظهر امرأةٍ خمسينية، استدارت وبّخت في وجهه: "إيه السفالة دي؟" لا يعرف بماذا يرد، كيف يرد عليها بشكلٍ مهذّب ويخيّب ظنّها في سفالته! بحركةٍ دوديةٍ أخذ يتنقّل وسط الأجساد المتململة في تخلّلٍ بطيءٍ للفراغات النادرة، يتوقّف لفترة، يتنقّل من مكانٍ مكّدسٍ بالأجساد إلى آخر انزاح منه جسد، عين تراقب المحطات، وأخرى تراقب الفتاة وهي تتبعه بفارق جسدين عنه، هناك شيء غريب في هذه الفتاة يحاول أن يتحاشاه، وهناك أيضًا ما يشده إليها، لا يمكن أن يجازف حتى بالكلام مع فتاةٍ لا يظهر منها غير عينيها، خاصةً وهما في مكانٍ مكدسٍ بعيون أخرى متحفزة، استرجع أنفاسه الهاربة عندما تراءت له القضبان، بيته هناك بعد عبور المزلقان بمحطتين، تنغلق عليه الفراغات، توجعه اللكزات، تسد أذنه عبارات الاستهجان وهو يحاول باستماتةٍ غريبةٍ أن يصلَ إلى باب النزول، وجده عن بعدٍ مفتوحًا، لكنّه مسدودًا بالناس، بنظرة

جانبية رآها تقترب منه، ربما تكون مثله ترغب في النزول، أكثر ما يخشاه أن تلاصقه، عيناها تضمران فخًا مثيرًا، وهو ليس مهيّئًا لأن يعيش تجربةً مماثلةً لتلك التي مرّ بها داخل الشركة الوهمية، المكان لا يشجع، وحالته الذهنية في أسوأ ما يمكن أن تكون عليه، لو التصق جسدها به سوف يميته، وربما يُدفن واقفًا في تلك المقبرة الجماعية، أدار ظهره حتى لا تبصرها عينه، لكنَّ احتكاك صدرها في ظهره أمدّه بدفعةٍ أزاح بها بضعَة أجسادٍ وهو يتقدّم نحو المقدمة.

توقّفت العربة فجأةً، ترك السائق مقعد القيادة المعتاد، وقف متحفزًا بملامحه التي تفور من القرف، راح بالخاتم المعدني في يده يخبط على سقف العربة بخبطاتٍ لها رنينٌ مزعج، يطلب من الواقفين على الأبواب الصعود إلى الداخل أو النزول، عندما لم يُقابل طلبه بأدنى استجابة، قال متوعدًا: "لن أتحرك عجلةً واحدةً قبل غلق الأبواب." عاندوه، تجمّدوا في أماكنهم، ولم يتزحزح أحدٌ منهم، انتظر برهةً؛ ربما تخيفهم الجمرات التي تتوهج في عينه، على العكس، لقد نفخ من حيث لايدري في جمراتهم، حتى أن لهيب تعليقاتهم زاد من احمرار عينه، استخدم خاتمه المعدني الثقيل مرةً أخرى، يقرع به سطح العربة برنينٍ أشد، رفع صوته مرةً أخرى مكررًا الرجاء نفسه، الوجوه تنشِع بالتجهم، الرذاذ اللاسع يتطاير من الأفواه الغاضبة، وقف مرتبكًا يفكر في وسيلةٍ أخرى، بإيماءةٍ عنيفةٍ هجم بجسده على الواجهة الزجاجية للعربة، وكأنّه على وشك أن يحطّمها، انتزع اللوحة التي يضعها أمامه، كانت كلماتها بحروفٍ متآكلة، وحواف إطارها الخشبي العتيق باهت اللون، وقف ليواجههم بالمكتوب عليها، محفورًا بخط نسخٍ كبير"الإحساس نعمة." انهالت عليه الشتائم، ألقى باللوحة على التابلوه أمامه، وقف برهةً غائبًا، مشتتًا بين ما

يطلبه منهم وما يريدونه منه، استند السائق بصدره على العمود المجاور لمقعده، بدا متحفزًا وهو يصعد من حدّة التهديد: "ورحمة أمي لن أتحرك قبل أن تنغلق الأبواب." بدأت الطلقات تأتيه من عدّة اتجاهات، لاذ بمقعده، أسكت هديرالمحرك، أسند رأسه على مقود العربة.

داهم يامن شعورٌ غير مريحٍ بالقذارة، يتمنى لو تنقلب العربة في مياه النيل ليغتّسل فيها، أو أن يصير ذبابةً ليتعايش مع القذارة، ودّ لو يقدر على المغادرة الفورية، ولكن الخارج لم يكن أفضل حالًا، العربة بداخلها كل ما تعافه نفسه، وتقف في المكان الذي يكرهه، ومن المستحيل السير فيه، مكان سكنه بعد المزلقان بمحطتين، وبينهم وبين المزلقان بضع عربات، كان يامن قد نجح في أن يجد لنفسه مكانًا بجوار السائق، وجده مزرّق الوجه وعصبيًا، يحترّق مع دخان سيجارته، يفتّش فيما بين الوجوه، حائرًا بمن يأنس! يعرف من خبراتٍ سابقةٍ بأن السائق في مثل هذه المواقف، غالبًا ما يفتّش عن راكبٍ يفضفض معه، ويتحصن به ضد الهجمات الشرسة التي لا مفر منها، قرّر أن يكون هو هذا الراكب، قال له: "صحيح. الإحساس نعمة." تطلّع السائق إليه برهةً، ألقى بما تبقى من السيجارة خارج النافذة، رجع ينظر إليه، ردّ على يامن بحسرةٍ: "الإحساس مات." هكذا بدآ الحوار، واستمر وسط ضجّةٍ لم تعد تعنيهما في شيء، انضّم إليهما ثالث، تشعب الحديث بينهم إلى كرب الحياة وسوء الأحوال، نسوا أنّهم في عربة أتوبيس راكنة على جانب الطريق، ومن كل أرجائها تتقاذف الشتائم، الشيء الجديد، أن الازدحام قد بدأ يخف عند الأبواب، وتوتّر السائق قد بدأ ينزاح، أصبح في استطاعته الآن الضغط على زر الغلق أمامه، انغلقت الأبواب بأزيزٍ وصفقة، أدار المحرك،

ويده على البوق، يفسح بنفيره المتواصل فراغات بين العربات، من خلالها يناور بقفزاتٍ مجنونةٍ متعجلة، وبرجّةٍ غير عادية يحاول تعويض الوقت الضائع، معتمدًا على خبرته الطويلة في مواقف مماثلة، كانت حركة المرور قد بدأت ترتّبك على جانبي المزلقان، كلّ العربات تتعجل المرور قبل أن يصل القطار، وكان هو أكثرهم تعجلًا، لن يحتمل انتظارًا آخر، حارب العربات من حوله بكل إمكانياته التنافسية حتى نجح في الوصول قرب مدخل المزلقان، غير أنّه فوجئ بعربةٍ ثقيلةٍ تتجاوزه بضراوة، لتقف بزاويةٍ غريبةٍ على حافة الناحية الأخرى من المزلقان، ارتّج الأتوبيس وهو يقفز به في غيظٍ حتى احتّل القضبان، أطل بنصف جسده من النافذة بجواره، بكل جسده المنتّفض زعق في سائق العربة الثقيلة: "عجلة لقدام يا بني آدم." ظل صوته يعلو صارخًا أكثر فأكثر حتى انشرخ، ليستكمل البوق الهادر المهمة، بدأت إشارات الإنذار الحمراء تتوهج وتدق، والأتوبيس بكامله واقعًا في مصيدة القضبان، مُقدرًا خطورة الموقف، نزل سائق العربة الثقيلة، قام بدور عسكري المرور، ملوّحًا بيده للعربات خلف الأتوبيس، يحثهم بإلحاحٍ على الرجوع إلى الوراء لأن الطريق أمامه مسدودٌ بالعربات. عندما لم يتلق استجابة، غمغم ببضع كلماتٍ ناقمةٍ وهو يرجع إلى عربته الثقيلة. إشارات الإنذار تتوهج، وتدق في تواترٍ مفزع، والركاب داخل الأتوبيس يوخزون السائق برعبهم، يضجون، ويتذمّرون، ويطلبون منه أن يفتح لهم الأبواب. يهرب من صخبهم بمطّ رأسه خارج النافذة، مستنهضًا السائق وراءه، الذي بدأ يستجيبُ ببطءٍ شديد، ماتت يد سائق الأتوبيس على المقود، يحاول في مشقةٍ تتبع خطى العربة وراءه، الإشارات المنذرة تتوهج بالتناوب وتدق، والأتوبيس لا يزال وحده

يحتّل منطقة القضبان، لا وقت ليضيعه بالعراك، ليس هناك من سبيل إلا التحرك إلى الخلف؛ لأن العربات لا تتحرك من الأمام، قرّر أن يستّمر في محاولته، ولو كلّفه ذلك تدمير كل العربات من ورائه، اصطدم الأتوبيس في مقدمة العربة خلفه، والفتاة التي لا يظهر منها سوى عينيها أصبحت خلف يامن مباشرةً، شعر بيدها تلامس كتفه وهي تصيح في السائق أن يفتح الأبواب، تبعتها جوقةٌ صاخبةٌ تكرّر الطلب مصحوبًا بنوبات الهلع، والخبطات، واللعنات، هاج فيهم السائق: "اصبروا!" في هذه الأثناء كان سائق العربة التي تهشّمت كشافاتها، واقفًا تحت نافذته مباشرةً يوبّخه على فعلته، زعق فيه: "ليس هذا وقت عراك، الطريق أمامي مسدود، القطار قادم والعربة على القضبان، ارجع بعربتك." وقف الرجل الذي تهشّمت مصابيح عربته مأزومًا، فاقد النطق، صرف سائق الأتوبيس نظره عن التقهقر بالعربة، عندما رأى العربة الثقيلة أمامه تتحرك، لحق بها، وجدها قد توقفت مرةً أخرى، الأتوبيس بالكاد تخطّى قضيبًا واحدًا، ولايزال واقفًا على ثلاثةِ قضبان. يد السائق ماتت على البوق، ليتكرّر مشهد العراك مع صخب أشد من الخارج ومن الداخل، والمكان يضج بسعار الأبواق، والخبط لا يتوقف على الأبواب الموصدة، والأتوبيس لا يزال في منطقة القضبان، تلفّت يامن حوله في قلق، والفتاة التي لا يظهر منها غير عينيها يخترق جسدها بلا رحمةٍ جسده، لم تعد تشغله الفتاة، وضغطة جسدها عليه لا تحرك بداخله شيء، كان خائفًا وهو يفكّر في احتمالات النجاة، القفز من زجاج العربة محفوفٌ بالمخاطر، أجراس الإنذار تدق كالمطارق فوق الرؤوس، شعر يامن بوشيش الأرض يزأر في أذنه، في اللحظة نفسها التي فوجئ فيها بالفتاة الملتّصقة به

تزيحه من مكانه بجوار السائق، زغدت السائق في كتفه بسهم يدها المكبّلة بالقفاز: "افتّح الباب." لكنّه تجاهلها وظلّ يضغط على البوق. في اندفاعةٍ واحدةٍ شيطانية انقضّت الفتاةُ على اللوحةِ المكتوب عليها "الإحساس نعمة". انتزعتها من التابلوه، وعلى الفور، سدّدت بها ضربةً قويةً على رأس السائق، ثم مالت بجسدها على الزر، ضغطت عليه، انفتحت الأبواب، صرخت في وجه السائق الذي أدأخته الخبطة، وأرقدت رأسه على مقود العربة في استسلامٍ قدريٍ غريب: "مت وحدك."

وجد يامن نفسه وسط كومةٍ من مخلوقاتٍ غريبة، لا تكاد تكون آدمية، بأعينهم المذعورة، وأفواههم المزبّدة، لم يشعر بأنّه بذل أدنى جهدٍ من أجل النجاة، بل بقوة تدافعهم العشوائي، وتحت وطأة جبروت الفزع والرغبة في النجاة، أصبحوا جميعًا خارج الأوتوبيس، راح يجري معهم، يركض بكل ما أوتيت ساقه من قوة، كان مدركًا وهو يجري أن المأساة تلاحقه، لم يكن القطار، ولم يكن الانفجار، ولكن وجه السائق، لن ينسى أبدًا نظرته الأخيرة وقد أوشك أن يضغط على زر فتح الباب، نظرةٌ اجتمع فيها كل ميراث الإنسان من الشقاء، تركه ورأسه متراخية في استكانةٍ بائسة، بعد أن أدأخته أو ربما أماتته الخبطة التي جاءته من لافتته المفضّلة "الإحساس نعمة".

تلاحقه نذر الطوفان، أجراس الإنذار، ممتزجة بنفير العربات، وبهدير القطار الذي بدأ يرج المكان، مطلقًا صفيره الطويل المتواصل في صرخة مولوّلة، ملتّاعة، وهستيرية. يجري بنفس سرعة القطار، ومثله لن يتوقف، يود لو يستطيع أن يجري داخل نفسه؛ ليتوه ويدوخ في دهاليزها، أو أن يطير قبل

أن يصم أذنه الدوي الهادر الوشيك وربما الانبثاق المفاجئ للصهير، يخاف أن يلتّفت وراءه، ولم يكن في حاجةٍ إلى أن يفعل ذلك، فلقد لحق به ما يهرب منه، وكأنّه بدلًا من أن يبتّعد، يقترب، الصرخات، وطقطقة الأشياء التي تتناثر محترقة ومتفحمة من فوق رأسه، خيوط الدخان التي لمحها تنسج شباكًا للإيقاع بالطيور التي طالتها النيران، أطاحت بكل مابقي فيه من أحاسيس، إلا حاسةً واحدة، تعرّف فيها على الفتاة التي لا يظهر منها غير عينيها، ويدها ناصعة البياض التي خلعت منها القفّاز، وهي اليد نفسها التي أماتت السائق، وجدها تعدو بجواره، وقد أطارت زوابع الانفجار جزءًا من غطاء رأسها، تعرّف أيضًا على خصلةِ شعرها الحمراء، وعلى صوتها الذي غطّى بدويه على دوي الانفجار: "على فكرة ما تجري هربًا من حدوثه، لم يحدث."

مع ميسا خارج البيت

يود لو ينقل لميسا تجاربه كاملةً، ما جرى معه في الشركة الوهمية، وفي الأتوبيس، وفي الكافيه شوب، ولكنّه غير واثقٍ من ردّ فعلها، ومن تخوّفها أو تشكّكها في سلامة عقله، فهو يدرك ما تنطّوي عليه الأحداث التي يمر بها من غرابةٍ يسهل ترجمتها على أنّها أوهام، كل ما يخشاه أن يكدّر صفو ميسا ويربك تفكيرها نحوّه، رغم أنّه على يقينٍ بأنّه آجلّا أوعاجلّا لا بد لها أن تعرف تداخل الأحداث التي يعايشها، من يدري ربما تستقيم حياته مع ميسا بشكلٍ طبيعي، بدون أي إرهاصات، وبدون أحداثٍ غير مألوفة، سوف يكون هذا جديدًا عليه، وبالتأكيد سوف يكون مضجرًا في محطاتٍ كثيرةٍ منها، لكن من يدري! تخيّرا مكانًا يكونان فيه على راحتهما، كان يحمل في حقيبته أدوات الرسم وأشعاره، أخرجها ووضعها على المنضدة أمامهما، عندما سألته عن الأفكار التي تمور في رأسه، ردّ عليها بأنّه خطّط أن يسلّيها حتّى لا يكون مُثارَ سأم، سحبت مقعدها لتجلسَ بجواره، تتبعه بعينين متلهّفتين، وهو يخطّ رسمًا كاريكاتوريًا يصوّر فيه نفسه، بساقين قصيرتين، وأذنين متهدّلتين، القلم الرصاص يتنقّل بمهارةٍ وبسرعةٍ من خطٍ إلى خط، حتّى التفّت خطوطٌ كثيرةٌ حول جسده، بعد أن انتهى من رسمه، ناولَه لها: "هذا هو أنا كما أراني." أخذت تتأمل ما رسمه في دهشة، اهتزّ جسدها من

الضحك: "تحفة." طلب منها أن تتزحزحَ بمقعدها، ابتعدت عنه المسافة المطلوبة، ظلّ يعدّل من وضع وجهها، حتى استقر على الوضع الذي رآه مناسبًا، رسم لها بروفايلًا كاريكاتوريًا، أخفى شفتيها داخل فمها، أطال أنفها، ضيّق جبهتها، أبرز أسنانها، ونفخ خديها، بعد ما رأت ما فعله بوجهها، سألته في توجسٍ وبشيءٍ من الانزعاج: "أهكذا تراني؟!" ضحك: "هكذا." بدا عليها الاستياء: "مسخ." دفعت بصورتها لتلامس يده التي يريحها على المنضدة، أمسك بالورقة التي رسمها فيها، تأمّلها برهةً في ابتسامةِ إعجاب، قال مشاكِسًا وهو يقارن بين الرسمين: "مسخك أجمل ألف مرةٍ من مسخي." ثم سألها: "لماذا لا تضحكين؟" ردّت: "ليس مضحكًا." سألها: "ولماذا ضحكت عليّ عندّما شوّهت نفسي؟" غمغمت في ارتباكٍ طفولي: "كان مُضحكًا." لم يفهم سرَّ الدموع التي فرّت من عينيها، وهو يمزّق ما رسمه، ولكنّها أسرته، وحرّكت مشاعرَ رقيقةً بداخله، ظلَّ يحدّق فيها، وكأنّه لم يرها من قبل، مدّ يده يلامس يدها، ظلّ ضاغِطًا عليها، زحزّحت مقعدها لتجاوره أكثر، لأول مرةٍ يتقاربان جسديًا، فخذه يلتصّق بفخذها، تملكه شعورٌ جميلٌ طالما افتقده، أن يظلّ هنا بجانبها على الوضع نفسه، في هذا المكان الفريد الذي يلتقي فيه العشاق، ابتهج قلبُه عندما مالت برأسها على كتفه، لم تفعلها معه عايدة أبدًا، برهافةٍ وقوةٍ وحلاوةٍ تبحر به إلى أعماق نشوةٍ ملتهبةٍ بالحرمان، تحت سماءٍ تُمطر ألوانًا مُبهجة، لوّنت كلّ شيء، الماء، والهواء، وكلَّ ما يراه، مدّ يده يمسّدُ شعرها بحنو: "يا سلام!" وكأنّه أيقظها من غفوةٍ مباغتة، انتفض جسدُها فجأة، تراجعت بمقعدها مبتعدةً عنه. مأخوذًا بردِ فعلها، راح يحدّق في انكماشها المفاجئ، وكأنّها نُقِعَت في مياهٍ قطبية، ما

الذي فعله لتتشرنق على هذه الصورة المفزعة؟! المكان من حولهما لا يشكّل عائقًا لعطشهما الزاعق، لماذا يسقط منهما الحنين في بئر العدم، بينما كل من حولهما يتعانق؟! على الحشائش، وعلى المقاعد المتناثرة في الحديقة الكبيرة، وحولهما في الكافتيريا، ألقى ببصره نحو اللاشيء، أمسك برأسه، شعر فجأةً بالتنميل يسري فيها، مال بها إلى الوراء، حتّى كادت تسقط منه، أغمض عينيه لبرهةٍ، فتحهما على صوتِ خفقاتٍ لها رنينٌ مريحٌ للأذن، كان فوق رأسه مباشرةً سربٌ من طيورٍ عابرة، ترسم بتشكيلها وجهًا بشريًا وجناحَي طائر. تخلخل الهواء في ذبذباتٍ مسموعةٍ أخذت في التصاعد قبل أن تخفت فجأة، انحسر كلّ شيءٍ حول الصورة البشرية المجنحة، واختفى السرب، ازدادت صورتها تجسّدًا وحضورًا وهي تقترّب من رأسه في خفقاتٍ مُنغّمةٍ بجناحيها الرهيفين، تجتاحه رعدةَ خوفٍ لذيذ وهي تجذبه إليها بقوة لا حيلة له في دفعها، أطبقت عليه بشفتين حانيتين قبل أن ترتفع به بخفةٍ ورشاقة، أحسَّ بدوارٍ مسكرٍ وهي تخترق بانسيابيةٍ ناعمةٍ طبقاتٍ متتاليةٍ من الألوان التي تفوق في درجاتها كلَّ ما خبِرَه من ألوان، ألوان ممتزجة في تناغمٍ غايةً في الجمال، لون، بعد لون، بعد لون. تائهًا بين ألوان الكون البديعة، كان يسبح ويدور معها في فرحة لا يمكن وصف حلاوتها، ظلّ مُعلقًا في فمها، وفي حضنها، مثل فرخ صغير تحمله أمُّه بحنو إلى عشّه الجديد، يا سلام! يعيش تلك الروعة المسكّرة، بكل غرابتها اللذيذة، ومنطقها الذي يؤرجّحه في الهواء، يستشعر رطوبة شفتيها، لم تكونا شفاه طائر، كانتا شفتاها، وكان سلامًا، وهو يتفرج على الأرض من فوق، فرصة رائعة ليكشفَ لها عن انبهاره واستغرابه بما يحيط بهما من سماء وأرض وكائنات: "كل هذا؟!" يستوقفها

سؤاله، تستفسر منه بعاطفة أم: "كل هذا، ماله؟!" يسترجع دهشته الطفولية: "كيف؟!" تداعب شعره مطمئّنةً: "هو هكذا، كما ترى، لا تسأل، استمتع." أخذت تصعد به وتهبط، تصعد، وتهبط، عدة مرات، بحنو ونعومة فائقين، سألته: "هل أنت مستعد لرحلة أبعد؟" مستثارًا هزّ رأسه: "نعم إلى فوق، نحو السماء وبعيدًا عن التراب." بضربات سريعة متتالية من جناحيها، انطلقت به بسرعة خاطفة إلى أعلى الأعالي، ملأه الرعب من عنفوان الحركة المباغتة، أمسك فيها بقوة خوفه، ويا ليته ما خاف، ربما كانت على وشك أن تطلعه على السر الدفين، ولكنَّ رعبه أفسد شوقه إلى الأعالي، قتل حماسه، أخلَّ باتزانه، فلت من فمها، وراح يهوي من حالق.

كانت أسرع منه في النزول، وعلى الأرض وقفت تترقب وصوله، تلقفته بين يديها قبل أن يرتطم بالأرض ويتحطم، كانت هي بعينيها متعددتا الألوان، هي التي انتشلته في طفولته من حزنه على أخته الرضيعة، لم تكن بحاجة لأجنحة هذه المرة، تشبث بها بلهفة من ذاق مرارة الفقد، رأسها لا يزال على كتفه، عيناه مغمضتان، ليس نائمًا، ولا يحلم، ولا مجال للارتياب في حقيقة ما يعيشه وهو معها، كم هو بديعٌ أن تتداخل أطرافهما، وتتعانق أجسادهما في بحر رائع من الألوان المتماوجة! آه.. كم هو مثير أن يستشعر رجفتها المنتشية!

أزعجه صرير احتكاك مقعد ميسا بالأرض، بمثلما أزعجه استمرارها في زحزحة كرسيها بعيدا عنه، صدمه ما سمعه: "لم يكن هذا لائقًا." تململّ في حرج: "ولكنك كنتِ تلقائيةً جدًا وأنت تضعين رأسك على كتفي، ما الذي

جرى؟" بعد أن عدّلت من هندامها ردّت: "رغبت بشدة في أن أريح رأسي على كتفك."

- لقد فرحت جدًا بذلك، لكن ما الذي غيّر رأيك؟
- طمعك.
- طمعي!
- لم تكتف بدفء الملامسة، بدأت يدك تقسو على شعري، وكنت على وشك أن تمررها على أماكن أخرى، لم يكن هذا لائقًا.
- أنا!

في تنهيدة طويلة متعافية من صدمة، قالت برنة ودودة: "دعنا نغيّر الموضوع، ما الذي تنوي عمله بعد أن تخلّيت عن وظيفتك؟"

رأسه لا تزال تموج بالألوان، ولا يجد ما يقوله عن خطط مستقبلية، وليس في نيته إفساد اللقاء، خطر على باله أن يستفسّر عن أحلامِها، سألها بفضول واضح: "هل أحلامك بالألوان، أم أبيض واسود؟" اعتذرت لشرودها، طلبت منه أن يعيد عليها السؤال، قال وكأنه يسحب السؤال: "أبدًا! كنت أسألك عن أحلامك إذا ما كانت بالألوان!" لم تخف فرحتها، انبسطت ملامحها في ابتسامة طيبة، قربت كرسيها منه، قالت بتركيز شديد ورصانة: "أنا بنت بسيطة، لا أبالغ في أحلامي، ليس أكثر من شقة صغيرة جميلة، وسيلة مواصلات معقولة، ودخل لا بأس به، وأهم من كل ذلك أحلم بأن يكون لنا..." استوقفتها ضحكته التي جلجّلت في المكان، في الحقيقة

أزعجتها، حوّلت مسار فكرها، نسفته، تركّز الآن، وربما لأول مرة، تغوص أكثر، تحاول أن تستشف سرّ الضحكة التي بدت مفرغةً من أي اهتمام، سألته بشيء من العتاب: "ما الذي يضحكك؟" ردّ عليها: "جديتك." اتسعت عيناها في استغراب، قالت معاتبة بشيء من الانفعال: "الجدية ميزّة." اقترب بكرسيه حتى لامست ساقه ساقها، مال عليها، قال هامسًا: "والضحك على الجدّية ميزةٌ أيضًا!" حدقت في وجهه في حيرة وتساؤل: "لا أفهمك." راح ينظر حوله، تمهل قليلًا ثم قال: "أنا آسف، قصدت أن أعرف إذا ما كانت أحلامك بالألوان مثل أحلامي، أم هي أبيض واسود! يعني أحلام النوم، وليست أحلام اليقظة." رجعت بظهرها في حركة عنيفة اهتّز لها كرسيها، تململت في توتر حرج: "أحلام نومي!" تطلّعت إليه في وجوم، بعينين خمد بريقهما، أدارت له نصف ظهرها، ثم سرعان ما رجعت إليه بوجهها وقد غابت إشراقته، تصوّب نظرةً حادة إلى عينيه، تقول بلهجة قاطعة: "وهل تنكر أنّ كلَّ أحلامك ليست إلا أحلام يقظة!"

لماذا لا يندهشون؟

يندم على انفلات الفتاة الغامضة من بين يديه في المرات التي قابلها فيها، وجودها في حياته أهاج تفكيره وأجّج حواسه، يود لو يعرف سرَّ تعقبها له، وإذا ما كانت تحاول إيهامه بأنّه ما يزال تحت الاختبار، مرّت أيامٌ عديدةٌ منذ حادثة الأتوبيس دون أن يراها، خاب ظنّه فيما توقعه بقدرتها على الظهور المباغت، لقد جاء الدور عليه لأن يطاردها، لن يهدأ له بال حتى يجدها، على الأقل يعرف من خلالها ما هو حقيقي وما هو وهمي.

أخذ يحوم في المنطقة التي تتواجد فيها الشركة التي اختفت، يمر كلّ يوم تقريبًا على الكافيه شوب الذي عرضت عليه فيه صورة أخته الرضيعة، كلَّ يوم بلا فائدة، إلى أن جاء هذا اليوم الذي تعب فيه من الدوران حول المكان، كان يمشي شاردًا، تاركًا قدمه تركل ما تصادفه من أشياء. أفاق من شروده على صوت دقات أظافرَ نسائية ملحة على الواجهة الزجاجية لأحد الكافيهات، دقق برهةً في ملامحها، وجدها تكلّمُه وتضحك من وراء الزجاج، وقف مشدوهًا، هل من المعقول أن تكون هي؟! لم يكن بعيدًا عن الباب، دفعه ودخل، اتّجه مباشرةً إلى حيث تجلس، وقف أمامها فترةً كافيةً ليتأكدَ من أنّها هي، بخصلة شعرها الحمراء، وبعينيها الواسعتين البرّاقتين، شعر بأنه يتنفّس كلّ هواءِ التكييف البارد. "أخيرًا!" انطلقت الكلمة من فمه مُنغّمةً

بزفير راحة، رددها: "أخيرًا!" انتظر أن تدعوه للجلوس، تجاهلته وهي تدير وجهها للشارع، وجد نفسه يسحب المقعد الخالي أمامها ليجلس قبالتها، صاحت فيه تنهرُه بدون غلظة وبدون غضب: "هيه.. حيلك! أنا لا أعرفك، ولم أطلب منك الجلوس." رد بهدوء وثقة من يعرف هوية من يحادثه: "طبعًا تعرفيني مثلما أعرفك."

- ومن أين أتيت بهذه الثقة؟

لا داعي للتجاهل، تقابلنا في مناسبات عديدة، وإلا فما معنى أن تنبهيني بوجودك بنقرك على الزجاج، وأيضًا ضحكتِ لي وكلمتني وأنا بالخارج.

- لم أكن أضحك لك، في الحقيقة كنت أضحك عليك.

- تضحكي عليّ؟!

ألقت عليه نظرةً رزينة: "طبعًا، أضحكني تصرفك العيالي، شاب محترم جامعي في مثل سنّك، يشوط أغطّية كازوزة في الشارع مثل العيال! ألا تجده تصرفًا مضحكًا؟" مالت بظهرها إلى الوراء، ظلّت تحدّق فيه، وكأنّها تنتظر منه تبريرًا، وإن بدا عليها عدم إصرارها على ذلك، تملكه شبه يقين بأنها قبلت بوجوده معها، ابتسم في سعادة: "تصرّف عيالي! في الحقيقة أنا باشوط الدنيا برجلي." كان يتوقع ردًا، ولكنّ جدية صمتها جعلته يفكّر في أن يختلق جدلًا، أو حتّى مشادّةً؛ ليطيل من فترة جلوسه معها، قال مبررًا ركلّه للغطاء: "عادةٌ تمكّنت مني منذ صغري، عندما أكون شاردًا، يتولى عقلي الباطن قيادتي، وهو الذي يحرك قدمي." بحلّقت فيه بعدمِ فهم، أكمّل: "نوع من

التنبيه، عقلي الباطن يحرّك قدمي ليوقظ عقلي الواعي الغائب." فكّرت قليلًا ثم قالت: "وماذا لو قرر عقلك الباطن أن يتركك تصطدم في عربة مسرعة؟" ضحك: "لقد حدث هذا معي مرات كثيرة وربنا ستر، في آخر مرة عنّفني السائق بعد أن أوقف العربة، سألني بغيظ: 'أنت مسطول؟' رددت عليه على الفور: 'آه'." لم تسمح لابتسامة طفت على سطح وجهها أن تستمر، ولكنها لم تمنع نفسها من سؤاله: "ولماذا لا تمشي منتبهًا، بدلًا من المشي نائمًا؟"

- ربما لأني في حالة دهشة مزمنة.
- دهشة!
- عالم غريب.
- وما الغرابة فيه؟
- كل شيء، من أوّلِه لآخره.

بدّلت من رنّة صوتها، سألته: "ما هي وظيفتك؟" من غيظه رشقها بنظرة نافذة، يحاول بها أن يفضح تنكرها لمعرفتها به، وما فعلته به، ردّ في احتداد: "أظن أنّك تعرفين أنّي عاطلٌ جامعي." تجاهلته وهي تفتش في حقيبة يدها لتخرج المحمول، أخذ يتأملها وهي تطلب رقمًا، راحت تخاطب محدثها بكلمات هامسة مبهمة، بعد أن أنهت المكالمة، ظلت تتفحصه في ترقب من يشاهد استعراضًا مثيرًا لساحر في سيرك. لا يصدق أنها المرأة التي أداخته، تجلس أمامه شامخة، وكأنها تمثال ملكة فرعونية، ينقصه لكي يكتمل مقدمو القرابين. تجتاحه رغبة يائسة في النيل من هذا الجمال الذي اغتصب روحه،

قرر بحماس مهووس أن يستعرض كل المناسبات التي التقاها فيها، ويثير كل المواضيع المتعلقة بها، فرصة يغربل في وجودها خلطة الوهم والحقيقة، وليُطمئن نفسه بأنه يعيش الاثنين، لكن بشكل متوازن. ظلت تصغي باهتمام شديد، كان قد بدأ يحكي عن مشهد صورة الرضيعة التي سألته عنها، والذي جرى في المقهى القريب من الشركة التي تمت فيها المقابلة، الابتسامة على وجهها مطاطية، تنبسط وتنكمش وتتوارى مع تصاعد وانخفاض وتيرة صوته، ظلّت على صمتها، أسندت خدّها بيدها، بعد شهيق مسموع وزفرة طويلة سألها في لهفة: "ألم تكوني أنت؟" وكأنه قذفها بتهمة لم تكن جاهزة للدفاع عنها، سألته: "أنا ماذا؟!" رد عليها بسرعة من يخشى فتور حماسه: "أنت التي مررت عليّ وأنا جالس في المقهى، ومعك صورة الطفلة الرضيعة، وكانت تشبهها."

سألته بفضول غريب: "تشبه من؟" ردّ عليها وقد فضحه صوته المتحشرج: "أختي الرضيعة."

- مالها؟!

رنة اللهفة في تعجلها توجيه الأسئلة إليه، أججت شكوكه بأنّه غالبًا ما يزال تحت الاختبار، فهي بدلًا من أن تجيب على سؤاله تسأله عن أخته، هذه المصادفات بتقاطعها المذهل، لا يمكن أن تكون بدون ترتيب، هذه المرأةُ الداهية، تعرف الكثير عنه، وتنبش في أدق أسراره، ولا يضيرها في شيء لفّ حبل الذاكرة حول رقبته. في حيرة من يقر بذنبه، أو تعجّل في قول ما لا يصح قوله: "لا تهتمي."

تمطّت، فردت ظهرها، حتى صارت أكثر طولًا، بعد أن استقرّت تطلّعت إليه من فوق: "وما الغرابة في ذلك، أطفالٌ كثيرون يموتون صغارًا، لماذا لا تحدثني عنها." لم يستتنطقه أحد غيرها بهذا الأسلوب من قبل، وما المانع أن يترك نفسه على سجيتها، اختبار أو عدم اختبار، هو في مسيس الحاجة إلى أن يفضفض، إلى أن تتضح الأمور أكثر، ومن يدري، ربما تصيبها عدوى المكاشفة وتفصح هي الأخرى عما انغلق عليه فهمه في مواقفه معها. بدأ الكلام يتدفق ساخنًا كالحمم، يشعر بلسعة كلّ كلمة: "كانت أجمل ما أحببت في هذا الكون العجيب، شديدة الوداعة، خفيفة كالريشة، لم يحبني إنسانٌ بمثلما أحبتني هي، لا أعرف كيف كانت تحتضنني ولم تكن تقدر حتى على الإمساك ببزازة!" انحشرت الكلمات في حنجرته، سكت، مرّرت له كوب الماء الذي أمامها، ترجمها كلفتة مشجعة ليستمر في الفضفضة، أمسك بالكوب بدون أن يرفعه إلى فمه، أكمل: "أخشى أن أكون قد خلّصتها بنفسي من الحياة، كانت أجمل من أن أدعها تتسخ بتراب هذه الأرض." أخفت وجهها بين كفيها، سألته بصوت خفيض: "هل خنقتها أو شيئًا من هذا القبيل؟" من أي علو شاهق هوت به على الأسفلت؟! فاقدًا النطق، تلفّت حوله، هرش أنفه، أخرج منديلًا ورقيًا من جيبه، مسح به فمه، حررت وجهها من بين كفيها، حركته في عدة اتجاهات وكأنّها في حالة بحث عن شيء، فردت ظهرها وكأنّها تتمطى، رجعت عيناها لتستقر على عينه، بدا مهمومًا مثقلًا بالحزن، قالت تغيّر الموضوع: "يبدو أن أفكارك عن الدنيا غريبةٌ ومثيرةٌ للفضول، لماذا لا تعيشها ببساطتها؟" هدأ قليلًا، مرّر يده يمسح

بها وجهه: "ولكنها بالفعل دنيا غريبة ومعقدة وليست بسيطة، ولا بد أنّ كلَّ إنسان يجدها كذلك."

سكت، لم يعد يرغب في قول المزيد، كان يريد أن يسمع منها، أن تبوح بمكنونها بمثلما فعل، أن تكاشفه بحقيقتها، وبحقيقة الشركة الوهمية، ولما طال الصمت بينهما، بادرته بالسؤال: "هل علاقتك طيبة مع الناس في شارعكم؟"

وكأنّه رجع إلى الشركة، يجلس أمام مكتبها، يديخه السؤال، يحاذر ألّا تفلت منه كلمةٌ تدينه، أو تتناقض مع ما قاله في التصفية النهائية، أو ما كتبه في المقابلة التحريرية، بدت متحفّزةً لسماع ردّه، وقرر ألّا يرد إلا بما يريحه: "ربما يدهشك أن تعرفي بأنني لا أحب أن أكون مُجبرًا على إلقاء السلام عليهم، في الحقيقة أشعر بأنّهم يتسوّلونه، المكوجي والبقال، والكهربائي والميكانيكي..." أراحت يدها على ظهر المقعد، سألته في رنة ود استغربها: "وما الضرر في أن تلقي عليهم السلام؟" ابتهج في داخله لصدق حدسه بأنه بالفعل ما يزال تحت الاختبار. قال برنة الود نفسها: "لو رفعت يدي لإلقاء التحية عليهم مرةً واحدة، مرةً واحدةً فقط، سيكون لزامًا عليّ أن أستّمر في تأدية هذا الواجب الثقيل، ولن ينوبني سوى إضافة عادة أخرى تغلّ رقبتي." سألته: "أنت مختّلف عنهم، أليس كذلك؟" متحيّرًا ردَّ عليها: "في أي شيء؟!" قالت بإصرار من يرغب في تلقّي إجابة شافية: "ولكنّك مختّلفٌ عنهم، أليس كذلك؟" هزّ كتفيه وسكت، أعادت عليه السؤال، رد بعد تردد: "طبعًا أنا مختلف عنهم، هم لا يندهشون، ولا يتفلسفون، ويعتقدون

دائمًا أنهم على حق." سألته: "أليس هذا هو ما تعتقده أنت نفسك؟" هرش جبهته، قال بانفعال: "أنا! على العكس تمامًا، أنا أعلّق حكمي على أي شيء، فلست واثقًا من حقيقة أي شيء، لم أصل إلى إجابات قاطعة لأسئلة كثيرة، رغم السنوات الطويلة جدًا التي عشتها فوق هذا الكوكب."

- تتكلم مثل العواجيز.
- بالضبط، منذ طفولتي وأنا أعرف أنّي وُلدت عجوزًا.
- وما مصدر هذه المعلومة الغريبة؟
- خالتي فهيمة التي أصابها الصمم وهي في العاشرة، لا أعرف ما الذي رأته فيَّ لتطلق عليَّ هذا الحكم.
- ولماذا لا تسألها الآن عن سرّ هذه المعلومة المضلّلة.
- لم أرها منذ سنين طويلة، وبالتأكيد سوف تكون قد نسيت ما قالته لي أو لماذا قالته.
- ولماذا تصدّق ما قالته؟
- لأنني أحبُّها؛ فهي طيبةٌ جدًا، تقرأ الأفكار، وتقرأ الشفاه.

أسندت كوعها إلى المنضدة، وضعت خدها في راحة يدها، سألته: "ألا يوتّرُك كبح رغبتك في إلقاء السلام؟" ضحك: "يوترني أكثر من إلقاءِ السلام."

شعر بظلِّ النادل يجثم على صدره، وهو يسأله عمّا يطلبه، تنبّه إلى أنّه كان قد صرف كلَّ ما معه في جلسة سابقة، وأنّ المبلغ الذي يحتفظ به في

جيبه بالكاد يكفي للمواصلات، هزّ رأسه في حيرة من يخشى عاقبة الرفض، والنادل لا يزال ينتظر، والقلم والدفتر في يده في وضع استعداد، يختلس نظرةً متسائلةً إلى الفتاة، رفعت وجهها إلى السقف تعلن حيادها، كان الموقف سخيفًا إلى درجة الإيلام، وهو يقول بعد تردد: "لن أمكث طويلًا." ابتعد النادل خطوتين، يسترِق النظر إلى يامن لعلّه يغير رأيه، بود أدهّشه سمع الفتاة تسأله إذا ما كان يرغب في شرب شيء، ردّ عليها: "من الأفضل أن أمشي، فاليوم خرجت متعجلًا، نسيت المحمول، وليس بجيبي ما يكفي من نقود، إلا إذا قبل النادل أن أعرض عليه مبلغًا من المال ثمن القعدة." ضحكت ضحكةً لذيذة، مدّت له يدها قائلة: "وكم سوف تدفع ثمنًا للقعدة؟" أخرج من جيبه ورقة بخمس جنيهات، ناولها لها، نادت النادل الذي وقف مبهوتًا وهي تقدم له الورقة المالية، تومئ بذقنها نحو يامن قائلةً في رصانة: "ثمن القعدة."

وهو في صمته، في كامل حرجه، وفي نصف وعيه، وجدها بدون سابق إنذار تنتفض، تهرع في اتجاه الباب، تقف في مواجهة رجل ضخم حليق الرأس، شعر به يقف منتبهًا وكأنّه يتلقى منها تعليمات، شعر يامن بالتنميل يسري في جسده وهما يتقدمان نحوه ببطء، وقفا أمام المنضدة، قدّمت يامن للرجل: "عاطل جامعي." وقدمت الرجل ليامن: "خطيبي." نهض يامن يصافحه، بسرعة لافتة خلّص الرجل يده منه، رماه بنظرة باردة خالية من الود، سحب مقعدًا لنفسه وجلس، ورجعت الفتاة لتحتّل كرسيّها بجوار الواجهة الزجاجية، وكأنّه فقد القدرة على الجلوس، ظلّ يامن واقفًا، يدقق بتوتر شديد في ملامح الرجل الخشنة القاسية التي أثارت في نفسه جزعًا، دعته الفتاة للجلوس، ظلّ مترددًا، يعيد حساباته، كيف سيتصرف بشكل

طبيعي وقد بدأ أدرينالين العداوة يتدفق في دمه؟! ألحّت الفتاة عليه بالجلوس، جلس مرغمًا، "عاطل جامعي! يالها من وظيفة!" بعد أن قالها متهكمًا، رجع الرجل بكرسيّه في احتكاك صاخب، فرد ساقيه عن آخرهما، خبطت قدمه في قدم يامن، وبإيماءة سريعة مال على كتف الفتاة يطلب منها تفسيرًا لوجوده معها، ردّت عليه: "سوف أشرح لك كلَّ شيء." بدأت تقص عليه مشكلة يامن مع قدمه، ثم تطرّقت إلى الحوار الذي دار بينهما، ووصفته بأنّه مدهشٌ وغريب، قالتها بشكل لا يثير الغيرة بقدر ما ينبش في الفضول، ثم توجّهت بكلامها إلى يامن: "لماذا لا تحكي له بنفسك؟"

شردت عينا يامن في قلق، شعر بالتنميل يزحف إلى رأسه، يتأرجح بين المتناقضات والخيارات، الرجل أغبى من أن يكون خطيبها، وهي تبدو أجمل وأنبل من أن تكون نصّابة، مصيبة لو أنّه بالفعل يجالس فتاةً لا يعرفها ضبطها خطيبها معه؟! أيستمر في الجلوس معهما حتى تكتّمل الجمل الناقصة؟ أم يمزّق كلَّ الأوراق ويتركهما؟! أمام الإلحاح والترقب في نظرتها، قال في اقتضاب: "كنّا نتكلم خارج المألوف." سكت، لم يعد يرغب في الاستمرار، لكنَّ الفتاة بدت وكأنّها تصر على تشجيعه: "نعم.. نعم.. ليس حديثًا عاديًا، ليس النوع الذي يفهمه عامة الناس، على فكرة خطيبي من العامة." نقل خطيبها بصره بينهما في دهشة بلهاء، ثم استقرّ بزاوية عينه عليها: "تتحدثان معًا بلغة لا أفهمها، وطبعًا عادي جدًا أن أكون أنا صاحب القرون.. طبعًا! ديموقراطية." زحزح يامن مقعده في تململ من يتأهب للمغادرة، بإشارة سريعة حاسمة من يدها، أكّدت على رغبتها في بقائه: "لا تنسى أنّك دفعت ثمن القعدة." تشبّثت عينه بعينيها، شفتاها تنفرجان عن

ابتسامة خفيفة، تأمّلته برهةً بنظرة متفحصة عميقة، ظلَّ جالسًا في مكانه، يصغي إليها وهي تتوجه بالكلام لخطيبها: "هو شابٌ ظريف، عكسك تماما، يرى كلَّ شيء غريبًا." رفع خطيبها ذراعيه وفردهما على سعتهما في الهواء، ثمَّ ضمهما إلى صدره، كرّر ذلك في حركات متتالية، غمغّم بكلمات مضغومة، وكأنّه يقرأ تعويذة، فتح فمه يعب الهواء بحشرجة، ثم زفره لهيبًا، تمطّى بطرقعة مفاصله وعضلاته، شملهما بالكلام وهو ينقّل بصره بينهما: "وما الذي يمنعكما من أن تكملا حواركما في وجودي، يمكن اتعلم حاجة تنفعني." كبح يامن جماح رغبة شريرة في قلب المنضدة عليهما، لم يخف قلقه، عندما وجدها تتحرك بمقعدها إلى الأمام برشاقة وخفة، شعر بساقها تلامس ساقه، عيناها تعلقتا بعينيه، تتطلّع إليه ببشاشة، تشجّعه بإصرار على أن يتجاهل الرجل بجواره، تستجديه بالبدء في أي حوار يعجبه، عيناها الواسعتان تشعان بالذكاء الشديد، قذف بنفسه داخل حدقتيهما، ما الذي تريد أن توحي له به؟! انبهارها بأفكاره، وترغب في سماع المزيد، ربما لتتباهى بمعرفتها به أمام خطيبها، ولكن ما يرجحه أكثر، وهو الأقرب للمنطق الملعون، أن ما يحاولانه معه، ليس إلا استكمالًا لما قد جرى معه في الشركة، كانت هذه هي المرة الأولى التي يراها فيها وهي تستجديه: "من فضلك لا تخذلني أمامه، ابدأ بأي فكرة تخطر على بالك." يود لو يعرف ما هو مدفون في تلافيف مخها، سرح ببصره، غاب هنيهة، رجع إليها، وجدها ما تزال في حالة استجداء، عيناها على شفتيه، سوف تقرأ كل كلمة بمثلما تفعل خالته فهيمة التي أصابها الصمم وهي طفلة، الكلمة مسئولية يا يامن، وتلك المرأة الملعونة تسجل في ذاكرتها كل كلمة، خطر على باله أن يبدأ بآخر جملة دونها في دفتره، قال

وهو يضغط على الكلمات: "الوحيد من بين المخلوقات الذي يعرف أن الموت يترصده هو الإنسان، ومع ذلك لا يعرف كيف يستثمر الحياة بشكل جيد." داعبت ذقنها مفكرة، مالت بصدرها في اتجاهه، سألته: "هل تعرف أنت كيف تستثمرها؟" نقلته برنة صوتها المألوفة إلى تلك الحجرة التي جرى فيها الاختبار، يراها وهي تقلب في أوراقه، وهي تقرأ أبحاثه عن الكون، والانتروبيا، والصهير، واستثمار الطاقات المهدرة، هل يفضح أسلوبها الملتوي، أم يتغابى؟! قرر ألا يتغابى وألا يفضحها، فقط يرد على السؤال: "أحاول بطريقتي الخاصة أن أكون مفيدًا." تدخل حليق الرأس متهكمًا: "مفيد!" احتضن صدره بيديه، بضغطة قوية انبعج كرشه، بنظرة جانبية موبخة طلبت منه ألا يقاطعهما، وعلى الفور قالت موجهة كلامها ليامن: "يتملكني إحساس بأنك من النوع الذي يعاند قدره." سكت برهة قال بعدها: "ليس أمام الإنسان غير أن يحب قدره مثلما قال نيتشة، غير أنني لا أفهم فائدة أن يتبنى الإنسان أفكارًا تقيده، ومعتقدات بالية تحجر على حريته؟ وبدلًا من أن يرتقي بروحه يفسدها." تقوّس حاجباها وتألّقت عيناها، قالت برنة من يصحح له المعلومة: "ولكن لا تنسى أنه ارتقى في مجالات كثيرة." رد عليها: "لم يرتق إلا في جشعه وعدوانيته." هز حليق الرأس كتفيه باستخفاف: "إيه الحكاية بالضبط! أنا فعلًا بقرون." بدون أن تلتفت إليه قالت تسكته: "اصبر." ثم وجّهت كلامها ليامن: "ولكن ما الذي يمنعنا من أن نقبل ما لا بد منه؟" ولكن الرجل خشن المظهر لم يستطع أن يمنع نفسه من التفوّه ببضع ألفاظ سوقية، عنّفته الفتاة بنظرة موبّخة، لتسأل يامن عن رأيه فيما قالته، رد بسرعة من يداهمه الوقت قبل أن يسلم ورق الإجابة: "العالم لم يعد

في هذا الوضع الذي يشجع على أن يقبله الإنسان كما هو..." تجمّد الكلام على لسانه عندما أخرجه حليق الرأس من اندماجه بشخرة اسكندراني، انزلق بعدها من على كرسيه، فشخ ساقيه الطويلتين، مدّدهما حتى خبطتا بعنف أشدَّ من المرة السابقة في قدم يامن، لكن سرعان ما رجع بمقعده إلى الخلف، مطَّ رأسه، شخّص ببصره إلى السقف من فوقه، بإيماءة خاطفة قفز على قدميه ليهوي المقعد خلفه بارتطامة مدوّية. سدّد نظرةً مرعبةً شملهما بها، صوته الغليظ يلوّث السمع: "خلاص! والله العظيم صدقت، صدقت إني وسط فلاسفة، أخبط دماغي علشان تصدّقوا إني صدقت." وبدون أن ينتّظر ردًا من أحد، ركل المقعد الملقى على الأرض بقدمه اليسرى، وبقدمه اليمنى ركل يامن في ساقه، انتفض يامن حانقًا، ليجد نفسه وجها لوجه مع الحيوان الذي قذف به خارج الشركة، هو نفسه بوجهه مطموس الملامح، برأسه الحليق، ورقبته نافرة العروق. وقبل أن يمسك يامن بخناقه، دوت في أذنه صرخةً أداخته، شعر بعدها بالتنميل يأكل رأسه، الألوان تعربد بذبذبات سريعة بداخله، ليجد المكان وقد اكتسى بالزرقة، لبثت الزرقة تتكاثف، وتتكاثف، حتى تسيدت الظلمة المكان، لا يعرف من أين تأتيه اللكمات، ولا كيف يصدها، يحاول أن ينال منه، ولكنه لا يراه، غضبه يتقد بداخله ويحرقه، يحاول تفريغه، فيرتد إليه، انقطعت أنفاسه من الضرب في الفراغ، ومن تلقي اللكمات، التقط أنفاسه، لملم غضبه، ظل يكوره، حتى صار كرة فولاذية مسمطة، ثقيلة، قذف بها بكل قوته في حوائط العتمة التي تطوقه، تداعت، وتذرت على هيئة بودرة سوداء، انهمك في تنفيضها عن ثيابه، في إخراجها من عينه، ومن الأجزاء المكشوفة من جسده، راح بعدها

يتقافز بشكل عشوائي، بانتفاضات طائر مذبوح، لطّخ المكان بدمائه، قبل أن يتهالك على المقعد هامدًا، وجدها تطلق تنهيدة طويلة، تغمض عينيها، كما لو أنها تعلن عن سخطها وسأمها مما جرى، فتحتهما على سعتيهما بنظرة مشفقة، طلبت منه أن يعيد المقعد الذي انقلب على الأرض إلى مكانه، سألها بعد أن نفذ ما طلبته: "أين ذهب؟" بدلًا من أن ترد عليه، رفعت يدها تنادي على النادل.

هذا الشيء

في البيت عندما دخل عليهم هائجًا، وقف الأب مشدوهًا لمظهر ابنه، ولهذه الهجمة المباغتة الشرسة وهو يصرخ في وجهه معنّفًا: "خلفتني ليه؟" وبماذا يردّ وهو يرى ابنه أمامه شاحب الوجه وغير مهندّم الملابس! اكتفى بتسليط نظرة عتاب عليه، ولكن عندما احتّد صوت الولد وهو يردّد العبارة نفسها، ردّ عليه بما كان قد سمعه من أبيه في موقف مشابه: "بسيطة، أرجّعك." بدلا من أن يهدأ ازدادت ثورة الإبن، صبّ لعناته على كلّ الآباء، وعلى كلّ الأمهات، وعلى كلّ عواجيز البلد، وعندّما حاول الأب الاستفسار عمّا جرى في التصفية النهائية في الشركة التي أوصى له بها، ازداد هياجه وهو يلعن الشركة، ويلعن من دله عليها، راح يطيح بأشياء، ويحطّم أشياء، وعندما جاءت الأم مهروّلةً على صوت تهشّم الزجاج، صدّها الأب بصوت هادر. انصياع الأم وابتعادها عن بؤرة الغضب، لم تهدّئ من ثورة الولد، هبّ في وجه أبيه: "لا تظن بأنّك سترعبني بصوتك مثلّما رعبتها، لا تعاملني وكأني طفل، أنا شِخت قبلّك." مال برأسه يعرضها عليه، يقول وهو يشد شعره: "نصف شعري أبيض." لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يلّمح له فيها الولد بشيبته، لقد ذكرها في أكثر من مناسبة، ولكنّها المرة الأولى التي يكسر فيها قاعدة احترامه له بهذا الغلو، أكثر ما كان يخشاه هو أن تنجّر

رجل ابنه إلى دائرة العنف، وهي ألعن من دائرة المخدرات، لم تكن ثورة غضب عابرة، كانت حقيقيةً وعنيفةً بما يستوجب الرد عليها بحسم، ولكن من أين يأتي بهذا الحسم! وهو يراه ينقّض على الكتب فوق مكتبه، يمزّقها، يلقي بها بكل عنفوانه على الأرض، وفي الحوائط، يقول من بين صرخاته الهائجة: "علمتّني القراءة ليه؟" يشد شعره بغلّ: "دائمًا مكتئب ليه؟" تجرّأ وأمسك بكتفّي أبيه يهزهما ويبخ في وجهه: "أصابتني عدوى الاكتئاب منك، تتغرّب وترجع بفلوس وباكتئاب أكثر من الفلوس، ولا تملك غير رد واحد، رد واحد: 'علشانكم!' علشان مين؟! علشان مين بالضبط؟!" عندما اشتّد الوخز في كتفه، شعر الأب بخطورة ما يجري أمام عينيه، وبدا وكأنّه بداية لكارثة تربض متربصةً خلف جدار هذا التمرّد الملعون، مع حرصه ألّا يأتي بتصرف غشيم، يفسد، ويهدم، كل ما شقي من أجله، إلا أنّه استشعر بأن أي تهاون أو تخاذل في هذه اللحظة بالذات، سينسف إلى الأبد كلّ دعائم العلاقة بينهما، فلم تصل المواجهات بينهما من قبل إلى مثل هذه الحافة من الخطر، تراجع الأب بضع خطوات إلى الوراء حتى لا تطاله يد الولد مرةً أخرى، توقّف وعينه مُصوّبة للعينين المحمرّتين الغاضبتين، ظلّ يترقّب ما تأتي به فترة الصمت بينهما، ربّما تهيئ له مساحةً للاعتذار، طال الانتظار، والولد لايبدي إحساسًا بالندم، ولا أدنى رغبة في الاعتذار، بل إنّه مال على القطة التي دخلت الحجرة، وأعلنت عن عدم رضاها بصخب موائها، أمسكها من بطنها، ألقى بها من نافذة المنور، أغلقها خلفها. اتّجه بخطوات سريعة تجاه مكتبه، فتح الدرج بشيء من العنف، أخرج منه علبة السجائر التي يخبّئُها، أشعل سيجارةً لأول مرة في حضرة أبيه، يسأله من وراء الغلالة التي يصنعها:

"عمرك ما فهمتني ليه؟!" انسحب الأب، خرج من حجرة ابنه، تركه يسمع بنفسه صدى ما يهذي به، يجهد ذهنه في التفكير، أية أمصال تفلح في القضاء على جرثومة التمرد، قبل أن تستفحل، وتفتك بهما؟! لا سبيل من مواجهة هذا الخطر، إلا بخطر أعظم، يلقي بابنه في دائرة الخطر نفسها، فلن يحس بالألم إلا من يكتّوي بناره، اتّجه إلى المكان السري الذي لا يعرفه في البيت أحدٌ غيره، يفتّش عمّا ظلّ يخفيه لسنوات عديدة، أخرجه من مخبئه، قلّب فيه بحذر، وهو يتفحصه، أفرغ الخزينة من الرصاصة التي بداخلها، رجع إلى ابنه الذي هدأت ثورته، وقف أمامه برهةً صامتًا والسلاح بيده، ألقى يامن بالسيجارة تحت قدمه، داس عليها، تراجع مذهولًا لرؤيته المسدس في قبضة أبيه، يستعيد لحظات ثورته في وجه أبيه، ولا يدهشه أن يكون رد فعل الرجل أكثر عنفًا، وليس أمامه سوى أن يكون مستعدًا لكل الاحتمالات، لقد خرج عن المألوف، وثار في وجه الرجل، فلا يستبعد هذه اللحظة أن يكون ردّه أشد إيلامًا، ربما يفرغ الرصاصة في قلبه، وهو لا يستطيع أن يلومه، بعد أن قدّم له كل ما يبرر قتله، ألم يوجّه له اللوم لخلفته له؟! فما ذنبه لو لبّى رغبته وأرجعه من حيث جاء! لا غرابة في ذلك! كان الأب ممسكًا بالرصاصة في يد والمسدّس في اليد الأخرى، فتح الخزينة ووضع الرصاصة بداخل المسدس، أدار يامن ظهره له: "تصرّف كما يحلو لك، لم أعد أبالي." وضع الأب يده على كتف ابنه، أداره ليواجهه، مدّ يده يناوله المسدس قائلًا بحسم آمر: "خذه.. هو لك.. لم أستخدمه إلا مرةً واحدةً فقط، أطلقت فيها رصاصتين في فرح صديق، واحتفظت بداخله برصاصة واحدة فقط للظروف." عندما وجده مترددًا في تناوله منه، أخرج الرصاصة من المسدس

مرةً أخرى، مرّرها أمام عينيّ ابنه "ذخيرة حيّة" وهو يعيد الرصاصة إلى مكانها داخل المسّدس كان يشرح له ميكانيكية العمل، وطريقة التأمين، دسّه في يده حتى لا يترك له مجالًا للرفض، أخذ كلّ منهما يحدّق في عين الآخر في صمت مأزوم، ولفترة طويلة، راح بعدها يامن يقّلب في هذا المعدن القاتل، لا يجرؤ على الإتيان بأي حركة عنيفة، يجهل عواقبها، يتفحّصه بحذر شديد، يردّد في بلاهة: "رصاصة حية؟!" ردّ الأب مؤكدًا في ثقة وحزم: "حية وقاتلة." سأله الابن وهو لا يزال في ذهوله: "وما الذي تريدني أن أفعله به؟" ردّ عليه بهدوء متّزن: "افعل به ما تشاء، بعه، اسرق به بنك، اقتلني، اقتل نفسك، هدّد به سائق تاكسي واستولي على نقوده، ارجعه إليّ واطلب مني أن أقتلك به، المهم أن تتخلص من الرصاصة بداخله." استدار ليتركه، وفي التفاتة سريعة قال يختتم كلامه: "أشياء كثيرة يمكنك أن تفعلها به، أنت الذي سوف تجيب على السؤال وليس أنا."

تحابوا

يدرب نفسه على ألا تعيقه عاطفة نحوها أو رغبة محمومة، حتى لا يصاب بحمى إدمانها، وحتى لا يفسد محاولاته معها لمعرفة سر الشركة التي اختفت، وسر ملاحقاتها له، جلس ينتظرها في الكافيه شوب الذي التقى فيه معها، وكانت قد تركته يتلهى في المشروب الذي طلبته له، حتى ترجع إليه، كان للمشروب نكهة مميزة، يأخذ كل رشفة منه في استعذاب وتلذذ، وبمجرد أن فرغ منه، شعر بزغللة، أغمض عينيه، أراح رأسه بين كفيه، رفعها على جلبة وضجيج، ملأته الدهشة عندما رآهم يحتلون المناضد من حوله، كل عيونهم عليه، اثنان منهم يدخنان السجائر، وواحد ممسكًا بمكبر صوت، من غيرها يكون قد قام باستدعاء تلك السحن، المحكوم عليه أن يمر عليهم في ذهابه وإيابه، من وإلى بيته، هي الوحيدة التي تعرف موقفه منهم بعد أن حكى لها عنهم، ولكن لأي غرض قامت باستدعائهم؟! هل هو نوعٌ آخر من الاختبار، كان من بينهم الكهربائي بأنفه الأفطس وشعره الكثيف المجعد، السباك باستدارته البالونية الكاملة، وبحنجرته المتحشرجة الغليظة، التي لا تكف عن الفحيح، المكوجي الذي جمّد مؤشر الراديو في محله على محطة واحدة، الميكانيكي الذي لا يكف عن تعنيف صبيانه بأقذع الألفاظ، وصاحب الجراج الذي يحلو له أن يمسك بذيل جلبابه، يهوّي بها سرواله

الداخلي، ما الذي يريدونه منه؟ وماذا عنده ليقوله لهم؟! وليس بينه وبينهم أي نوع من التواصل، هو بالتأكيد لن ينسى أنّهم أنقذوه مرةً من بين أنياب كلب هائج، وهو يعبر الخرابة التي تختصر الطريق نحو بيته، وهي البديل الأسوأ لتفادي المرور عليهم، لم تغير حادثة هجوم كلب الخرابة عليه من موقفه منهم، فهم ما يزالون يستجدون التحيّة، وما يزالون يؤرقونه بضجيجهم الأهوج، ولم تتبدل نظرتهم إليه ككائن فضائي، لا يفهمونه، يحدث أحيانًا وهو يمر عليهم، أن يصله ردهم على السلام: "عليكم السلام." بدون أن يكون قد ألقاه عليهم، تكرر هذا النوع من التقريظ السخيف في أكثر من مناسبة، ومن أكثر من شخص، لا يعرف إذا ما كان يكرههم، ولكنه بالتأكيد لا ينسجم معهم.

تطلّع بنظره في اتجاه صاحبة الشركة الوهمية، التي شدت الانتباه إليها، عندما دفعت باب الكافيه شوب ثم صفقته بقوة، بدت له وكأنّها صاحبة هذا المكان أيضًا، وهي تصرخ في الجمع المتحلّق حوله: "ما الذي تريدونه منه؟" كل الأعين تصلبت عليها، كررت السؤال بالكثير من الحدة، أمسك المكوجي بمكبر الصوت، نفخ فيه عدة نفخات وكأنه يختبره، انتزعه السباك منه ونقر عليه بأصابعه، ظلوا يتخاطفونه، يجربون قوة تجسيده للأصوات التي تخرج منهم، حتى انفلت منهم، وطار في الهواء، ظلت عين يامن شاخصة إليه خوفًا من أن يسقط على رأسه، غير أنه هوى على إحدى المناضد، انفجر، تشظت الأصوات بوشيش منفر.

اتجهت إلى حيث يجلس يامن، وضعت حقيبتها على المنضدة بينهما، وهو يداري أذنيه بكفيه، سمعها تسأله: "هل تحب أن أطردهم؟" حرر أذنيه، رد على الفور: "اطرديهم." لاحقها بنظراته وكأنه يرصد مشهدًا في فيلم، وجدها تنهض في انتفاضة سريعة، تصفق بيدها عدة صفقات، تشير إلى الباب، تقول بلهجة آمرة: "تفضلوا من غير مطرود." وهم يتدافعون في فوضى إلى الخارج، صوبوا إليها نظرات حانقة، شتموها، قلبوا بعض المناضد، ليدوي صوت ارتطامها بالأرض، وبالتدريج تلاشت حلقات الدخان التي ناطحت السقف، وخفتت كل الأصوات، إلا صوت لهاثها، جذبت نفسًا عميقًا ثم قالت: "عندك حق أن تتجنبهم، فلن ينالك منهم إلا تلويث صدرك، وسمعك، وروحك، وذهنك." تردد في القيام خشية أن يفقد توازنه، باندفاعة انتصب واقفًا، وعلى عكس ما توقع أحس بأنه يرغب في الجري. ألح عليها أن تخرج معه إلى الشارع، لم يخط إلا بضع خطوات حتى شعر بالتنميل يسري في كل جسده حتى رأسه، وبالصهد يلفحه، يزداد اللهيب مع كل خطوة يخطوها بجوارها، العرق يتصفّد غزيرًا من جسده، وأيضا من جسدها، رغب بشدة في التخلص من هدومه المبتلة بالعرق، ومن هدومها، اقترح عليها أن يخلعا ملابسهما، خلعاها، لم ير شيئًا غريبًا في عريّها، وكأنهما هكذا وجدا، كما أنّه لم يستشعر وجود أعين ترصدهما، يجريان في شوارع خالية، وساكنة، لم يصادفهما سوى كائن مهلهّل الثياب، غريب الشكل، كان نائمًا، وربّما ميتًا، لأنه عندما ركز على بطنه وجدها لا تعلو ولا تهبط، وعلى وجهه تشابكت خيوط الحزن، كانت يده تحت رأسه، وبجواره ترقد لافتة باهتة عريضة، مكتوبة بأحرف كبيرة مائلة، بذل جهدًا كبيرًا في قراءتها،

قرآها معًا في توقيت واحد: "تحابّوا قبل أن تتبلوروا." وقف يامن شاردًا أمام اللافتة، هذا الرجل مثلّه، بل ربما تفوق عليه، واستطاع أن يرى في مكان ما، ضحايا الصهير المنبثق من باطن الأرض، رغب بشدة في التعرف عليه، لا شك أنه هذا الصنف من الناس الذي تطيب له صحبته، أطلق صوتًا في محاولة لتنبيهه إلى وجودهما، فلم يبد أدنى استجابة، بحذر شديد انحنى ليلامس يده، جذبته بعيدًا عنه، لم تمكنه من سؤال الرجل كيف جاءه اليقين، شعر بالخجل من نفسه لاستسلامه لها، مشى معها يحملق بعينيه الشاحبتين في الأرض، يرهقه التفكير في هذا النّكِرة الذي تفوق عليه، هذا الكائن الذي لا يعلق بأي ذاكرة، تشجع ورفع راية التحذير، قال كلمته منبّهًا، قالها، أو كتبها، ثم نام، أو ربما مات.

وحده مع المسدس

لماذا يتعمد أبوه أن يرمي به في مناطق الخطر، يدفع به إلى وظيفة لم ينل منها سوى الإهانة، والآن هذا المعدن الثقيل تحت رأسه! وكأنّه انتقل فجأةً إلى عالم يموج بالصراعات، يعايش نوعًا جديدًا من الانفعالات والخيالات، هل يكفيه أن يعيش كلّ مغامراته في المنطقة الضبابية بين اليقظة والنوم! هذا كلّه لن يعني شيئًا إذا لم يحقق إنجازًا ما، هذه تجربة مختلفة تمامًا، وإن كانت بعيدة الإمكان، بدأت الأفكار تتشكّل في ذهنه في تتابع مهووس، كيف يقدم على مغامرة لا تجلب عليه المتاعب؟ يستّلزم هذا تخطيطًا مُحكمًا، يحدّد هدفًا واضحًا واحدا، تتجسّد فيه كل الأهداف، يضرب ضربته مرةً واحدة، لحظة حاسمة واحدة تتغيّر الدنيا. تجسّدت صورتها وهي تحاوره وتدوّخه، تسكره، تغطس وتقب به، في الوحل، وفي مياه عميقة الغور، تظهر وتختفي حسب مزاجها، يتقلب وهو معها في واقع ملتبس، أقرب إلى الوهم، هذه الفتاة بعينيها الساحرتين اللتين تاه منهما اللون، تداهمه وتفزعه صورتها الضبابية، هي الهدف، سوف تستّقر الرصاصة في رأسيهما، سيلصق خدّه بخدّها لتخترقهما رصاصةٌ واحدة، هل افتتن بها إلى هذه الدرجة!

ما يهم الآن هو أن يجد مكانًا آمنًا يخبّئ فيه المسدّس؛ أكثر ما يؤرقه أن تنطلق الرصاصة بطريق الخطأ وتصيب من لا تستهدفه، لا بد من بقاء

الرصاصة بعيدة عن متناول يده خوفًا من أن يغالبه توترٌ انفعالي، يمحو بأثره وجودًا إنسانيًا غير قابل للتعويض، لن يترك نفسه هكذا فريسةً لجو الرعب المتجسد في معدن حيّ داخل جسد الميت لا ينطق إلا باللغة التي يكرهها، ومن يدري! ربما ينطوّي الأمر كله على خدعة! قضى اليوم بطوله يفتّش عن المكان المناسب ليخبّئ فيه المسدّس، ومع كلّ محاولة فاشلة، يتعجب أين كان يخبّئه أبوه طوال هذه السنين، يتغرّب بالسنوات ويرجع، والمسدس قابع في مكانه السري الآمن.

تعالت صيحات الاستنكار من نظيرة، تقف متنمرةً، مهتاجةً، ومتشكّكة: "وما الذي تنوي أن تفعله به؟!" كان يقلّب في المسدس عندما مرّت على حجرته التي يتعمد أن يترك بابها مواربًا، عندما يعرف بوجود ميسا معها، خاصة في عدم وجود الأبوين. دس المسدس تحت الوسادة، قال يكتم فضولها: "مسدس لعبة، هدية التخرج." لم يكد ينتهي من جملته حتى وجدها في قفزة واحدة، تمد يدها لتخرج المسدّس من تحت الوسادّة، بحركة سريعة أحكّم قبضته على رسغها، صارخًا فيها: "مسدس حقيقي وبداخله رصاصة." خلصت يدها منه، ارتّدت فزعة، تعرف تمامًا متى يكون أخوها جادًا، بدلًا من أن تجادله، وخوفًا من العواقب، اندفعت إلى الخارج. من مكانه يستطيع أن يحدس ما الذي سوف تفجره في عقل ميسا الآن، ميسا اعتادت وهي معها أن تتمدد على سريرها، أول ما سوف تتلفظ به نظيرة هو صفة تحقره بها "أخي المخبول" وعندما تستفسر منها ميسا عما تعنيه، سوف تنتهزها نظيرة فرصة لتقلل أكثر من شأنه، لتسقطه من عين ميسا، ولكن لأن ميسا تحبه كزوج قادم، لن تصدق نظيرة، وسوف تحضر إليه لتقف بنفسها

على الحقيقة، وهو الشيء الذي حدث بالفعل. بمجرد أن لمحها، هرع إليها، صافحها بحرارة: "ميسا!" نست يدها في حضن يده، وهي تسأله عن المسدس، ترك يدها تسقط منه، دعاها للجلوس على المقعد الوحيد بالحجرة، جلس على حافة السرير قبالتها، مدّ يده وأخرج المسدّس من تحت الوسادة: "مسدّس حقيقي وبداخله رصاصة." بحركة صدّ عفوية قالت: "من فضلك ابعده عنّي." رد عليها: "لا تخافي، في وضع الأمان." ظل ممسكًا به، يقلب فيه، مستمتعًا بجو الإثارة الذي انعكس بوضوح على ملامحها، برجفة خفيفة في يدها، تشير إلى المسدس: "هذه هي المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها مسدسًا حقيقيًا، من أين حصلت عليه؟ وما الذي تنوي أن تفعله به؟" اشتم من رنة صوتها رائحة القلق والتوجس، وجد أن أفضل شيئ يطمئنها به هو أن يقول لها بشكل مباشر أنه ليس مشروعًا للانتحار، وعلى عكس ما توقع، وجدها تتجهم: "من فضلك لا تكن غامضًا معي."

- آخر شيء يخطر على بالي هو أن أكون غامضًا معك، هو سر بيني وبينك لا أريد لنظيرة أن تعرفه.
- أعدك بألّا أفشي لها السر.
- أبي هو الذي سلّمه لي لكي أتصرف في الرصاصة بداخله.
- لا أصدّقك.
- حقيقي.
- ولكن لماذا فعل ذلك؟

- لا أعرف.
- وكيف ستتصرف بالرصاصة التي في داخله؟
- لا أعرف.
- تعرف أنني أكره العنف، من يومين فاتوا تمزقت هدومي، وأغمي عليّ، في مظاهرة نسوية صاخبة، أجبرتني نظيرة على السير معها فيها.
- وإلى متى ستظلّ نظيرة تجبرك على عمل شيء لا ترغبين في عمله؟

اقتحمت نظيرة عليهما الحجرة، قالت توجّه كلامها لميسا: "ألن نخرج؟" بدت ميسا متحيّرة، تنقل بصرها بين الأخ وأخته، لا تعرف على وجه اليقين من منهما تفضّل أن تكون معه، جذبتها نظيرة من ذراعها بشيء من العنف، قاومتها عند عتبة باب الحجرة، تحرّرت من قبضتها، رجعت إلى يامن، همست في أذنه: "متى نلتقي؟" تركته ميسا بعد أن اتفقا على موعد يصطحبها فيه ليتفرجا على البلد، في العربة التاكسي التي يعمل عليها.

أوصد باب الحجرة، زحف تحت السرير، إلى حيث يختبّئ السر، إلى الحفرة التي ينبش فيها من حين لآخر، استخدم أكثر من وسيلة لحفرها، وكانت له خبرة سابقة في النبش والحفر، لكن في طين الغيطان، كانت بداية هذا الشغف في القرية، عندما استشعر ليونة الطين، واكتشافه للكائنات المتنوعة التي تعيش فيه كلما توغل في العمق، تعاظمت رغبته المهووسة في الحفر، منذ ذلك اليوم الذي سمع فيه همس خفيف يأتيه من تحت الأرض، وكان مستلقيًا بجوار حفرة عميقة قضى أسبوعًا كاملًا في حفرها. تكتم الأمر

في البداية، ولكن مع تكرار حدوثه، باح به لخالته فهيمة التي قرأت شفتية وضحكت: "صوت من تحت الأرض! يوه يا يامن بتتكشف لك أسرار! اكتم السر في قلبك، وإياك يا يامن تقوله لجنس مخلوق."

أزاح الغطاء الذي يخفي الحفرة، وضع أذنه على فوهتها، أصاخ السمع، كان وشيش صهير الصخور في باطن الأرض أكثر وضوحًا من مراتٍ سابقة، بما يعني اقترابه من السطح، دفس المسدس إلى أعمق ما وصلت إليه يده داخل الحفرة، أعاد الغطاء إلى مكانه، زحف راجعًا، جلس على حافة السرير، المسدس الآن في مكانٍ عميقٍ آمن، وإذا ما حدث وطالته السخونة سوف يكون هذا هو أوّل دلالةٍ عملية على تقدم الصهير نحو السطح.

حقيقي

هذه المرة كانت ميسا تجلس بجواره في العربة التاكسي التي مضى شهر واحد على عمله عليها، قرر أن يحتّفظ بالعربة في هذا اليوم من أجل ميسا قبل أن يعيدها بصفةٍ نهائيةٍ إلى صاحبها، كان كلاهما في مزاج رائق، بدت الشوارع في وجودها أكثر مدعاة للفرجة والتسلية، لم تكن ميسا زاعقة الجمال لتلفت الانتباه، ربما شعرها فقط الذي بالكاد يلامس كتفيها، يهفهف مع الهواء، قال لها مازحًا: "أول خطوة في تحقيق حلمك، عربة بسائقها." تجاوبت بضحكة خفيفة، اتخذت القيادة في وجودها مذاقًا جديدًا، بعيدًا عن هم الزبائن بتذمّرهم الدائم من الحياة، ومن مرارة العيش، ومن نصائحهم وفتاويهم المثيرة للأعصاب، في بداية الأمر رفض طلبها بأن تشاركه حساب العداد، ولكن مع إلحاحها وافق، لم تكن زبونًا ثرثارًا يستجدي المديح أو المجاملة، يرد على فضولها بحماسٍ شديد، وبفرحة من يكتشف من خلالها عوالم جديدة، سألته عن رد فعله تجاه العشّاق الصغار في المقعد الخلفي، ردّ عليها: "أتجاهل النظر إليهم، ولكنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من التنصّت عليهم." وعندما سألته عن الزبائن الذين يحبّون الكلام بمناسبة أو بغير مناسبة، قال: "معظمهم يقلبون رأسي، ولكن البعض منهم أصغي إليه كطبيبٍ نفسي، ولا أرد فأنا أكره المجاملات." غالبًا ما

يطالع إعجاب ميسا به في حلاوة ابتسامتها وتعليق بصرها عليه، تعلقها الواضح به استدعى في ذهنه فكرة الزواج، فهو يدرك تمامًا منذ تلك اللحظة التي كاشفته بحبها الشديد له، أنه ليس حبًا مجانيًا مثلما كان الحال أيام الرومانسية، في إحدى الإشارات تحسس العلبة في جيبه التي قضى الليل بطوله يزخرفها ويشكلها من أجلها، عندما طالت الإشارة، خطر على باله أن يسألها سؤالًا مباشرًا إذا ما كانت تفكّر فيه كزوج، فتحت فمها وقد أخذتها المباغتة: "أي نوع من الأسئلة هذا؟" ثم مرّرت له سؤاله: "وهل فكرت أنت فيَّ كزوجة؟" كانت عينه على الإشارة، ومع انطلاق العربة في الضوء الأخضر، رد: "نعم، رغم أن الزواج ليس هو شاغلي الشاغل." وكأنّه فتح باب العربة ليلقي بها خارجه، استشعرت الحرج والإهانة، سألته بفضول متوجس: "وما هو شاغلك الشاغل؟" ولأنّه كان يتوقّع السؤال، أجاب على الفور: "أشياء كثيرة، ربّما تبدو لك غير واقعية، ولكنّها شديدة الأهمية بالنسبة لي." سألته: "مثل ماذا؟" تردد قليلًا ثم قال بهمة فاترة لشخص يعرف أن ما يقوله لن يكون موضع ترحيب: "ما يشغلني الآن، هو ما يجري في أيسلندا من استغلالٍ للطاقة الحرارية التي تنبعث من الصهير في توليد الطاقة الكهربية." رجعت بظهرها إلى الوراء، رمت برأسها إلى الخلف، ظلّت شاخصةً إلى السماء، وكان واضحًا ما فعله بها، وهو لا يحتاج أن يراجع نفسه فيما قاله؛ لأنه توقع رد فعلها، ولأنّه لا بد وأنها ستسمعه منه في مناسبةٍ أو أخرى، كانا قد وصلا إلى شارع قصر العيني، فوجئا بالعربات مكدّسة وهي تغيّر اتجاهاتها، وتهرب في شوارع جانبية، مجموعات من الناس تهرول في اتجاهات عديدة، ولا أحد يرد بإجابةٍ شافية، سألته ميسا في قلقٍ

وحيرةٍ: "بعد كل ما جرى، ما الذي يجري الآن في ميدان التحرير؟" رد عليها بشيء من العصبية: "لا أعرف، ولا أريد أن أعرف، لقد مت مرة في الميدان، ولست مستعدًا أن أموت مرة أخرى من أجل لاشيء." هزت رأسها موافقة: "عندك حق، أنا أيضًا قرفت، وقفلت على كل المواضيع." رجع بالعربة إلى الكورنيش، سمعا جلبة شديدة، صراخ، وهتافات، ودبيب أقدام تجري، وأصوات طلقات نارية، وبدأت الحجارة تتساقط، قرأ الفزع في عينيّ ميسا، عرج بالعربة على جاردن سيتي، بعد أن تطايرت الجلبة، قالت ميسا معلقة: "مسخرة، من الذي يلقي الآن بالحجارة؟ وعلى من تلقى الحجارة؟ ومن أجل أي شيئ؟" كان قد وجد مكانًا يركن فيه، مشيا معًا حتّى وصلا إلى إحدى الكازينوهات المطلّة على النيل. وقع اختيارهما على منضدة تطل مباشرة على النيل، بدا المكان خاليًا من الناس، وكأنهم باتفاق ضمني قد قرروا فجأة أن يقاطعوا البهجة، وكان هذا، وبشكل ما، يصب في صالحهما، استمتعا بخدمة مميزة، ابتسامات عريضة مرحبة، مفرش نظيف ملون، استجابة سريعة للطلبات، انحناءات ظريفة. شعرا بأنهما يطفوان ويملآن هذا الفراغ المخيف.

تحسس يامن العلبة في جيبه التي سهر يزخرفها ويشكلها، قال لميسا: "عندي مفاجأة لك." اتسعت عيناها، ارتسمت على وجهه ملامح جادة وهو يقول: "تصدقي يا ميسا إني بدأت أتدرّب على كيف أصير زوجًا." وكأنه أمسك بواحد من تلك الحجارة وخبط رأسها بها، وجدها تتململ حرجًا وكدرًا، ردت: "أنت لست مجبرًا يا يامن على أن تكون زوجًا." لم يكن

رد فعلها المحبط جزءًا مما توقع، ضحك رغمًا عنه: "في الحقيقة أنا مجبّر، لأني بدأت أتعلق بك."

- لا لست مُجبرًا، يمكنك أن تدرب نفسك على عدم التعلّق بي.
- سيكون الزواج تجربةً جديدةً جميلة نزين بها الواقع.
- تجربة!
- جميلة.

حرّك مقعده، التصق بها قائلًا برنّةٍ مَرِحة: "والآن سوف أبيّن لك عمليًا كيف أتدرّب." ركزت عينيها في عينيه، طلب منها برنّة صوتٍ هامسة كما في الأفلام أن تغمض عينيها، راحت ترمقه بنظراتٍ مستطلعةٍ حذِرةٍ ومتشكّكة، ولم تستجب لطلبه، كرّر الطلب، كانا قد اتفقا في مواقفَ سابقةٍ عندما كان يخلط الهذر بالجد، أن تسأله في حالة التّباس الأمر عليها: "حقيقي؟" وعليها أن تصدّقه إذا ما ردّ بالإيجاب، سألته: "حقيقي؟" ابتّسم في ثقة: "حقيقي." تراخى جسدها، أغمضت عينيها، تركت نفسها لتصوراتها، وللهفتها إلى شيءٍ جديد، تهيّأت في ابتسامةٍ مسالمةٍ مستّبشرة، بينما تستشعر مرور يده بشعرها، قبل أن تنزّلق حول رقبتها، ثم وهي ترتّاح برهةً على ثديها، قلبها تتسارع دقاته، ذهنها مشغولٌ بالشيء الذي تستشعر ثقله، كان لوجهها فتنة خاصة وهي مغمضة العينين، مستثارًا لكي يفتنها، صفّق صفقةً خفيفةً؛ لتفتّح عينيها، ألجمتها صدمة ما تراه يتدلّى من رقبتها، اغرورقت عيناها بلمعاتٍ ذاهلة، قال بافتخارٍ وهو يشير إلى القلادة على صدرها: "شكّلتها بنفسي."

أصابها الوجوم، والحيرة، وهي تتفحص العلبة المعدنية الصغيرة، وقد ظهر الصدأ في بعض أركّانها، برغم محاولته طمسه بزخرفةٍ بملمّحٍ فرعوني، بمجرد أن تحسّسته، شعرت بتقزّزٍ من الملمّس الخشن للألوان التي جفّت بطبقةٍ بارزةٍ على السطح، لو إن الشك قد ساورها منذ البداية في عدم جدّيته، ما كانت لتسلّم له رقبتها، ليمر بيده عليها، ولا تركت يده ترتاح على صدرها، لتداعب لمستها أحاسيسها، وتلهب خيالها، الذي تأجّج بالفعل مع غمضة عينيها، يا للاستهانة! أهان صدرها بعلبةٍ صدئةٍ من الصفيح بحجمِ علبة كبريت، مثل تلك التي تحتّفظ فيها أمّها بالإبر والدبابيس، يدها ماتت على خيط النايلون المحلّى بالخرز والترتر، ما تراه، وما تلمسه لا يشجّع على أن تستّوضِحه "هزار أم جد؟!" وكيف تثق في أي ردّ؟! لقد غرق آخر مرفأ لها، وفقدت الكلمة التي كانت ترتّكن إليها معناها، خلاص، انتهى الأمر، كلمة "حقيقي" التي تسمعه الآن يردّدها من بين ابتسامته الواثقة، أصبحت كلمةً هزلية، خلاص، ربما تكون آخر قعدة بينهما.

ظلّ يامن يتأمّلها محاولًا فهم ردّ فعلها، كانت تهتّز، وتضطّرب، وتنتّفض، وجهها يشتّعل بالاحمرار وينطّفئ بصفرةٍ مقبضة، شعرها الذي تقصه لتتركه قصيرًا من أجله، تسحبه للوراء، فتتّسع مساحةُ جبهتها بخطّي غضبٍ لم يرهما إلا فيما ندر. قالت في وجومٍ وهي تنقر على العلبة بأظافرها: "علبة صفيح؟!" ردّ وهو يشير إلى الزوايا الصدئة: "حديد، تعمّدت ترك بقع الصدأ في الأركان، امعانًا في التجريد، لكن ما رأيك في الزخرفة؟" لم تسمعه، راحت تقلّب فيها في شرودٍ حزين، تملّكها شعورٌ غريب بأنّها تُغتّصب، تحاول الإفلات من هذا التشوّش، انتفض جسدها في رعشةٍ محمومة، شدّت بعنف

هذا الشيء بوخزة ألمٍ في رقبتها، تناثرت الحلقات الصغيرة النحاسية على المنضدة، وعلى الأرض، انفرطت حبّات الترتر المنمنم، لتبقّع يدها وملابسها بحمرةٍ قانيةٍ كالدماء، العلبة في يدها يتدّلى منها خيط النيلون، مثل بقايا كائنٍ نفق في قبضتها، تتطلّع إليها بتقزّز، كيف تقبل أي دعابة في موقفٍ ينطوي على إهانة؟! كانت قد سدّت أذنها تمامًا، ولم تسمع سوى حشرجة أنفاسها اللاعنة المتألمة، لم تعد "حقيقي.. حقيقي.. حقيقي." التي يصرخ بها سوى عار الاستهانة بكل شيء. وضع يده على صدره، أوجعه إحساسها غير المبرّر بالمهانة، لأول مرةٍ يشاهد صورته في عينيها، مهتّزةً، ممسوخةً، وكئيبة. مصدومًا بغضبها الذي طفح كالبثور على وجهها، فوجئ بها تدفع بمقعدها في حركة عنيفة إلى الوراء، تنتصب واقفة، مد يده إليها، أدارت ظهرها له، وبكلِ عنفوانٍ غضبها قذفت بالعلبة لتسقطَ في النيل.

انحبس الجانب المرح فيه مع أنفاسه وهو يراها تغادر المكان، لماذا فشل في أن يمرر لها حقيقة أنّه قد بدأ يعتاد عليها، وبدأ يقبل بفكرة الزواج، كمشروع جديد للحياة، ويومًا بعد يوم، ومن أجل أن يطمئن نفسه على جديته، بدأ يتنقل من وظيفةٍ إلى أخرى، كلّها لا تليق بشهادته ولا بتقدير الامتياز الذي تخرّج به. لقد وجد في صحبتها الكفّة التي يعادل بها كفّةَ جنوحه للحزن، وقابليته الهشّة للاكتئاب. أليس من الغريب أن يفقدها في وقتٍ تصاعدت فيه وتيرة تعلّقه بها؟! كيف لعلاقةٍ من المفترّض أن تكون قويةً، أن تتهاوى بهذه الهشاشة؟! مصيبة أن تكون براءتها وهمية! فقدها مثلما فقد من قبلها، عايدة وشند، النباتات من حوله بدت قاتمةً بتجاعيدَ كثيرةٍ، بأغصانٍ منقبضةٍ وأوراقٍ باكية، الموسيقى حزينة، والشمس بهت لونها وهي

تنسحب نحو الأفول، ورغم ارتعاشة الهواء الرطب، مياه النيل لا تجري، ولاصوت لها، وكأنّها استحالت فجأةً إلى مياهٍ آسنة، ربما مثله ملتبسة لا تعرف لها مجرى، ولا فائدة. ظلّ واقفًا وحدّه متّكئًا على السور المطل على النيل، يفكّر فيها بحزنٍ وكأنّها ماتت، ابتسامتها البريئة، وفساتينها البسيطة، خلاص، لن يجد من يصغي إليه ويصدّقه، يعرف أن وقوفه لن يعيدها، ومع ذلك ظلّ واقفًا، ينتّظر أن تطفو العلبة، شعر بالتنميل يسري من جسده إلى رأسه، وفجأةً رآها تخترِقُ صفحة الماء، تخايله وتبهره بإشراقتها المباغتة. تسمّر في مكانه وكان على وشك أن يقذف بنفسه إلى الماء، عندما لاحظها ترفع يدها وبها العلبة، وقف مشدوهًا وهي تفتحها، وتخرج الدبلة التي كانت بداخلها.

كان الماء حولها يموج بفرحتها، تفرد راحة يدها، تنقل الدبلة بين أصابعها، ومع كلّ محاولةٍ فاشلةٍ لإدخالها ترفع إصبعها في وجهه، تطلعه على انحشار الدبلة فيه، تزعق فيه بشقاوةِ طفلةٍ مدلّلة: "ضيّقة!" وفي آخر محاولةٍ ظلّت تحرّك إصبعها الصغير، الذي استقرت فيه الدبلة: "يا خائب! ألا تعرف مقاسي!" وهي تلوّح له بيدها مودّعةً، تتماوج ألوان الطيف من حولها، في إبهارٍ هادئٍ مريح، لتستكين في عينيها. العيون نفسها متعددة الألوان التي يتلهف دائمًا لرؤيتها، منذ أن رآها في طفولته في أعقاب موت أخته الرضيعة، تردّ على عدم تصديقه، وقبل أن تغطس: "حقيقي، حقيقي."

وهمد دفتر الجهاز

نظيرة تعنّف أباها: "أنت لا تنتقي سوى المحلات العتيقة، لتشتري لي الأصناف الرخيصة." اتهمته بأنّه لا يهتم بها بنفس درجة اهتمامه بأخيها: "حرام عليك يا بابا." أجلسها الرجل بجواره، وكان جاهزًا بالدفتر الذي يدون فيه المشتريات، والمبالغ التي أنفقها حتى هذه اللحظة على جهازها، قرأ عليها ما تم شراؤه، وراح يدوّن باهتمامٍ واستغراقٍ الأشياءَ المتبقّية، والميزانية المخصّصة لها. عيناها تتابعان الأرقام، تُبدي تبرّمها: "حرام! حرام!" تحثه مع كلّ زيادةٍ للأرقام أن يزيد أكثر، يتأرجح القلم في يده، يتردّد في تمزيق الدفتر، تقول برنّةٍ لائمةٍ وكأنّها تذكّره بشيءٍ نسيه: "أنا ابنتك الوحيدة يا بابا!" اختبلت عيناه وهو يجول ببصره في اتجاهاتٍ عديدة، بعد فترة شرود ردّ عليها مؤنّبًا: "مثلما أنت ابنتي الوحيدة، أخوك أيضًا ابني الوحيد، وإن كان أسوأ منك حظًا، فهو ليس واقعيًا مثلك، وليس اجتماعيًا، بدون عملٍ ثابت، وبدون زواج، وبدون مستقبل، وربّما يحتاجني أكثر منك." ترد عليه: "هو رجل يا بابا، جهزني الأول كما يجب، وبعدها فكّر فيه." يرد عليها مصدومًا: "وهل هناك ما يشغل تفكيري غيركم! طول عمري أفكّر فيكم، وطول عمري عايش ليكم." تقول نظيرة بسرعةٍ وبتلقائيةٍ غريبة: "يا بابا أنت مش حتعيش لينا على طول." سقط القلم من يده، ومات الدفتر على حجره.

كان يامن مُمددًا على أرض حجرته، وجدالهما يصله من مكانهما في الصالة، ظل يخبط الأرضية بقبضته حتى شعر بنبضات التنميل تدق في رأسه، سمع بعدها قرقعةً في الأرض، أعقبتها هزّة، انتفض بوثبةٍ مذعورةٍ، كادت رأسه تشج في السقف من عنفوانها، فتح الباب بسرعة، خرج إليهما في الصالة بملابسه الداخلية، أحس بالأرض تتزلزّل من تحته، ولكن لا شيء يتحرك من مكانه، فقط رأى أباه وهو يرتجف من القهر، يفقد اتّزانه، يتخبّط في قطع الأثاث الثقيلة، جرى إليه، مدّ يده يسنده قبل أن يسقط، أراحه على الأريكة، تطلّع إلى الرجل الذي طالما رعده بنظرة، لسانه منعقدًا وشفتيه جافتين، عيناه مغرورقتان بحزنٍ مطمورٍ في ثنايا الجفون، أغلّه منظره البائس، لا يقدر على رؤيته متهالكًا هكذا بضمور. شحن يامن كل غضبه في حملقة سددها إلى نظيرة، التي لبثت صامتة تتابع ما يجري، بدون أن يهتز لها طرف، وبدون أن تعكس سحنتها أي انفعال، ود لويشدها من شعرها المنساب بوحشية على كتفيها، لكم أغاظه جمالها الشاحب الغريب وعينيها الماكرتين، ألقى نظرة سريعة على أبيه وجده يحمل جثته، وينسحب ببطء في اتجاه حجرته. هب في وجهها مهتاجًا: "هل أنت جماد؟! صنم؟!" زعقت فيه: "وفر كلامك المخبول." صرخ فيها: "يا قاتلة، ما الذي فعلتيه بأبيك؟!" ردّت عليه في هدوءٍ واثق: "أنت الذي تقتله وليس أنا، على الأقل أنا أراعي شعوره، وأحترّم كلامه أكثر منك، اسأله!" كانت تجلس بساقين متقاطعين، فردتهما مع صدرها، فتحت فمها على سعته في محاولة فاشلة للتثاؤب، وكأنّها تحاكي قطتها. قال مغتاظًا: "تهزّين ذيلك في انتشاءٍ كلبيّ، وكأنّك على حق." انتفضت واقفة، قالت بغل: "لم لسانك، وإلا قطعته." خلع فانلته بعنف،

كوّرها في يده، ألقى بها في وجهها، تلقفتها وقذفته بها، وهي تزعق فيه: "أنت كائن لا تطاق، ميسا عندها حق أن تقطع علاقتها بك." انفتح باب الشقة، دخلت الأم عليهما، وقفت وسطهما ذاهلة، كتفاها مشدودان إلى الأرض تحت ثقل حملها، حررت كتفيها، بارتطامة ثقيلة للأشياء التي كانت تحملها، عيناها لا تستقران على أي منهما، انشغل ذهنها في استحضار مثل يناسب الموقف، وكعادتها، وعندما لا تسعفها الذاكرة بالنص، تقوم على الفور بتحويره، وجدت نفسها تقول من بين تنهيدة هامدة: "يا عيال حرام عليكم. إذا دخل الشرمن الباب، بيطير الخير من الشباك."

انتروبيا

بعد أن أعاد التاكسي إلى صاحبه، بدأ دورة جديدة في البحث عن عمل، عندما رجع مع غروب الشمس، وجد في انتظاره ثلاثة مظاريف فوق مائدة الطعام، فض مظروفَ أبيه ليجد بداخله الراتب الذي يمنحه له كإعانة بطالة شهرية، وهو يمسك بالنقود، تمثل الرجل كبنك بيتي، يصرف ماهيات شهرية له ولأخته، ولأمه، هذا بالعلاوة على ميزانية البيت، أما الرسالة التي فضّها من مظروف أخته فكانت مطوّلة، ليكتشف أنّها ليست رسالتها وحدها، ولكن ميسا أكملت النصف السفلي من الصفحة. كتبت نظيرة تعدّد له أسباب تركهم البيت له، ليس إلا من أجل أن يعلنوا احتجاجهم على تصرفاته غير المنطقية، تغيظه بإعلامه بفرحتها بصحبة ميسا، لتقضيا معًا بضعة أيام في أحد المنتجعات بالبحر الأحمر، وميسا كتبت تقول بأنّها تفكر فيه بشجنٍ وحزن، وأنّها لا تستطيع ولا ترغب في الكف عن التفكير فيه. يخشى أن يصدقها، وهو لا يعرف كيف يعيدها إلى حظيرته، بينما تأثير أخته عليها ورغبتها في الاستئثار بها، تشتّد أكثر فأكثر؟! وداخل مظروف أمه ورقة تنصحه فيها بالذهاب إلى البلد لزيارة خالته فهيمة والاطمئنان عليها، ثم ذكرت له أصناف الطعام، والأواني المحفوظة فيها في الثلاجة، وأخبرته بأنّها أخيرًا ستزور شرم الشيخ في رحلة خمسة أيام، أربع ليالٍ مع أبيه. توقف كثيرًا

أمام رسالة الأم، يتملى في خط يدها غير المهندم، يسترجع في شجن موجوع خروجاتهما السرّية مع أبيه، ربما يتردّدان فيها على مستشفى أو عيادة، يحدس ذلك من أكياس الأدوية التي يرجعان بها، من منهما المريض؟ لا يرد أي منهما على أسئلةٍ تتعلق بصحتهما، وهو يتعمد ألا يلح، ممتنًا في دواخله لحجبهما الحقيقة عنه.

قبل أن يخلد إلى النوم، قضى بضع ساعات يقرأ موضوعًا عن نشأة الكون والانفجار العظيم، لازمته الصور في نومه، انتفض من الفزع في الفجر، عندما لدغت أذنه سخونةٌ لزجةٌ، مرعوبًا تحسس أجزاء جسده، تنفس بارتياح عندما وجد نفسه لم يتبلور، بحذرٍ شديدٍ نهض من فراشه، أضاء النور، صرخ مأخوذًا من اللون الأحمر القاني الذي اصطبغت به الملاءة، أي عضوٍ ينزف فيه؟! كل جسده اكتّسى بالحمرة، لم يكن دمًا، ولكنّه مجرد لون، ولكن لماذا اصطبغ كل ما في الحجرة بهذا اللون؟! ليس هذا فقط هو الجديد، ولكن كل ما حوله قد أصابته لوثة التحوّل، ملابسه ملقاة على الأرض، نباتات الظل المعمّرة تساقطت كلّ أوراقها، الشقوق في الأرض آخذةٌ في الانتشار، وعلى حافة النافذة تناثر كمٌ هائل من ريش طائره الذي خلعه وتركه له، يستعيد ذكرى آخر مرةٍ رآه فيها بعد غيبةٍ طويلة، بدا وكأنّه جاء ليودّعه، كان حزينًا، ومصابًا، يقف مرتعشًا على قدمٍ واحدة، وعندما طار، شعر من رفرفته المعافِرة بجناحٍ واحد، أن الجناح الآخر قد انكّسر.

جلس على حافة السرير برغبةٍ عارمةٍ في البكاء، ولكنّه بدلًا من أن يبكي، فكّر في الرحيل، ولماذا لا يرحل هو الآخر؟! يفكر بأن الرحيل وهو

على قيد الحياة، أفضل ألف مرة من الرحيل غدرًا، أو بخيانةٍ قدرية مثلما حدث مع أخته الرضيعة. أنعشته الفكرة، مارس طقوس ما بعد اليقظة بشهيةٍ وحماس، مدّ يده وجذب إحدى الحقائب من بين الهرم الذي ظل يبنيه طوال سنوات دراسته الجامعية، اختلّ توازن الحقائب، تداعى الترتيب الهرمي لها، تبعثر بعضها بعد أن انفلت من صفّه. لم يحمل إلا ما لا يمكن الاستغناء عنه، وكأن أهمها كتاب عن ستيفن هوكنج عبقري الثقوب السوداء، وكتاب في الفلك، وكتاب في علم البلورات في الجيولوجيا، ومجموعة مقالات عن الانتروبيا، هذا بالعلاوة على الدفتر الذي يدوّن في نصفه الأول ملاحظاته عما جرى في الفضاء، وعما يجري تحت سطح الأرض، وفي نصفه الثاني ملاحظاته الخاصة عن نفسه وعما يدور حوله، عن رغبته في أن يكون مفيدًا، بمثلما كان الرجل الذي كتب لافتته، ومات، كتب يعلّق على هذا المشهد: "كان حقيقيًا جدًا، وحتى لو كان توهمًا، ستظل الصورة التي رأيته عليها ماثلة في ذهني، كنت أجري معها عاريًا، وكان هذا بالتأكيد الجانب غير الحقيقي من المشهد كله، بدا معدومًا، بثيابٍ مهلهّلة، لم يخرج من كلّ حياته على الأرض إلا بتلك اللافتة التي رقدت بجواره، كان مكتوبًا عليها "تحابّوا قبل أن تتبلوروا" وما كتبه الرجل يعطي انطباعًا بأنّه قد جاءه اليقين بقرب انبثاق الصخور المنصهرة من باطن الأرض، وبحتمية التبلور."

علّق حقيبته على كتفه، فتح باب الشقة وخرج، وجد الظلمة أبشع من أن يستطيع التحرك خلالها، والنعاس ما زال يشاغله، لن يرجع إلى حجرته التي هرب منها، صعد إلى سطح بيتهم ليريح رأسه، كان الظلام يتبدد بالتدريج مع صعوده السلم، وعند الدرجة الأخيرة وقبل أن يخطو إلى

الداخل، رأى مصابيح الضوء الأحمر، وما ظنّه دمًا على فراشه، وعلى ملابسه، ليس إلا أشعتها التي صبغت كلّ شيءٍ بالحمرة. التواتر السريع لمثل هذه المواقف، التي تُترجم فيها أفكاره إلى مشاهد مُعاشة كاملة تستحق أن يتوقف كثيرًا أمامها، دائمًا ما يؤجّل ذلك، ربما إلى حين يزور خالته التي لم يرها منذ سنين طويلة، هي الوحيدة التي تفهمه بمجرد أن تقرأ شفتيه.

أخذ يسترجع مشهد صاحبة الشركة الوهمية بجسدها العاري وهو يجري معها، يسائل نفسه كيف كانت حالته العقلية لحظتها؟! كما لو كان مُخدّرًا، مُنتَزَعًا تمامًا من أي تفكيرٍ وأي رغباتٍ حسّية، التفاصيل قاتمة، واليقين مغبّش، ربما بسبب صدمة اللامعقول، ففي هوجة الصدمة، وتسارع الصور على نحو ملتّبسٍ بدون رابط، تُصاب كلّ المعايير بالشلل؛ إذ من المحتّمل جدًا ألا يكون الرجل الراقد بجوار اللافتة هو كاتبها، ومن الجائز أن يكون في ذهن كاتبها شيئًا آخرغير ما فهمه منها، ومن غير المستبعد أن شططًا أصاب خياله، وأنه لم يكن هناك رجل، ولا لافتة، ولكن كل هذه السلسلة من الجائز والمحتّمل والربما، لا تنعكس بأي حالٍ على الفتاة صاحبة الشركة الوهمية، التي لا يساوره شك في وجودها، فقط تحيره مواقفها الغامضة منه، سوف يعلّق حكمه على كلّ ما يشاهده، حتّى تكتّمل فكرته حول ما يجري في باطن الأرض، خاصة بعد زيادة وتيرة الوشيش يومًا بعد يوم، وبعد أن استشعر اقتراب اللهيب من السطح، وهي كلّها دلالات تستوجب الانتباه، ولفت النظر. وفي كل الأحوال، ومهما كانت النتائج، سيظل يدرّب نفسه على ألّا تكدّره حقيقة أن لخياله هذه القدرة على التجسيد، بل على العكس سيزيده هذا ثقةً بتعدد إمكانياته، بل والانبهار بها.

بمجرد أن لامست قدماه سطح البيت، لاح له في الضوء الذي بدا شحيحًا شبح شخصين ممدّدين على الأرض، يتوسّد أحدهما حقيبةً أكثر انتفاخًا من حقيبته، والآخر يتوسّد حقيبةً أصغر، وكلّما تقدّم خطوةً وجد آخرين، رؤوسهم على حقائبهم، كاد يتعثّر في أحدهم وهو يبحث لنفسه عن ركنٍ بعيدٍ عنهم، أدرك من صحبة النائمين بجواره أنّ هناك آخرين غيره مثله، الوقت صيف، ونسمة الهواء الباردة معبّقةٌ بالشجن، جسده منبسطٌ على أرض السطح، عيناه تفتشان في السماء عن الثقوب السوداء، أين هي؟! في حقيبته، تحت رأسه، ستيفن هوكنج عبقري الفيزياء الكونية، الرجل الذي استحال إلى محض عقل، بعد أن تداعى جسده تمامًا، سيظل يحمله معه أينما ذهب. لكن، أين تلك الثقوب السوداء التي قال عنها الرجل بأنّها ثقوب في ثوب الزمان، وبأنها بمثابة مكانس شفّاطة كونية؟ يود لو يستعير فكرة الشفّاطة الكونية، ليضمّنها أحد أبحاثه المهمة عن إعادة برمجة العالم. مع تكرار اغماضة عينه وفتحها، وفي لحظةِ زمن خاطفة، تداخلت كل أضواء السماء في حركة حلزونية سريعة نحو الداخل، وبدت السماء وكأنّها تعد المسرح لشيء لا يعرف كنهه.

لم يغمض له جفن، ومن رقدته رآهم يغادرون، واحدًا بعد الآخر، كانوا فرادى، لا يعرف أحدهم الآخر، خبطت قدم آخر واحدٍ فيهم في ساقه، اعتذر له بابتسامةٍ واهنة، سأله مداعبًا: "الأخ انتروبي؟!" التفت إليه الشاب التفاتةً سريعةً متأمّلة، اتسعت ابتسامته، أكمل سيره بدون أن يعلّق.

البراح وما يحدث فوق

في الشارع، وليس بعيدًا عن البيت الذي تركه، غاب عن نفسه وعمّا يدورمن حوله، مشدودًا ببصره إلى التبدلات المذهلة التي ما زالت تجري فوق، كيف وفي ضوء النهار يتبدّى هذا التشكيل الغازي المهيب مصطبغًا بكل الألوان؟! نسي أنّه رفع يده ليوقف التاكسي الذي لمحه خاليًا، نسي أن عليه أن يلحق بالقطار ليصل في الموعد المحدّد لمقابلة قريبه الذي يعمل في ميناء الإسكندرية.

لم يفق من ذهوله إلاعندما سمع صوت سائق التاكسي الذي أشار إليه بالوقوف: "اركب يا أستاذ." أشار بيده إلى فوق، طلب من السائق أن يشاركه النظر إلى ما تستعرضه السماء من غرائب، وكان التشكيل الغازي قد بدأ يخترق السماء، بعنفوان حركته الحلزونية ردّعليه السائق بشيءٍ من نفاذ الصبر: "يا أستاذ اركب وخلّصني." نقل بصره بين السائق الذي يستحثه بصوتٍ مزمجر على الركوب، وبين السماء التي تشده بخيوطها الحريرية، ألقى بنفسه إلى داخل التاكسي، وضع حقيبته الصغيرة بجواره، كان لا يزال واقعًا تحت تأثير خدر ما يدور فوق رأسه، قال لنفسه وهو يفتّش بعينه في كل الاتجاهات: "لن تختفي السماء على أية حال، والظاهرة لو لم تدم طويلًا، سوف تُخلّف بالتأكيد أثرًا لن يزول!" يحاول عبثًا أن يجد منفذًا إلى الأفق

الذي يتوارى وراء البنايات، بالتأكيد ليس إلى زوال، قال في نفسه ربما تكون مجرد سحابةٍ بالغَ خيالُه المشوّش في تجسيد شكلها، مثلما بالغ في تجسيد اللون الأحمر الذي اتضح أنّه لم يكن إلا لونًا تسرب من مصابيح حمراء.

في المقعد الخلفي الذي يحتّله هو وحقيبته، راح يتزحزح من مكانه متنقلًا من جانبٍ إلى جانب، يدير رأسه في كل الاتجاهات، يميلها، ويعدلها، لكن سقف العربة والمباني تقف كلّها حائلًا دون رؤيته للسماء بوضوح، في حركةٍ فجائيةٍ توقفت العربة، بالكاد تفادت الاصطدام بعربةٍ أمامها، لتبدأ مشادّة حادةٌ بين سائقي العربتين. اصطدم خياله المنشغل بما يجري فوق، بما يجري أمام عينيه، لماذا يتعاركان؟!

في المرآة الأمامية، التقت عيناه في نظرة خاطفة بعينَي السائق، وجده يغمغم في تأفف، لا يزال الرجل في نطاق المزاج العدواني الذي خلّفه العراك، يود لويتبادل معه الحديث، ولكن نظرته غيرالودودة لا تشجّع على الكلام، لا يهم، لن يراه مرةً أخرى، كما أنه لم يره أبدًا من قبل، تسلى بالفكرة، لن يراه مرة أخرى، ولم يره من قبل، لن يرى هذه الفتاة الجميلة البسيطة جدًا، التي تقاطعت عيناه مع عينيها في نظرة ساهمة متسائلة وغامضة، أثناء وقوف العربة في الإشارة، ولن يرى هذا الرجل الغلبان الذي وقف يشد شعره معاقبًا نفسه لأنّه لم يلحق بالأتوبيس، ولا حتى هذا الصبي الجربان الذي انتُهِكت كلّ بقعة في جسده من عناء التشرد، وربما لن يتكرر أبدا مشهد هؤلاء الأطفال الذين يزحفون على بطونهم تحت الكباري، يتمرغون في النفايات، يرشقون بها بعضهم البعض، ويتضاحكون.

وجد نفسه وكأنّه يعاني من سكرات الموت، يتخبط بين ما يحدث في السماء وما يجري على الأرض، يمر بشريطٌ شديد الطول والتعقيد، يحوي كلَّ أصناف البشر الذين ألقت الصدفة بهم في طريقه، في الأتوبيس، في القطار، في الشارع، في السوبر ماركت، يراهم لأول ولآخر مرة، كل الصور تتدافع، وهو يشاهدهم في مواقف معيّنة، في نظرات عابرة، مغيظة، أو آسرة، في كلمات خاطفة، جارحة، أو موحية، كلّه يتبعثر ويتطاير في الهواء، تتبدد الصور، والأصوات، والجمل المبتّسرة، كان مندهشًا وحزينًا، تصطخب كلّ هذه الأفكار في ذهنه، وهو يغادر القاهرة، ليجرّب حظه مع السفن في ميناء الإسكندرية بدعوة من قريب له يعمل هناك. توقّفت العربة في ميدان مكشوف، رجع إلى السماء، أمعن النظر في الكتلة الغازية الملونة، وجدها اتخذت شكلًا حلزونيًا فريدًا، حدس من حركتها الدوّامية العنيفة إلى الأعماق، بأنها الثقب الأسود، هل يحلم! برغبة عارمة في المشاركة، لمس كتف السائق، أشار إلى فوق قائلًا بحماس وبنبرة عدم تصديق: "معجزة!" نهره السائق وهو يوبّخه بنصف لفتة غاضبة: "وحياة أبوك، لا تُطِر النصف الباقي من دماغي، ولا تشغلني عن الطريق." ارتبك يامن في مقعده، وهو يقاوم رغبةً في النزول، يكتم صرخةً تعافر أن تنطلق ليشد انتباه كلّ الناس إلى ما يجري فوق. وهل هناك ما هو أهم من هذه الظاهرة الكونية المذهلة؟! لا يمكن أن يكون هو وحده المعني بما يشاهده يجري فوق رؤوس الجميع، لا يمكن أن يكون هو وحده الذي يراه! وما يراه ليس من تلك الأمور التي يتكتمها، مستغلًا الإشارة والبراح حاول مرةً أخرى مع السائق: "أستسمحك، نظرة لفوق." بعد استرقاقة خاطفة إلى فوق، ردّ عليه السائق

باقتضاب: "ربما تمطر، لكن صعب في هذا الوقت." فرح بردّه، حاول أن يشد انتباهه أكثر: "المسألة أكثر من مطر، ألا تلاحظ الدوامات الشافطة؟!" بدلًا من أن يتّجه ببصره إلى السماء، استدار السائق بوجهه المتجهم ناحيته، وكما لو كان متحفزًا لضربه بخّ فيه: "دوامات ايه؟! وشفط ايه؟! وهباب ايه؟! إنت لمؤاخذة ضارب حقنة أو شامم حاجة؟!" فكّر قليلًا، بلع الإهانة، وسكت. من خلال نافذة العربة، التي فتحها عن آخرها، راح يلتقط بنظرات عابرة صورالحياة في الشارع، وهي تسير بوتيرتها المعتادة. أمرٌ جلل يجري فوق رؤوسهم، دون أن يلحظه أحد، ولم يشهد أي ملمح للذهول على الوجوه، حتى المستلقين على ظهورهم فوق الأرصفة، وبجوار القمامة، أو تحت الكباري، في أحضان البواقي والفضلات، يغطون أعينهم بأياديهم، وهم يسكنون إلى ظلامهم الداخلي، غافلون عمّا يجري تحتهم، فما أدراهم بما يجري فوقهم! متعبون، حائرون، عيونهم إمّا زائغة، أو ملتّصقة إلى موطئ أقدامهم، سحنهم رمادية، بلون التراب، بلون المباني، وبلون أرديتهم الباهتة، لم يتمالك نفسه من الانفعال، زعق في السائق: "شايف إللي بيحصل في السما؟!" في التفاتة سريعة رماه السائق بنظرة قاسية غاضبة قائلًا في سخط: "توصيلة ايه الهباب دي!" حجم الغلّ المضمر في رنة الصوت جعلته يبلع الإهانة ويسكت.

وهو يحاسب السائق، ومضت في رأسه حقيقة أنّه لن يراه مرةً أخرى، ربما طيلة حياته، فليس أقل من أن يترك لديه انطباعًا طيبًا، ضاعف له الأجرة.

أول وآخر مرة

كان لا يزال مرتابًا في حقيقة ما رآه، عندما دخل بوفيه المحطة، لينتظر قطار الإسكندرية. من النظرة الأولى، بدا المكان وكأنّه ممتلئ عن آخره، ولكنّه ما لبث أن تنبّه إلى أنّه ليس إلا انطباعًا خاطئًا؛ لضيق المكان وكثرة الأمتعة. رهاب الاختناق في حيز مكتوم، جعله يختار مكانًا بجوار الواجهة الزجاجية، ربّما يرى البراح وما يحدث فوق. عندما جلس، اكتّشف أن سقف المحطة يحجب السماء. جال ببصره في المكان، رأى الرّكّاب منشغلين بتصفّح جرائدهم، أو يتلهّون بإعادة فحص محتويات حقائبهم، أو يسترقون النظر بعضهم إلى بعض، لم يبد على أي منهم أية بادرة تأثّر، أو دلالة دهشة يستدل منها على أنّهم رأوا ما رآه. فوجئ بها تجلس إلى المنضدة بجواره، ما إن وقع بصره عليها حتّى ومضت كلّ أحاسيسه.، تململت قليلًا عندما شعرت به يحدّق فيها، استبشر حين لمح شبح ابتسامة طيبة على وجهها، وهي تطرق برأسها خجلًا، ساءل نفسه إذا ما كانت قد حدست التشابه الغريب بينهما، كانت ملامحها تشبه ملامحه إلى حد كبير، العيون المندهشة الحالمة نفسها، وكذلك الخطوط الدقيقة الحزينة تحت جفنيها، وبدت مثله في حالة انتظار، وبجوارها حقيبتها الصغيرة، شعر بأنّ هناك قاسمًا مشتركًا بينهما، ربما تكون رأت ما رآه! ربما بداخل رأسها الأفكار نفسها! سألها مباشرة:

"مسافرة اسكندرية؟" لم تبد أدنى دهشة للسؤال. بنظرة محايدة، راحت تتأمّله بهدوء صامت، لم تجد في نظراته ما يدعو للتوجّس، أو الحذر، أو الخوف، شعرت بأنّه ليس هذا الصنف المنفّر من الشباب، الذي يتوارى وراء حديث مفتّعل، لمجرد الرغبة في التحدث مع أنثى، ردّت: "مسافرة الأقصر." بدت علامات الدهشة والفرحة على وجهه، ردّد اسم المكان: "الأقصر! الأقصر!" أكمل بفرحة: "أنت مثلي صعيدية!" لم يوضّح لها أن الأقصر ليست هي وجهته، إلاعندما سألته بنوع من الفضول: "تعمل هناك؟" قال بسعادة: "أنا من مواليد إحدى قرى الأقصر." ردّت بزهو مبتهج: "وأنا أيضًا." يكاد يطير ذاهلًا من حلاوة هذا اللقاء الذي لم يخطط له مسبقًا، تبادلا حديثًا طويلًا عن تلك المدينة التي لا مثيل لها على كوكب الأرض، عن السياح، وعن عربات الحنطور، والبر الغربي، والبالونات التي استحدثوها، عن الوجوه الفرعونية، وعن خيبة الأحفاد، عقدا مقارنةً بين الأقصر المتحف المفتوح، الذي يحرس الأجداد معابدها، والقاهرة في استكانتها البريئة لكل أصناف الانتهاكات، قالت معلّقة: "ولكنني مع ذلك أعشق وسط البلد، خاصةً روائحها المثيرة للشهية، الطعمية، والكشري، والشاورمة والبن." رد عليها ممازحًا: "وأنا أعشق بنات وسط البلد." فوجئ بها تشاركه الضحك، شجعه هذا على التبسّط أكثر، يخلط الجد بالهذر، وهما يتحدّثان عن الموت، وعن الخلود، ما قبل الموت، وما بعده، وأشياء لم يكن يحلم بأن يأتي اليوم الذي يجد فيه الإنسانة التي يستطيع معها أن يتآلف بمثل هذا العمق، وهذه التلقائية، أسرته بحسّها الراقي في تمييز مواضع الجد ومواضع الهذر في كلامه، يتذوق نوعًا نادرًا من التوافق لم يحظ بمثله مع ميسا الجادّة البريئة، يتكلمان

ويتضاحكان بدون توقف، تذوب ضحكاتهما في لغط وصخب الهمهمات والضجيج من حولهما، سمات رئيسية لبوفيه محطة مكتوم، ومكتّظ بالمسافرين، كان الإشعاع العذب لوجهها قد بدّد رهاب الاختناق، ونظّف روحه من الهموم، يا سلام لو يكسر القاعدة ويراها مرةً أخرى! تملّكته رغبة عارمة في قتل الوقت، أو على الأقل يثبّته عند هذه اللحظة، لا يهمه أن يفوته القطار، فرحيله ليس من أجل أي هدف محدّد، نسى كل شيء في غمرة تركيز كلّ اهتمامه عليها، ولكن عندما نظرت إلى ساعتها، انقّبض صدره، داهمه حزنٌ مُر المذاق، عندما بدأت تنحني بهدوء لترفع حقيبتها، نهضت متباطئة، وكأنّها لا تتعجل المغادرة، نهض معها كالمنوّم، وكالمنوّم لم يحمل معه حقيبته، سار بجوارها لتوصيلها حتى الرصيف، تبادلا نظرات وداع تغني عن أي كلام، وعن أي مصافحة. تركته ذاهلًا يفكّر في الرسالة التي مرّرتها إليه في رجاء أخير، طلبت منه وهي تصعد القطار، أن يتحرك حتى نهاية الرصيف، حيث السماء مكشوفة، يلقي نظرةً إلى فوق: "أنا على ثقة بأنّك الوحيد الذي سوف ترى ما رأيته." تجمّدت الكلمات في حلقه وهو يتابعها تلوّح له بيدها أثناء حركة القطار، لتختّفي بعد ذلك، أخذ يلعن في سرّه، الفكرة التي تسلطت على ذهنه بأنّها أول مرة وآخر مرة يراها فيها، وجعلته لا يهتّم بأن يأخذ رقم تليفونها. عملًا بوصيتها مشى حتى يصل إلى نهاية الرصيف، توقّف فجأةً عندما شعر بالتنميل في رأسه، وبالأرض تتحرك تحت قدميه، سرت في جسده قشعريرة برد لاسعة، وهو يرى بكل جلاء الزحف المقدّس للثقب الأسود، وقد حطّ بكلّ عنفوان دواماته الأبدية على رصيف المحطة، أخذ يتابع بذهول فوهته الشافطة، تنقبض وتنبسط في حركة لولبية إلى الداخل،

تشفط، وتقتّلع كلّ ما يصادفها، تنازَعَه إحساسٌ بالرهبة والإثارة وهو يراه يزحف في اتجاهه، تسمّر في مكانه، زمّ شفتيه وأغلقهما بإحكام حتى لا يسمعهما وهما تصطّكان من الهلع، ومن النشوة، ومن البرد، رعب منتش، الرعب المنتشي نفسه الذي عاشه في الميدان، مزهوًا بشجاعته فيما يواجهه، يود لو يطلق تلك الصرخة التي أطلقها في صاروخ الملاهي وهو طفل، ولماذا لا يطلقها؟! كادت حنجرته أن تتمزق من عنفوان الصرخة، أداخه صوته الهادر، اجتاحه خدر الاستسلام، فليس أمامه وهو في حضرة هذا الفقدان المروع لكل شيء من حوله إلا القبول الجميل بقدرية ما يجري، تأجّج بداخله الشوق للاندماج والتوحد، ليمتزج بكامله مع رهبة الحدث، كلّما ازداد الثقب اقترابًا منه، ازدادت رغبته في الارتماء في فوهته، شدّ قامته أكثر وهو يتأهب للعناق الأخير. ليس فقط معه، ولكن ويا للفرحة! معها وهي بداخله، سوف يجدها، وباللهفة نفسها، سوف تعانقه، وتتوحّد معه، للأبد، للأبد.

وكانت في انتظاره

مشى حتى نهاية الرصيف، كان مزدحمًا بالناس، رفع رأسه إلى السماء وجدها بكلّ الدرجات الرمادية، رمادي فاتح، رمادي غامق، رمادي أصفر، ورمادي أسود. تحسّس الجزء من كتفه الذي يعلّق به حقيبته، فلم يجدها، أسرع عائدًا إلى بوفيه المحطّة، وجد الحقيبة في مكانها، وكوب الشاي الذي لم يشربه على المنضدة وعلى حافته ذبابة، هشّها، انحنى يلتّقط حقيبته، علّقها على كتفه، نادى على النادل، بعد أن دفع الحساب، واستدار، وجدها أمامه، هي نفسها بخصلة شعرها الحمراء،

دهشته وفرحته برؤيتها ألجمتاه، بادرته بالسؤال: "لماذا تجاهلتني؟" ارتبك: " لم أتجاهلك أنا فرِحٌ برؤيتك."

- لا أحدّثك عن الآن، ولكن عند بداية دخولك البوفيه.

- لم أرك.

- ولكنك كنت تحدّق فيَّ طوال الوقت، وفجأة تركت المكان وخرجت إلى الرصيف ونسيت حقيبّتك.

- أنا!

- نعم أنت، كيف كانت الشطحة؟

- هل تقرأين الشفاة مثل خالتي! كيف خمّنت أنني شطحت؟
- واضح، لا يحتاج الأمر لذكاء، كيف كانت؟
- كانت من النوع الحلو جدًا.
- جدًا.
- جدًا.

تشاركا في ضحكة طويلة قطعها بالنظر إلى ساعته: "لقد أزف الموعد."

غادرا معًا بوفيه المحطة، سألته وهي تتحسّس حقيبته: "إلى أين أنت ذاهب بهمومك الصغيرة؟" ضحك: "همومي فعلًا صغيرة." قالت ويدها ما تزال على حقيبته: "ما الذي تحمله معك؟" ربت على الحقيبة: "كتب." قالت: "القراءة على شاطئ البحر متعة." ابتسم إعجابًا برنّة الخبث في كلامها: "القراءة داخل البحر أكثر إمتاعًا."

- داخل البحر؟! تُبحر أم تنتحر؟
- أبحر، لا أفكر أبدًا في الانتحار. الحياة وجدت لكي نحياها.
- ألم تولد شيخًا حزينًا!
- تخمينك مضبوط، لكنّني أدرّب نفسي على أن أكون شابًا سعيدًا.
- رائع.. رائع.. لن تجد أفضل من هذه الحياة. هل ستفتقدني؟
- من يدري.
- لا تراوغني، هل ستفتقدني؟

- نعم، للأسف.
- ولماذا الأسف؟
- لأني أرحل بعيدًا عنك لكي أنساك، وأنسى ما حدث لي في وجودك، وأنسى شركتك الوهمية.
- أتريد أن تعيد برمجة نفسك؟
- بالضبط.

الترحال

تصخب في ذهنه كلمات أبيه الرنّانة: "غيّر حياتك إن لم تعجبك، وإذا غيّرتها ولم تعجبك، غيّرها مرةً أخرى، وثالثة، ورابعة، وإذا ظلّت لم تعجبك أتركها لغيرك وارحل." لم يره أبدًا يفعل ما ينصحه به، لم ينتحر، ولم يبدّل شيئًا في حياته التي لم تكن تسير إلا بفعل التيار، يجرفه من العاصمة إلى الريف، إلى العاصمة، ومن القاهرة ألقى به التيار إلى دولة خليجية في ذات الوظيفة التي لم يغيّرها، في الشقة التي لم تغادر مكانها في الدور الأرضي، وبالجدال الذي لا ينتهي مع أمّه بالوتيرة نفسها، لاشيء يتغيّر، ولا شيء يتقدّم، وهو لهذا قرّر الإبحار، فكّر في البحر، ليس ليلقي بنفسه فيه، أو لينحشر مع زمرة البائسين داخل مركب انتحاري، فهو ليس عنده من الحيثيات ما يحتّج به على العالم، خاصةً بعد أن أيقن بأنّ عليه أن يقبله كما هو عليه، لا يكره الحياة، ولا يخاصم الوجود، كما أنّه ليس هذا النوع الذي يدفعه يأسه للاستهانة بكلّ ما يحيط به من ألغاز، بل إنَّ نهمه للعيش، يجعله يطمع في أكثرمن حياة؛ حتى يفك شفرة وجوده، وحتّى لا يقضي الصهير على أحلامه، يحاول طرق مسالك جديدة ربّما بتوقعات جديدة، بولادة جديدة يحارب بها شيخوخته المعيقة التي لسبب غريب، ومن حيث لا يدري، صدّرتها له خالته فهيمة، فهو لم يزل شابًا في مقتّبل العمر، ومن أجل هذا

رحّب بدعوة قريبه الذي يعمل في الميناء، وقد وعده بأن يجد له وظيفةً على متن إحدى الحاويات التي يعرف قبطانها، والتي تتردّد على الميناء لحمل بضائع، أو لتفريغ بضائع.

ولكن لماذا وهو وسط عوالم دائبة الحركة، تلاحقه لعنة الركود؟! حتى في إبحاره، لا شيء يتحرّك إلا صور حملها معه من البر.

على متن الحاوية، فوجئ بالحجم الهائل للصناديق المعدنية التي يسمّونها حاويات، والتي من خلالها يتم شحن وتخزين المنتجات والمواد الخام، لنقلها من المصدِّر إلى المستوِّرِد. كان يحدوه الأمل في أن ترسو السفينة فترات كافية في الموانئ التي تزورها، لكي ينزل ويتجوّل ويغامر ويستكشف، وجد نفسه يتحرك بين كتل ضخمة من الصناديق، محشورًا وسط معادن ثقيلة، ومخيفة، بغيضة، ومجهضة لكلّ طموح. محاطًا بنوع غريب من البشر، لم يعتد التعامل معه من قبل، عمال وملّاحين من كل الأجناس، ومن كافّة الأعمار، لم يجد بينهم من يتّخذه صديقًا، كانوا من سوء حظّه على درجة عالية من النذالة، لا تنسجم بأي حال من الأحوال مع الصورة المنطبعة في ذهنه عن الأجانب؛ فكانوا يتركون له الأعمال التي يترفّعون عن أدائها، يغالطونه في عدد ساعات خدمته، وفي الجداول، يوقظونه من النوم في غير ميعاده، ويحتفلون بدون أن يوجّهون إليه دعوة، وبصورة عامة كان العمل شاقًا، بقدر ما يستّلزم مجهودًا عضليًا، يستّلزم الكثير من الغباء، حتى لا يفكر فيما يفعله، يحمل أثقالًا، ويمسح الأوساخ، ويساعد مع الرفاعات والأوناش في الرص والنقل، لم يكن أكثر من عامل شحن وتفريغ. وسط هذا الجو المشحون بتفاعلات غريبة

عليه، كان عليه أن يستحدث أسلحة جديدة، يواجه بها واقعًا جديدًا، وبرغبة أكيدّة في تجنب الخطأ، كان يتحرّك في الحدود التي رسموها له، يحاذر المزالق، ويحرص على ألّا يتجاوز الحدود. في هذا الجو غير الودّي، كان ينسحب إلى عالمه الداخلي الذي يستكين له وقت الشدّة، يستقر هناك فترة زمنية كنوع من الكمون، يحتمل خلالها السخافات من حوله، بأمل أن يحين الوقت لينطّلق من سكونه المطلق، تسريته الوحيدة، قضاءِ بعض الوقت في صالة الجمنيزيوم، يمارس بعض التمرينات الخفيفة، التي تساعده على الاسترخاءِ.

مرّت أيامٌ كثيرة لم يعرف عددها، بعد أن فقد حسّ الوقت، وكان أيضًا قد فقد حِسّ المكان، لأن مجال بصره ظلّ ثابتًا، وهو يرى المياه نفسها من فوق السطح المكشوف لسفينة الحاويات. المشهد بالخارج لا يتغيّر إلا مع التقلبات الجوّية، وما يتبعها من تبدّل في أحوال السماء، وبالداخل تعبت عيناه من التطلّع إلى الصناديق المعدنية التي تجثم على صدره بالليل، وتقتله في النهار. السفينة تبحر، والزمن يبحر، ويظلّ هو في حالة سكون. آخر ما كان يتوقعه وهو متحمّس للرحيل، هذا التوقف المهين، وكأنّه أصيب بسكتّة حياتية.

جزيرة عشوائية

شدّ انتباهه زمجرة معدنية غير عادية، اشتّم بعدها رائحة احتراق، وتبع ذلك حركة قلقة في اتّجاه مقدّمة السفينة، ومؤخرتها. بدا أن عطبًا قد أصاب إحدى المحركات؛ لأنّ الحاوية قد أبطأت من حركتها. انفتحت بوابة خياله عندما رست السفينة على أقرب مرفأ أمان. وهل هناك ما هو أكثر صفاءً وأمانًا من قطعة ساحرة من اليابسة، انفصلت بكائناتها عن الأرض الأم، وأسلمت نفسها لمياه البحر. استدعى من خزينة ذاكرته كل ما تستثيره كلمة جزيرة من خيالات وأساطير، فرح عندما عرف أنّه سوف يُمنح تصريحًا بدخول الجزيرة، يكون له حرية التجوّل فيها، على أن يرجع إلى الحاوية قبل حلول الليل، سوف ينسج أسطورته الخاصة في مكان لا يتعرف فيه على إنسان، ولا يُعرف له اسمًا، بعد جولة صغيرة في محيط الميناء لم يسترشد خلالها على شيء مثير للاهتمام، عرج على مقهى بواجهة بسيطة ومقاعد رخيصة أكلتها الرطوبة، اختار زاوية في المكان غير المسقوف من المقهى وطلب شايًا، وعرف من استنكارالنادل أنهم لا يقدّمون إلا الآيس كريم. وهو يجيل بصره في المكان أيقّن من البريق الباهت والبارد لكلّ ما تقع عيناه عليه، خلو الجزيرة من كلّ ما حلم به. وهو يمشي وجد نفسه تحت رحمة أرض غير مستوية، يصعد معها ويهبط، وسط بيوت خفيضة لا تتعدى الطابقين،

وبجدران مطليّة بالجص، يراها وهو يصعد بأسقف من قرميد محروق، وفي هبوطه يرى الناس على عتباتها بملابس خفيفة بسيطة، يرتقي سلالم حجرية مشطوفة في معظمها، ويدوس على أرض ناتئة في مواضع، وكثيرة التجاعيد في مواضع أخرى. الجزيرة خالية من التراب، وهو الشيء الذي أحبّه في المكان، والذي ترك لديه انطباعًا غريبًا بأن موتاهم يتحلّلون إلى حصى وحجارة. استمر في السير بشوارع وأزقّة ضيقة، ممتلئة بالروائح، مزيج من طهي ومجاري. يمشي وعينه على قدمه ليقلّل من عدد مرات تعثّره في الأحجار، والحصى، والحفر العديدة، وما هو أسوأ في قنوات المجاري التي تجري بمحاذاة البيوت، يرفع رأسه من وقت لآخر، متأمّلًا الوجوه التي لا يستطيع أن يحدّد طبيعة العِرق الذي تنتّمي إليه، خلطة متنافرة من السِحن، بملامح أفريقية وآسيوية، قامات قصيرة، ووجوه شاحبة تفتقد الحيوية في النظرات، يجلسون على ما يحلو لهم من أماكن، فوق الأرصفة، ودرجات السلالم، منشغلين بأنفسهم، ولا يلتّفتون إليه، الأصوات تخرج من حناجر ضيّقة واهنة، والدكاكين صغيرة فقيرة في محتوياتها، أصحابها بالداخل يجلسون على منصّات مرتفعة، والبضائع تحت أقدامهم. استمر في المشي، بلا رغبة في التوقّف أو العودة، تغيّرت ملامح البيوت لتصير أكواخًا بأسقف مائلة من البوص وسعف النخيل، هل ألقى به نحسه إلى جزيرة عشوائية؟ كان مندهشًا للحالة المزرية للأكواخ التي نخرتها الرطوبة، وزحفت النباتات المتسلّقة على جوانبها، وتمشي السحالي والأبراص في أُلفة، في شوارعها، بدأت الرؤوس تتطلّع بفضول، تطل، وتختفي، ثم تعاود الظهور من جديد، وسط ضحكات مكتومة، وأخرى شقية، وهو يستدير ليهرب من منطقة الأكواخ التي تزداد

حقارةً بتوغله فيها، أمسكت يد فتاة صغيرة بيده، تسحبه منها كالأعمى، أسلم لها القياد، وقفت به أمام أحد الأكواخ، بمجرد أن تخلّص من يدها وجد يدًا أخرى تتلقفه، وتسحبه إلى داخل الكوخ، أياد كثيرة تجاذبته، ليتحلّقوا بعد ذلك من حوله، ينشدون، ويرقصون، مهلّلين وفرحين في كرنفال من أثواب بلاستيكية ملوّنة وشفيفة. سدّوا عليه جميع منافذ الخروج، أبقوا بابًا واحدًا مفتوحًا، دفعوه بأياديهم إلى الداخل، وظلوا هم بالخارج، ما رآه امتّص كلّ قطرة دم في عروقه، أصابه الجثمان العاري المسجى على الأرض تحت بصره مباشرة بعدوى همدانه، انسحبت كل حواسه، انحبس صوته، وشُلّت حركته، كان جسدًا يابسًا هامدًا لامرأة عجوز نحرها التغضّن، تهدّمت وترهّلت معالمها بالكراميش، الموت في تجسّده البشع، بما مهّد له من تدهور، وما حصل عليه من فقد كامل لكلّ ملمّح للحياة، الحجرة ضيّقة وفارغة، والضوء الكابي يتسسّل إليها عبر كوات صغيرة تشبه الثقوب في الحائط، فاقدًا الصواب، انطلق صوته المحبوس في انفجارة مدوّية، نجحت في اختراق صخب الأهازيج والأغاني خارج الحجرة، حاول الهروب، لم يفلح في أن يجد ثغرة يخترقهم منها، جرّب أن يعافر، ولكنّه شعر بدهشتهم المستنكرة لعنف محاولته، وحتّى يطمئنوه إلى أنّهم لا يضمرون له أذى، برزت من بين الجمع فتاة حلوة الملامح نطقت بكلمة واحدة بالإنجليزية "dance" أشار إلى ساعته وهو يرد: "للأسف ليس عندي وقت للرقص، لا بد أن ألحق بالسفينة قبل أن تغادر بدوني." ردّت عليه بابتسامة مشجّعة: "لن يستغرق ذلك وقتًا." ترك نفسه لهم، يدورون به في رقصة جماعية بموسيقى يصنعونها بتوزيع مُنغّم لأصواتهم. لم تكن أكثر من دورتين، بعدها، طلبوا منه بأدب شديد أن

يتقدّمهم إلى الداخل، التقت عيناه بعينّي الفتاة التي تعرف الإنجليزية، حاول أن يستفسر منها عمّا ينبغي عمله، ردّت عليه من بين ابتسامة شديدة العذوبة وهي تشير بإصبع دقيقة إلى شفتها السفلى: "kiss." ابتسم وهو يقول مازحًا: "ستفقد القبلة طعمها وسط كلّ تلك العيون الراصدة." ضحكت الفتاة، وعندما قامت بترجمة ما قاله، ضجّ المكان بالضحك حتى أن الملابس البلاستيكية بدأت تقرقع على الأجساد، أمسكته الفتاة من يده وخطت معه إلى داخل الحجرة، وعندما أوصدوا الباب، وجد نفسه هو والفتاة والجثمان، وعندما نظر إلى الفتاة للإيضاح أومأت له برأسها في اتجاه الجثّة، أشار مرةً أخرى إلى ساعته وهو يردّد نفس الأعذار، ردّت الفتاة في اقتضاب: "دقيقة واحدة." ثم أومأت برأسها مرةّ أخرى في اتجاه الجثمان العاري للمرأة العجوز. سألها في حيرة: "ما هو المطلوب مني بالضبط؟" ردّت في ابتسامة باهتة: "kiss." في عينيها تعبيرًا لم يألفه في العيون، تردد في الاستجابة لطلبها، البنت بملامح تفوق في جمالها كل السحن التي مر عليها، ومع ترديدها للكلمة، لم يجد حرجًا في أن يميل بوجهه ليقبّلها، فوجئ بها تتراجع في انتفاضة مذعورة، تشير بيدها إلى الجثمان الممدّد على حصيرة كالحة من سعف النخيل: "هي وليس أنا، هكذا." بركت على قدميها وانحنت على الجثمان، أطبقت شفتيها على شفاة الجثمان، تلتفت إليه وهي لا تزال على وضعها: "هكذا!" انقلبت أمعاؤه عليه، تكوّر في ألم حول نفسه، كتم فمه بإحدى يديه، أدركت الفتاة ما هو مقبل عليه، وحتى لا يلوّث الجو الاحتفالي في الكوخ، ألقوا به ليقئ في الخارج.

أدار ظهره لمنطقة الأكواخ الحقيرة وسار مع انحدار الطريق، نحو البحر.

في اتجاه هبوط المنحدر، ينزل السلالم الحجرية المكسورة، محاذرًا ألا تترك عيناه قدميه؛ ليتجنّب العثرات في الحفر، وفي قنوات المجاري. ظلّ مطمئنًا إلى أنّه يسير في الاتجاه الصحيح، إلى أن جاءت ساحة واسعة، بدت فيها الأرض وقد استوت وتشعبت مسالكها قبل أن تبدأ في الانحدار من جديد في عدة مسارات، ملامح الجزيرة متشابهة في أي اتّجاه منها، وهو ما زال لا يرى البحر. كان هذا هو الوقت الذي ينبغي أن يسأل فيه عن أقرب نقطة للميناء، وقف يتلفت حوله في قلق التائه، يندب حظّه بتنهيدة لا يسمعها أحد سواه، يحادث نفسه بلغته الخاصة، أي مصير تَعِس هذا الذي ينتظره لو تاه، ولو رحلت الحاوية بدونه؟ تملكه رهاب الفقد، ليس معه أية أداة للاتصال، ولا يحمل معه من الأوراق ما يكفي لإثبات هويته، وليس في جيبه من النقود إلا عشرين دولار. حوّل وجهته ليتفادى شخصًا بعين واحدة، والأخرى معكّرة، كان يهذي ويزبد وهو يترنح. استوقف فتاةً صغيرة كانت تحمل عصًا توازنها على كتفها بوعائين ممتلئين بالماء، متدليين على جانبيها، ومثبتًا فيها أجراس تجلجل مع أقل لفتة، سألها بالإنجليزية: "في أي اتجاه الميناء؟" ابتسمت في حيرة من لايفهم، ولم ترد، تركته يتفرّج عليها وهي تتراقص على رجرجة المياه، وعلى نغمات الأجراس. مرّ على رجل ضئيل الحجم بذقن مدبّبة ولحية محنّاة، بصديرية سوداء، وحول وسطه يلف قطعةً من القماش باهتة اللون. وفي طريقه صادف عربة يد، فاضت جوانبها بخضرة كثيفة، مكوّمًا وسط العربة خلطةً غريبةً من الحشرات المقددة، يغرف منها ويملأ بها أطباقًا بلاستيكية، يناولها لمجموعة من الأولاد والبنات تتراوح أعمارهم بين سبع وعشر سنوات، ضلوعهم بارزة تحت جلد صدورهم

العارية، يشبّون على أصابع أقدامهم العارية، وسيقانهم النحيلة تهتزّ في غير استقرار، وقف يتفرج على المشهد، سأل عن "البحر". قفز طفل من بينهم، كان قد التقط الكلمة وفهم معناها، مشى إلى حيث أشار الطفل، ظلّ ينزل سلالمًا، ومنحدرات، حتى لاح له البحر، بجلبة خفيفة للأمواج، فرح برؤيته، تنسّم رائحة الملح، واليود، والأعشاب البحرية، راح يهروّل مندفعًا في طريقه، متلفحًا بلفحة هواء لذيذة في برودتها، حتى وصل إلى الشاطئ. جال ببصره في المكان، ليحدّد موقعه من الميناء، شعر ببعض الراحة لأنه لم يكن بعيدًا، ولأنّه يستطيع قضاء بعض الوقت على الشاطئ. رغب بشدة أن يربح العالم بجانبه، ولو لبعض الوقت، وقف متأمّلًا فوق رماله الخشنة الممتلئة بالأصداف المشطوفة، وبنتف الطحالب وأعشاب البحر المشبعة بالرطوبة. وهو على الشاطئ، يبدو البحر مختلفًا عنه وهو ينساب في أفق بلا شطآن، هل يستّمتع بهذه الخلوة الفريدة من نوعها، أم ينعي حظّه للأيام التي قضاها فوق ظهر الحاوية، دون أن يصادف وجهًا واحدًا ودودًا، لم يجد الاختلاء مع النفس ممتعًا بدون وجه واحد جميل، ولا مايوه واحد، ولا منظر واحد، حتى القوارب الراسية بدت معطّنة، ومهجورة، لم يكن كل هذا ملائمًا أن يختلط الجمال الغامض للطبيعة بوحشة المكان وخوائه. جلس فوق قطعة كبيرة من الحجر المصقول، مبتّلة، لكن غير زلِقَة. استرعى انتباهه سربٌ من الطيور يحلّق على ارتفاع منخفض، تخلّف طائرٌ عن السرب وحطّ فوق صخرة تبعد عنه قليلًا، وجده يشبه الطائر صديقه، لكنَّ ريشه مبرقّشٌ بالأسود. ظلّ الطائر يرمقه بنظرات ثابتة، اعترته قشعريرة رهبة، عندما أصدر الطائر صوتًا كالكلام، ثم ما لبث أن خفق بجناحيه وحلّق مبتعدًا. عاودته القشعريرة وهو

يراه يطوي جناحيه في انسيابية استعراضية، قبل أن يحط على صخرة بعيدة عنه، بدا أنّه اختارها كنقطة انطلاق في اتجاهه، راح يقلّص بالتدريج المسافة بينهما، وهو يقفز من صخرة إلى صخرة، حتّى استّقر على تلك المجاورة له تمامًا. بيقين هادئ مطمئن ظلَّ الطائر يبادله النظرات، لكن عندما لمح السرب الذي كان يتهادى من فوق، ودّعه بخفقات كالذبذبات، ثم لحق بالسرب. تركه الطائر بشحنة معنوية عالية، يشبع بصره بكل ما يحيط به من بحر وأرض وسماء.

لا يصدّق عينيه وهو يراها تتقافز بخفةٍ على الرمل والحصى، كيف اهتدت إلى مكانه؟! ظلّ لفترةٍ طويلةٍ يحدّق فيها، في إعجاب شارد، وهي تقف أمامه شابكةً ذراعيها على صدرها، حافية القدمين، بردائها البلاستيكي الشفيف، الذي يكشف كلّ جسدها. سألته معاتبة: "لماذا لم تقبلها؟" لم يرغب في استعادة ذكرى وجوده معها أمام جثمان العجوز، سألها: "ما إسم هذه الجزيرة؟" وكأنها لم تستوعب السؤال، ضحكت، دارت دورتين في انتشاء مرح، توقفت، وبحركة مباغتة خلعت الرداء البلاستيكي، عقدته من إحدى طرفيه، ظلّت تنفخ فيه حتى صار بحجم بالونة ضخمة، عقدته من الطرف الآخر، أطلقته في الهواء، ظلّ معلقًا، يدور في حيز الهواء حولهما. جلست مقاطعة ساقيها الممددتين، معتمدة بمرفقيها على الحصى والرمال، بارزة صدرها الصغير. هناك دعوة ما، ولكن لأي شيء؟ تكوينها الدقيق البديع، يغري بالتأمل، وليس بالإثارة، طاف ببصره يمسح كلّ تكويراتها الدقيقة، نامت على ظهرها مفتوحة الذراعين، تسطّح صدرها، وظهرت ضلوعها، تحسست ثدييها الصغيرين برفقٍ شديد، أراحت كفيها عليهما في دعة،

أغمضت عينيها وراحت تغمغم بصوتٍ هامسٍ وكأنّها تقرأ تعويذة. برقةٍ مذهلة، مرّت بأطراف أناملها تمسد جسدها، ببطء، ونعومة، وانتشاء. تشتت تركيزه، عندما أخذت تتقلب لمراتٍ عديدةٍ ظهرًا على بطن، على الرمل الخشن والحصى، تحرك يديها وساقيها، تباعدهم، وتضمهم، تثنيهم، وتمدهم، وكأنها تمارس رياضة شاقة، أخذت تنهض ثم ترقد، تتقوس، وتعتدل. كان عرضًا مجانيًا وسخيًا، ولا بد أن يكون مرهقًا؛ لأن جسدها بديع التناسق، صار ينز عرقًا، وماذا بعد؟ انتصبت على قدميها واقفةً قبالته مباشرة، يحاول أن يستنطقها بنظرةٍ من عينيه، ولكنّها بالمثل تنتّظر أن يبدأ هو بالكلام، فتكلّم: "لماذا أنت عارية؟" ضحكت باستغراب لذيذ، جذبته جذبة خفيفة من قميصه: "تغطي جسمك بكل تلك الأقمشة! ألا تشعر بالبلل؟" قرفصت برهة، زحفت بعدها على ركبتيها تجاهه، قربت وجهها منه، شهقت في صوت متقطع كالأنين الشجي، هذا الشيء الغريب في عينيها الذي لم يألف رؤيته في العيون، يسحب بصره، يدوّخه، لم تفلح أي محاولة في إقصائها عن ذهنه، كانت هي بشعرها الفاحم المنسدل على هيئة حلقات، بخصلتها الحمراء التي تتوهج في الشمس، بجاذبيتها القاتلة التي تذكره بالنباتات آكلة الحشرات، وجد نفسه يهرس شفتيها بوله حرمانٍ مجنون، بروحه تنسل منه، نبضاته تعوي في أذنه، شعر بوخزة في صدره من عضةٍ شرسة بأسنانها، انتزع نفسه منها بدفعة قوية، أنفاسه تتهدج بسرعة ماكينة انفلت سيرها، عيناها مثبتتان على عينيه، وقد شبكت يديها على ساقيها، صرف عن ذهنه فكرة أن يكون لثم الشفاة نفسها التي قبلت الموت. وأبقى

في ذاكرته صورة فتاته صاحبة الشركة الوهمية، كان مستثارًا باستدعائها، ولكن العضة الشرسة من الفتاة التي قبلت الجثمان أربكت حساباته.

ظلّ يتأملها وهي تجري عارية، وعينها على البالونة البلاستيكية التي يجرفها الهواء في اتجاه الطريق، قفزت وجذبتها، لفت بها جسدها، اختفت عن نظره، نساها، ركز انتباهه على أمواج البحر التي انقطع صوتها، همدت، وسكنت، تحول إلى الحجارة، بألوانها المبهجة، راح يلتقط ما يراه دقيقًا وبديعًا في تشكيله ولونه، منتشيًا بملايين السنين التي يملأ بها جيوبه، يضعها بحنوٍ من يقدّر صمودها الأزلي الرائع أمام كل عوامل التعرية والنحت، ملايين السنين تستقر بدعةٍ في جيبه، نقيةً، ونظيفة، خالية من التراب، ومن نواتج تحلّل الأجساد، وفيها رائحة البحر، بعيدًا عن وشيش الصخور المنصهرة في باطن الأرض. ما زال في النهار بقية، ولا يحب أن يقضيه على سطح الحاوية، مع الصناديق، ومع الأنذال، يشعر بالجوع، لكن لا يعرف أين يتناول طعامه، صفع أذنه صفير باخرة، في اللحظة ذاتها التي بدأت فيها هجمة كثيفة للغيوم، تلطخت السماء ببقعٍ شديدة السواد، كما لو أنّها قد أصيبت بعدوى فجائية. الرياح تلسعه برمالها، وتولوّل في أذنيه. وعلى فترات متقاربة يصله اصطفاق أجنحة، وصيحة حادة لطيور مفزوعة، لا يعرف أين كان مخبؤها قبل أن تهيجها الرياح. لا مفر من العودة إلى الحاوية. يحاول صد دفع الرياح له في الاتجاه المعاكس، لم يصمد طويلًا، كانت أقوى منه، حملته، وهبدته، ودحرجته، ومرمّغت كلّ أفكاره، أمسك بقوة في جذع شجرة حتى سكنت الرياح، انزاح حمل ثقيل، وصفت رأسه، ليجد الجزيرة وكأنها قد خلت تمامًا من سكانها، غارقة في الصمت، أين اختفوا؟! حتى الطيور لم يعد يسمع لها

صوتًا، وفي تجواله، لم يصادف أيًّا من ملاحي الحاوية، وبلا مقدمات، بدأت تمطر بغزارة، وكأنّها تتدفق من عدة سماوات، تلهب بسياطها رأسه وظهره. رغب بشدةٍ بأن يكون جزءًا من المشهد، رفع رأسه وفتح ذراعيه، بدأ يركض قافزًا، وواثبًا، أراحه كثيرًا أن يجد في نفسه هذه القدرة على الارتفاع في الهواء، تأكد له ذلك وهو يتخطى رقعة هابطة من الأرض، تنحدر بداخلها المياه، خطوة أكيدة نحو الطيران، تعوّضه عن خيبة أمله في الإبحار. بارتياحٍ منعش تعرّف على السفينة بحاوياتها الحمراء والزرقاء، كانت مكشوفة لا تحجبها أسوار، كما لو كانت راسية في الطريق العام، كان المرفأ مفتوحًا على الفضاء، بدون سقف، وبدون بوابة، وبدون حواجز. صعد إلى السفينة مبتّلًا.

في اليوم التالي لم يسمح لهم بالنزول إلى أرض الجزيرة، ولم يكن عنده أدنى رغبة في ذلك، ظل ينتظر على متن الحاوية، حتى انصلح العطب، وحان وقت الإبحار. خرج إلى حافة السفينة يلقي بنظرة وداع على الجزيرة، بدت شاحبةً في الضوء الكابي لنهارٍ معطوب، ولكنّها ويا للغرابة قد دبّت الحياة فجأةً في أوصالها، وكأنّ السفينة قد رست في مكانٍ غير المكان، الناس في الميناء وعلى امتداد البصر يتحركون، حفاة الأقدام، أنصاف عراة، وبضلوع بارزة، الرصيف يعج بالحمالين، والروافع تعمل بهمة وصخب، وهي تعلو وتهبط بالصناديق، وبالقرب من الميناء نشط الصيادون فوق مراكب الصيد الصغيرة، وفي الميناء نفسه علا ضجيج محركات السفن، ونفيرها الغليظ، عبق الجو برائحة أسماكٍ طازجة، الطيور تتقافز في دلالٍ وبدون خوف، ولصوت خبط الأمواج في رصيف الميناء وقعٌ مثيرٌ للشجون، تملكه شعور بالانقباض لكآبة وحزن الرحيل، فوجئ ببعض الملّاحين يصطّفون بجواره، يلوّحون

بأياديهم لفتاةٍ تقف على الرصيف، ترتدي شورتًا قصيرًا، وبلوزةً بحمالاتٍ رفيعة، كلّ الأيادي كانت تلوّح لها، بينما ظلّت هي تداري يديها خلف ظهرها، لم يتعرف عليها، إلا بعد أن بدأت السفينة في التحرك. ظهرت اليد التي كانت تداريها، تلوّح له بالبالونة البلاستيكية، قبل أن تطلقها في الفضاء.
جلس هامدًا على المقعد الطويل وراءه، بحركة عفوية تحسس الأثر الذي تركته عضتها على شفته السفلى، يتطلع اليها بحزنٍ من وراء قضبان سور الحاوية.

الرصيف نفسه

راح يتابع بعينين متعبتين البيوت الجيرية، متدرجة الارتفاع، وهي تتضاءل، حتّى أصبحت نقطًا متناثرةً بيضاء قبل أن تتلاشى. كل ما يراه يغطس، ويذوب في الملح، وكأنّه لم يكن له وجود، مع أنه يعربد في ذاكرته. لم يمر وقت طويل على مغادرتهم للجزيرة التي لم يستدل على اسمها حتى سمع صريرًا وقرقعة احتكاك معدني، واشتّم رائحة دخان، يا للنحس! العطب في الماكينة يتجدد مرةً أخرى.

لا يذكر عدد الأيام أو الأسابيع، أو ربما الأشهر التي مرتّ منذ أن غادر رصيف الميناء في الإسكندرية، ليعود إلى ذات الرصيف، كان منذهلًا ومشوشًا، غير قادر على أن يجد تفسيرًا لما حدث، لا يتفق مع أي منطق، ومع ذلك لا يتشكك في أنّه قد حدث، وحتى لو لم يحدث، فلقد عايش أحداثه، ويتذكّرها بكل تفاصيلها. وأكثر من ذلك، مازال يعاني من المجهود الذي بذله في البحر، يشعر بأمواجه تقلبه على جانبيه، وتعدله، تقلبه، وتعدله، وكأنّه يقاوم الغرق. وهو فوق سريره يحاول تعويض ما فاته من نوم، يصغي إلى الهدير الصاخب في داخله، لو أنّه نائم بالفعل، لتمنى أن يستيقظ، ولو أنه مستيقظ لتمنى أن ينام بعمقٍ حتى يستيقظ على عالمه القديم. أفاق على يد أمّه الحانية وهي تربت على كتفه، كان وجهه ذابلًا،

وممصوصًا، وعلى شفته السفلى ندبة شبه متجلطة. تطلّع إليها بعيونٍ زائغة، رأسه لا يزال يتماوج، ورائحة البحر لم تبارح أنفه. سمعها تقول بعاطفةٍ افتقد سماعها: "حمد الله على سلامتك يا ابني، ربنا استجاب لدعوتي ورجعك من البحر وكل شيء يتعوض، لكن مال شفتك ياحبيبي!" نهضت من جانبه، انحنت تلتقط بنطاله الذي ألقى به على الأرض، وقبل أن تأخذه للغسيل، باغتته بما تخرجه من جيوبه: "جيوبك يا ابني كلها زلط وحجر!"

اليوم التالي للعودة

استيقظ على وشيش الصهير، حاول أن يسد أذنه، لكنّ الصوت كان أقوى من أن يقاوم، يحس بذبذباته حتى من خلال جلده. عندما خرج إلى الشارع وجد أن الأحوال قد ساءت على نحوٍ مباغت؛ لم يعد الخطر مستترًا، الأبخرة الرمادية تنبعث من أسفل قدمه، البيوت تلوّنت بلون الهباب، الجو مكفهر، الضوء بلون العكارة، مع نوبات خفيفة من الومضات الخاطفة، السماء واطئة بسحبٍ من الغبار الأسود. الأرض في مواضع كثيرة امتلأت بالثقوب، مثل جروح صغيرة متقيحة، ومن خلالها تتسرب أبخرة الصهير، تتقافز في بلورات جمر دقيقة، بنغمٍ غريب، جذوع الأشجار تنتفض مثل كائنات تحتضر، ولأغصانها سياط تلسع الطيور، فتفزع بصراخٍ جمعي محموم، لبثت تنتفض وتصرخ حتى فقدت القدرة على الطيران، ترتفع قليلًا بخفقاتٍ واهنة، ثم تتهاوى، مجروحة أو نافقة، يتخاطفها مجموعة من الأطفال متّسخة الوجوه في مشادات صاخبة، سقطت واحدة بجوار قدمه مجروحة، كان منظرها مثيرًا للشفقة وهي تعافر لتخفق بجناحيها المكسورين، كاد أن يبكي عندما اكتشف أن الطيور تدمع، وبكى فعلًا عندما التصقت بذراعه فراشة غاية في الجمال، مبرقشة بكل درجات الأزرق والأصفر، سقطت ميتة، وعندما مد يده ليلتقطها استحالت إلى رماد، تحاصره رائحة الشياط، تزداد

كثافةً وعنفوانًا، يتطلع مدهوشًا إلى الأكمام، وأذيال الثياب التي تمسك بها النيران، يتأملهم مذهولًا، وهم يتلحفون بلهيبٍ لا يخبو، ولا يزداد اشتعالًا، ببطء، وبدون حشرجة ألم، سيتلاشون، الغريبة أنهم يتصرفون وكأنّه لا يحدث شيء، لا أحد يبدو خائفًا، الوجوه خلت من أي تعبير، لا شيئ مما يجري حولهم يفك أسر انغلاقهم، ربما يكون الصهد قد سلبهم هذا الإحساس المنبه بالألم، كما أن وهج النار قد سلب أبصارهم، أليس من الطبيعي وهو يرى ما يتهددهم، أن يندفع بقوة رغبة عظيمة في لفت أنظارهم، ولكنّه يخاف أن يضربوه، ويتهموه بالعته، لقد حدث هذا في مرة سابقة، ربما يقتلوه هذه المرة! شعر بفتور الكلمات، ومرارتها، على لسانه، ومع ذلك لا يتمالك نفسه من التعاطف معهم، لمح مجموعة من أربع فتيات محجبات، وهن يتحركن بأحاسيس بائسة، يسرن في هيئاتٍ متأسّية، ورؤوسهن بين أقدامهن، تداخلت أصواتهن الخفيضة في لغط فقد دلالته.

على غير المتوقع لمح شند قادمًا، لم تكن عايدة معه، ومن مشيته العرجاء بدا عدم التوازن واضحًا بين رأسه وجسمه من ناحية، وبين الفرق في طول ساقيه من ناحية أخرى، كان ينقل قدمه بصعوبة وهو يقترب منه، ظل يبحلق فيه وكأنّه يحاول أن يتذكره، بمجرد أن نطق باسمه: "شند!" قطب جبينه وكأنّه يتألم، متأسيًا نطق اسم صديقه القديم: "يامن!" ودون أن يتفوه بكلمة أخرى، تدلت رأسه في خنوع طفلٍ صُفِع لخطأ ارتكبه، بأطراف أصابعه على ذقنه، رفع يامن رأس شند، هاله الوجه الذي تغضّن، والظلال الداكنة التي ارتسمت تحت العينين. وحتى ينتزع كلمة من فمه المغلق، سأله عن عايدة، ارتّج جسد شند، ولم يقدر على الاستمرار في الوقوف على قدميه، جلس

على الرصيف، وضع رأسه بين يديه، ليختنق صوته ببكاء يشف عن عجز وقهر، وجد يامن نفسه جالسًا بجواره، مع حقيبته التي التصقت بكتفه، لا يعرف على أي شيء يواسيه، يفكر في طريقة يشجعه بها على البوح، قال بعد هنيهة صمت: "أفتقد صداقتك يا ابني وصداقة عايدة، لكنك لم تقل لي كيف حالها؟" ببطء شديد رفع شند رأسه، كانت عينه المحمّرة تعكس لهيبًا، أغمض جفنيه على عينيه المحمّرتين ثم فتحهما بنظرة منكسرة، سأل بصوتٍ واهن: "هل أنا ضعيف الشخصية يا يامن؟" رد يامن على الفور وبحماس منقطع النظير، وكأنّه يدافع عن قضيته: "لم تكن أبدًا ضعيفًا يا شند، بالعكس أنت تمتلك ببرائتك قوة خاصة لا تتوفر لأي شخص، هل تذكر ما قلته لك من قبل كيف أن الناس تشوهت وأنهم سوف يتبلورون لأنهم فقدوا البراءة." أخرج شند منديلًا ورقيًا، مسح وجهه، والتصقت نتفٌ منه به، ثم أعاد المنديل المشوّه إلى جيبه وأخرج غيره: "هل البراءة عبط يا يامن؟" ضحك يامن ضحكة شعر بها ليست في محلها وبلا مضمون: "لم أكن لأصادقك، كنت وما زلت أعز أصدقائي." غمغم شند بكلمات مضغومة، وعندما زعق فيه يامن أن يتكلم بنبرة واضحة، غامت عيناه، صاح بأعلى صوته: "عايدة تبلورت يا يامن." رجع يغمغم ويتنحنح: "لقد فشلت كصديق وكزوج." وجد يامن نفسه عاجزًا أمام هذا الكبرياء غير المعتد بنفسه، نهض شند متباطئًا، يتابعه يامن بعينين مشفقتين وهو يزك مبتعدًا، تكررت عثراته في حفر الطريق حتى اختفى، ظلّ يامن جالسًا على الرصيف يفكر في شند، ربما ينال شند ما يستحقه من انتهاك، لقد كان منذ البداية مرصودًا لهذا الانهيار.

في جلسته المتهالكة على الرصيف، وجدها تسد عليه مجال الرؤية، امرأة بعينين زائغتين مجهدتين، وشعر رأس منكوش، لم يتعرف عليها إلا عندما سألته بجزع: "ألم يمر من هنا؟" انتفض محمومًا: "عايدة! عايدة!" ظلّ يردد اسمها، لم تلتفت للهفته ولصدمته، سألته برنةٍ قلقة متعجلة: "هل رأيت شند؟" نفض يده مؤقتًا من ذكراها، في لامبالاة أشار بيده إلى حيث اتجه، وعكس ما شكّله خياله بأنّها ستتركه وتلحق به، وجدها تجلس على الرصيف، فعلت مثلما فعل شند من قبلها، أخفت رأسها في كفيها، وبكت. بدت عايدة شديدة الشحوب، حزينة ومطبقة الشفتين، تذكّره بأخته الرضيعة عندما أغلقت فمها، ورفضت البزازة، ورفضت العالم. تحركت مشاعره النائمة نحوها، جلس بجوارها على الرصيف، متجاوزًا رومانسيته القديمة، سمح لنفسه بأن يلف يده حول خصرها، أحس بدفء مدغدغ وهو يستشعر ملمس جسدها، لأول مرة منذ أن عرفها. في إيماءة مرتجفة، زحزحت نفسها مبتعدة، تنبّه إلى أنّها امرأة شند، وأن رغبته حادت عن مسالكها بصورة مخجلة، سحب يده، تمتم بكلمات اعتذار مضغومة، قال يطمئنها: "لم تكن حالته بهذا السوء يا عايدة." وبعاطفة ودودة سألها عن أحوالها، زعقت في انفعالٍ مفاجئ: "لقد دمّرت حياتنا يا يامن." بقبضة أودعتها كل قوتها، سددت ضربة مدوخة إلى رأسه.

الرجوع إلى ميسا

بدت ميسا مختلفةً في مظهرها عمّا تركها، تركت شعرها القصير ينمو، حبكت من ملابسها، ويبدو أنها بطريقة ما وسّعت من عينيها. وقفت في الردهة بجوار حجرته، مترددة، ومن خلفها بخطوتين كانت نظيرة تحمسها بصوت هامس على اقتحام الحجرة. تسمّرت أمام الباب الموارب، تتأمله وهو يرتب في حقائبه التي كان قد اختّل ترتيبها الهرمي، عندما شعر بوجودها، استدار، هلّل مُرحّبًا، أقبلت عليه بلهفة لم يتوقعها، ظلّت محتفظة بيده، بعد مصافحة حارة، تركت يده، وراحت تعاينه بإمعان، تفتش عن أي أثر تركه الإبحار عليه، فجأة اهتّز كل جسدها، تقول برجفة شجن: "أحبك جدًا." سكتت تبتلع ريقها، ثم أكملت: "لم أحتمل تخيلك وحدك، بعيدًا، وبدون غطاء، أرجوك لا تتركني مرةً أخرى وترحل." ظلّ على صمته، ما تقوله لا يحرك شيئًا بداخله، وهو لا يختلف كثيرًا عمّا سمعه منها من قبل، وعما يسمعه من أمّه، وجهه يفضح ما يضمره، أعادت على مسامعه المقطع الأخير من جملتها: "لا تتركني مرة أخرى وترحل." انخرطت فجأة في نشيجٍ ونهنهةٍ طفولية، جرّ لها مقعدًا من الركن القصي في حجرته، أجلسها، ربت عليها، داعب شعرها وفروة رأسها، فوجئ بها تنتفض وتحتضنه، شعر بأنفاسها، وتشمم رائحة جسدها، وهي تبلل وجهه بدموعها، استعذب

حضنها، بعد أن أفرغت شحنتها العاطفية، استدارت لتخرج، أمسكها من يدها، عاودت الجلوس، قرر أن يفاجئها: "هل تعرفين يا ميسا أنّك ألقيت بالدبلة في النهر؟" بحلقت فيه متسائلة: "أية دبلة تتحدث عنها؟" حكى لها حكاية الدبلة التي وضعها داخل العلبة التي زخرفها وعلّقها على رقبتها. قالت معاتبة: "ولكنّك لم تقل لي وقتها أن بداخل العلبة دبلة." ردّ عليها مذكرًا: "نطقت بكلمة حقيقي، وهي كلمة السر التي اتفقنا عليها عندما تتحيرين بين الجد والهذر، ولكنّك صمّمت على عدم تصديقي." أمسكت برأسها وأطلقت تنهيدة كرب: "ما فعلته لا يمكن تصديقه، الغلط منك وليس مني، وعلى أية حال أنا آسفة."

- ليست هذ هي المرة الأولى التي لا تصدقيني فيها يا ميسا، ولم تكن هي أول مرة تغضبي مني فيها.
- أعرف، وبعدها أؤنب نفسي، أسترجع المواقف وأعاتب نفسي، وأحيانًا ألتمس لنفسي العذر، لأنّك غير واضح.
- لا أخفي عنكِ شيئًا يا ميسا، أنا كتاب مفتوح.
- بصراحة. مفتوح على ألغاز.
- لو كان هذا رأيك في، لست مجبرة على أن تحبيني أو تفهميني.
- للأسف، مجبرة، أنا أحبك جدًا، تأكدت من ذلك عندما عرفت أنك تغامر في البحر؛ لكنّك لم تحك لي كيف كانت المغامرة.
- نحس من أولها لآخرها.

- حقيقي.
- حقيقي.

اكتفى بوصف المكان والناس واحتفظ بالأحداث لنفسه، لم تبد فضولًا أكثر، وكان هذا مريحًا، وهي مطرقة الرأس في شيء من الخجل، مّد يده يمسد شعرها: "سوف أتزوجك يا ميسا." أدهشه بأكثر مما أدهشها، ما نطق به لسانه، وما ستكون عليه حياته معها، وكأن الواقع من حولهما قد استحال كله، فجأةً، إلى وهم.

التحليق بعيدًا عن التراب

كل يوم يقف أمام الواجهة الزجاجية، يمسح بعينيه المكان بالداخل، وحتى لو لم يرها، يدفع باب الكافيه شوب الذي اعتاد أن يراها فيه، يجلس في المكان الذي تجلس هي فيه، يطلب أكثر من مشروب، ولا يراها.

في هذا اليوم لم يكن يتوقع حدوث شئ بعينه، فجأة شعر بقلبه يخبط في حلقه عندما رآها، كانت على الناحية الأخرى من الطريق، تتلفت بحذر حولها، تمشي بهزة خفيفة، لا تختال، ولا تتمايل، خصلة شعرها الحمراء تنزاح بنعومة مع كل لطشة هواء، مع كل خطوة تقتربها منه يخفق بدنه، ويتدفق الدم غزيرًا في كل قنوات مخه، بدت مشتهاة بكنوزها المتوارية، خلف ثوبها الخفيف الهفهاف، ما الذي يجري له؟! عبرت الطريق وتقترب أكثر، صدره يؤلمه، ليس مرضًا، ولكن هذه الرجفة غير الإرادية، المهووسة، لا يرى غيرها، داخله وخارجه، ومن حولها توقف كل ما يتحرك، الناس، والعربات.

استقبلها ببشاشة. وكأنّها على ثقة بأنّها ستجده، لم تبد أي دهشة. جلست قبالته محيية بإيماءة خفيفة، بعد زفرة راحة شجية، طلبت منه أن يترك لها مكانها، نهض على الفور وتبادلا الأماكن. تمطّت مثل قطة مدللة، ومدت ساقيها، نادت على النادل، بمجرد أن لمحها، ردّ عليها من مكانه بأنه سوف يحضر طلبها على الفور. ظلّ يامن على صمته، مكتفيًا بابتسامة ولهٍ بلهاء،

استغربها هو نفسه. أفسحت لحقيبتها الصغيرة مكانًا على المنضدة، تطلّعت إليه بعينين مدققتين: "حدثني عن تجربتك في الإبحار؟" أنعشت روحه رنة الود في طلبها، لكن من أين يبدأ؟ أغلق عينيه مفكرًا، فتحهما: "تخيلي! لا أعرف إسم الموانئ التي رست عندها السفينة، وحتى الجزيرة الوحيدة التي قضيت فيها يومًا كاملًا، لم أستدل على إسمها، كل من كانوا معي على الحاوية أنذال، لا أعرف المسافة التي قطعتها، ولا حتى الوقت الذي قضيته مبحرًا." لم تعلق، تحركت عينها نحو النادل الذي جاء بمشروبها الساخن، وضعه أمامها بانحناءة احترام، التفت إلى يامن مداعبًا: "أي خدمة يا باشا؟" رد عليه بإيماءة شكر: "هذه المرة سأدفع ثمن القعدة." تضاحكا، قالت معلّقة: "يبدو أنّك أصبحت زبونًا دائمًا للمكان!" مرت بسبابتها تمسح حافة الكأس، تقول بهدوء رصين: "لكنكِ بالتأكيد استفدت من التجربة!" ردّ بابتسامةٍ وهزة برأسه: "كنت آمل في نوع جديد من الحياة، ولكنها كانت كابوسًا، إلا في جزءٍ يسير منها." حملقت في وجهه، رشفت بتلذذ من مشروبها الساخن، احتفظت بالكأس بين يديها، فاجأته بالسؤال: "هل شعرت بالوشيش في الأماكن التي زرتها؟" شرد لبرهة، يفكر في مصدر معلوماتها، سألها ويده تتنقل بين فمه وذقنه: "ما مغزى هذا السؤال؟" ردّت بهدوءٍ غريب: "هل نسيت ما قلته لي بأن هذا هو الشيء الوحيد الذي يؤرّق منامك؟" رفع رأسه مفكرًا، وكأنّه يقيم ما تقوله، استطردت تلاحقه: "وشيش الصهير!" يستعيد بغشاوة مشاهد ذلك اليوم، الجري معها عاريًا، وتلك اللافتة المكتوب عليها "تحابوا قبل أن تتبلوروا". من المرجح أن يكون عياره قد انفلت وقتها، وفضفض لها بالكثير عن نفسه. أفاق على صوتها تهتف باسمه ويدها على كتفه: "يامن!"

اتسعت عيناه، انفتح فمه على سعته، لم يسمعها من قبل تنطق باسمه، ولكن الآن وهي تنطقه بتلك النبرة الواثقة يتملكه شبه يقين بأنها هي صاحبة الشركة الوهمية؟ هي ذات الفتاة التي كان أمامها كل أوراقه، وأبحاثه، والتقارير التي كُتِبت عنه في مقابلات سابقة، وهي ذاتها التي كثيرًا ما التقى بها، بخصلة شعرها في توهجها الأحمر. بقدر ما أنعشه الاكتشاف، أرهقه التفكير في كيف سيكون موقفه الجديد منها. هل يقدر على انتزاع المبادرة منها، ويبدأ في استجوابها: "أليس من الغريب ألا أعرف إسمك حتى الآن، بينما من الواضح أنك تعرفين الكثير عني!" ضحكت: "ليس قبل أن تطلعني على تفاصيل رحلتك البحرية." نظرتها المترقبة في فضول جميل، أبعدته عنها وأعادته إلى نفسه، برقت عيناه بومضة الذكرى، تمهل قليلًا ثم قال بنبرةٍ مرحة: "تخيّلي! الجزيرة خالية من التراب، تصوّري! أجساد موتاهم تتحلل، ليس إلى تراب، ولكن إلى حصى ورمال!" ارتّج صدرها بضحكة مجلجلة: "يبدو أنك رأيتهم وهم يتحللون." رد بثبات: "رأيت ما هو أعجب من ذلك، هل تصدقيني لو قلت لك أنني شاهدتهم وهم يضعون قبلات على شفاه موتاهم، ويودّعونهم بالرقصات." حملقت فيه في عدم تصديق واستهجان، صوبت نظرتها وسبابتها إلى فمه: "بالمناسبة، هناك أثر قبلة على شفتك السفلى." تحسس شفته: "كانت عضة." سألته: "من ميت؟!" استفزته رنة الاستخفاف في السؤال، تجرأ وقال: "منك." ارتشفت آخر قطرة في كأسها، دفعت له بكوب الماء أمامها، شربه دفعة واحدة، مالت بوجهها في اتجاهه: "مني أنا؟!" كانت عيناه على شفتيها وقد ابتلّتا، وتلوّنتا باللون الوردي للمشروب، لشفتيها وجود مستقل، وكيان، ما الذي يجري؟! نقل

بصره إلى أناملها، وهي مستكينة بجوار كأسها الفارغ، يود لو تتسلل راحة يده لترتاح عليها، يسترجع مشهدها وهي تتقلب عارية أمامه على الرمال، كان جسدها غاية في الرهافة والدقة، وكان الأمر سيكون ممتعًا لو أنّه استمر يتقلب معها على الشاطئ بصورتها التي يعرفها عليها، وليس مع تلك الفتاة ذات الرداء البلاستيكي الشفاف، والتي خلفت عضتها ندبة على شفته السفلى، عندما كررت استغرابها المستخف: "مني أنا؟!" استطرد: "لقد تقابلنا على الشاطئ هناك، وهناك قمت بتقبيلك." لم تتخل عن رنة الاستخفاف: "وأنا قمت بعضك!" رد باحتداد: "كانت مزحة مني. الحقيقة أن الذي عضني هو الفتاة التي قبلت الجثمان." رجعت برأسها إلى الوراء، نقرت بأصابعها على المنضدة: "أنت تربكني، لا أستطيع أن أفرق بين الجد والهذر في كلامك." رد عليها بحماس من اقترب من هدفه: "اسأليني هذر أم حقيقي وتأكدي من صدق ردي." على الفور سألته: "هل حكايتك عن تلك الفتاة التي قبلت الجثة هذر أم حقيقي." رد بحماس وثقة: "حقيقي." لاحقته بالسؤال: "وتقبيلك لي!"

- ماله؟
- هذر أم حقيقي؟
- حقيقي.

أغنية حزينة لطفل

أكثر ما يحيره في أمّه عشقها لكل ما يتلبسه الحزن، وفي أوقات الاستغناء النادر عن الكدر، تنحبس الضحكة في حنجرتها، وتخرج مكتومة، حتى الأغاني والأهازيج الريفية التي تشربت بها، كانت بمقاطع حزينة، تهدهده وهو طفل لينام على وقعها الباكي، تعاوده من حين لآخر، أنشودة الفرخ الذي تحذره أمّه من الصياد: "حاذر يا عصفور، يا أحلى الطيور." يرد عليها وهو يتقافز مبتعدًا: "إني لا أراه.. إني لا أراه." يظل يعاندها ويبتعد، حتى يقتله الصياد. كان كلما رغب في جرعة حزن، ينبش مع أمّه الماضي، تحكي له عن خالته فهيمة وكيف أصابها الصمم، عن القرية التي ولدت وكبرت وتزوجت فيها، تعدد له محطات قلقها عليه، خوفها وهو ينمو بداخلها، أن يخرج مشوّهًا إلى الحياة، عن تعجلها لوقوفه منتصبًا على قدميه؛ خوفًا من أن يظلّ يحبو طيلة عمره، تخشى عليه من الموت، تجس نبضه، تراقب أنفاسه عندما يمرض، تشده إذا ما اقترب من سلك كهربائي، تقبض على يده بشدةٍ أثناء عبور جاموسة، ومنذ أن بدأ التدخين تقول له أمّه محذّرة: "تنقص سنوات عمرك، بعدد العلب التي تحرق بها قلبك." وهو بهذه الحسبة في عداد الأموات منذ سنين. طوال الوقت يحاول قهر الإحساس بأن الموت يترصده عند كل زاوية، ومنعطف طريق، وفي كلّ مرةٍ ينبشها في الكلام عن أخته

الرضيعة التي يتعذب بها، تنقلب سحنتها، يتعكّر مزاجها، وتغير الموضوع، وعندما يسألها عن السر وراء لقب "العجوز" الذي أطلقته عليه خالته فهيمة، ترد عليه باستغراب: "سافر البلد واسألها بنفسك." وكأن كلّ استفساراته عن طفولته من المحرمات.

دقت أمّه على باب حجرته، لم يرد. يعرف أن نظيرة خرجت مع أبيها لشراء بعض الأشياء الخاصة بجهازها، والأم لا تطيق أن تجلس وحدها. فتحت الباب عنوة. كان مستلقيًا على السرير، وأعقاب السجائر متناثرة على الأرض. انحنت تلملمها، تغمغم بعبارات التأفف وهي تعنّفه بالأمثال التي يطيب لها أحيانًا المناورة بها: "قراط نظافة ولا فدان شطارة." ألحقته بدعاءٍ: "ربنا يتوب عليك منها." ألقت ما التقطته في سلة المهملات، نفضت يدها، جلست على المقعد بجوار السرير، بادرته بالكلام قائلة بأسى: "خير اللهم اجعله خير." انقبض قلبه ترقبًا لما سوف تبوح به، ربما عن مرضها الغامض، ولكنّه لم يكن إلا حلمًا تحكيه: "أبوك رآك في المنام أنهم يدفنوك، ويهيلون عليك التراب." سكتت، ثم قالت مطمئنة: "الموت في الحلم يعني طول العمر، ده حتى من حبه لك، حفر وانتشلك من تحت التراب، حملك، وجري بك، وهو يصرخ فيهم ابني لم يمت يا كلاب، ظلّ يردد وهو يبكي ابني عايش." سكتت برهة تراقب تأثير ما قالته على وجهه، تبدّلت نبرتها لتصبح شاكية: "هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها دموع أبيك، هل ضايقته في شيء؟" غمغم لنفسه، فلم تسمع ردّه، تركت مقعدها واتجهت إلى مكتبه. انفجر عندما وجدها ترتب كتبه وأوراقه: "مائة مرة أقول لك، اتركي كل شيء على حاله." دون أن تلتفت إليه استمرت في ترتيب ما بدأته، قال مغتاظًا:

"ما تفعلينه ليس نظامًا، ولكن لخبطة لما رتبته." تركت ما بيدها، قالت برنة استعطاف: "افتح لي قلبك يا ابني، وقل لي سبب كدرك." سكتت تبلع ريقها: "لم يعد لنا رجل غيرك يا ابني، بعد أن يرجع أبوك للخليج." أوجعت الكلمة أذنه: "الخليج! تاني!" تربع، عقد يديه خلف رأسه، قوّس صدره للخلف، شهق وزفر بصوتٍ مكلوم، استقام بصدره مرتكزًا على باطن كفيه، قال معنّفًا: "لماذا تجبرينه على السفر وهو في هذا العمر؟" جلست على حافة سريره، ردّت عليه: "أنت واختك اللذان يجبرانه، ولست أنا." قال محتدًا: "تلقين باللوم علينا وتتحجّجين بنا وأنت وحدك الملامة." استدعت دموعها التي غالبًا ما تسعفها في مثل تلك المواقف: "خيرًا تعمل، شرًا تلقى." يحاذر أن يبدي أي نوعٍ من التعاطف، أي لمسة شفقة، أو حنان، سوف يتعالى صوت النحيب الذي يستفزه. تركت دموعها تجف في عينيها، تبدّلت سحنتها، انمحت علامات التودد، انتفضت من جواره، تنبش الجرح بما يتأذّى بسماعه: "لن تعرفوا قيمتي، إلا بعد موتي."

وعندما يتصادمان، لا شيء يجمعهما، إلا الشعور بالوحدة، ربما وحدتها أشد مرارة، فهي لا تعرف الطريق إلى الشارع، إلا مع أبيه، ولا تختلط بالجيران، وكل أقاربها في الريف. في آخر مشاحنة لهما، وفي لحظة الوفاق تعاهدا ألّا يترك أحدهما الآخر ينام غاضبًا. خرج من حجرته ليبحث عنها، وجدها متكوّمة في ركنها المفضّل، في الجزء من الصالة خافت الضوء. هذه هي واحدة من الطرق التي تهرب بها من المواجهات الرديئة مع سكان هذه الشقة، تنطوي على نفسها في هدوء، مغلقةً في استكانتها، تنشغل بهمّها الخاص، تقوم بالعناية بنفسها في أمور لم تسمح لهم أبدًا أن يتدخّلوا فيها.

بمجرد أن لمحته بدا عليها الارتباك، وهي تداري شيئًا وراء ظهرها. أخذ يراقبها وهو جالس في الركن المواجه لها، شفتاها الجافتان مزمومتان، عيناها مجهدتان، ظلّت صامتة، تتنهد بشهقات مكتومة. لمح الشيء الذي تحاول مداراته، وكأنّها تخفي معالم جريمة، شعر بخجله من نفسه، ما يحاول إنكاره يتجسد له الآن، آلام ظهرها المزمنة، التي لا تمكنها من الانحناء، والعناية بأظافر قدميها، يسترجع العذابات الأخرى، ترددها على الأطباء مع أبيه، وخزات الألم التي تعاودها كلّ حينٍ وحين، احتمالها المزمن لتقلباته المزاجية، وعدم احتماله لكلمة حبيبي التي تأتي على لسانها في مناسبات عديدة. والآن يرغب بشدة في الاعتذار لها، وارضائها. قام من مكانه واتجه صوبها. ومثل لصٍ محترف شتت انتباهها، وهو يميل على رأسها، يلثم بحنو البقعة التي نحل فيها الشعر، إنّها تشيخ قبل الأوان، وتمرض وهي في عز عافيتها. مرّر يده خلف ظهرها، أتعبه ملمس الفقرات المقوّسة في عظامها، في الحقيقة أرعبه صورتها كهيكلٍ عظمي. بخفة حرر المقص من قبضتها، جثا على ركبتيه، مدّ يده يمسك بقدمها التي ظلّت طيلة الوقت تتفنن في إخفائها، بالجوارب، بطرف جلبابها، وبالشباشب التي تحجب الأصابع. توتّرت قسمات وجهها، تملصت منه في خجل طفلة، حاول مرةً أخرى، تمنعت في إصرار، ظلّ يحايلها، ويحاول إقناعها، حتى أمسك بقدمها، ولكي يخفف التوتر عن الارتعاشة التي استشعرها تسري في يده، راح يلهيها بالكلام عن شيء آخر، عن أي شيء، تغمض عينيها حتى لا تشاهد ما يحدث، ينظر إليها وهي تداري دمعةً لم يستوعب سر ظهورها في هذا التوقيت، يتكلم عن نفسه، عن أي شيء، يسترجع في امتنان ما تغاضت عنه من سخافاته، يذكرها باليوم الذي تقيّأ فيه

على وجهها، وفي دواخله، راح يلعن اليوم الذي رغب فيه أن يراها تشيخ. حلقتّي المقص تجز على إصبعيه بوخزٍ مؤلم، لا يبدي ذلك، وهو منهمك في قص أظافرها التي تكلّست، وشاخت، وتقوست، لا يكف عن الكلام عن أي شيء، أي شيء لا علاقة له بقص الأظافر، ولا بآلام الظهر، ولا بهيكلها العظمي، ولا بالدموع التي لا يعرف مصدرها، ولا بأي طريقة انتقلت إليه عدواها، يتوه منه اليقين، يشعر بالتنميل يبدأ من يده، بحلقتّي المقص تجزان بقسوة على أصابعه، يسقط المقص، يشعر بانفراط عقل أصابعه، عقلةً، عقلة. جلس تحت قدميها يبكي وهو يردّد أغنيتها التي كانت تهدهده بها وتبكيه وهو طفل: "حاذر يا عصفور.. يا أحلى الطيور..."

الصهير

لأنّهم في الدور الأرضي، ولأنّه ينام على فرشة على الأرض مثلما كانت تنام أخته الرضيعة، شعر بلفعة صهدٍ تلهب جسده، وبرأسه تغلي، لا بد أن الصهير قد بدأ يتسرب في خفة لص، من منطقة ضعف، إلى مناطق أكثر ضعفًا، يلتهم بنيرانه التي لا تشبع كل ما يعترض طريقه من صخور، في تحفز شرس للحظة الانبثاق المباغت. ازداد الوشيش في أذنه، وقبل أن يواصل زحفه تحت السرير، ليتفقد أحوال الحرارة في الحفرة العميقة التي خبأ فيها المسدس، انتشله الجدل الدائر بين الأم والأب، يصله بجلبة واضحة من ركنهما في الصالة. نسى الصهير، وما يجري تحت الأرض، ورغما عنه، أسلم أذنه لهما.

الأب – قلت لك غيرت رأيي، وكفاية غربة وبهدلة.

الأم – يعني هنا مش بهدلة؟

الأب – اسمنا في بلدنا، وكفايانا فلوس.

الأم – كفاية! هو فيه حاجة بتقعد؟

الأب – لن أضيع عمري كله في لمها. تعبت.

الأم – هي الفلوس سيئة؟

الأب – طبعًا سيئة، أكرهها.

الأم – سنتين كمان وخلاص، لغاية لما البنت تتزوج، والولد الغلبان ربنا يفتحها عليه ويلاقي شغلانة عليها القيمة.

الأب – كله على أعصابي، وصحتي، وساعات على كرامتي، لن أسافر، قررت وخلاص.

الأم – علشان خاطرنا، آخر مرة.

الأب – يا ستي، أنا ضيعت حياتي في الغربة علشان خاطركم، ويا ريت نافع، سيبوني أضيع الباقي من عمري هنا معكم، يمكن ينفع!

الكلام يخرج من فم أبيه معافرًا وكأنّه نضب، والأم تنهي غمغمتها المتأسية بالنهنهة والدموع، ومن بين شهقة مؤثرة تطلق صيحة استغاثة بالسماء.

من أجل من؟! وعلشان من؟! وإلى متى يتنكرون لما يترصدهم! لن يمر وقت طويل قبل أن يتبلورون، لا يجد مبررًا واحدًا لهذا الإلحاح على الأب، لكي يتغرب مرة أخرى، أخذه تفكيره إلى ما جرى للرجل، وما يجري له الآن من تحت رأسهم، فهو ليس إلا موظف غلبان، كل جريرته أنّه تعاقد للعمل في دولة عربية. في كل مرة يسافر فيها ويعود يبدأ الجدال حول ما ادخره وما أنفقه، وتكون المحصلة النهائية هو السفر مرة أخرى؛ لادخار المزيد من النقود تعويضًا عمّا تم إنفاقه خلال الإجازة. في كل مرة تستخدم أمّه ذات السلاح: "شقة الولد، وجهاز البنت." يسافر ويعود ليجد كل ما يعرفه يتغير ويتبدل، ودائمًا في اتجاه مغاير لما يتغرب ويكدح من أجله. يشفق على أبيه من

الطريق المغبر، غير الممهد، الذي مشاه، وما زال يمشيه، من بصمات الزوال المرعبة، التي خطّتها الغربة على وجهه، الرجل يشيخ بمعدلات أسرع من المعتاد، فقد شعره، ووزنه، وأسنانه، وحيويته، وروحه المرحة، حتى مسدّسه فقده، أي شيء آخر تبقى فيه تلح عليه الأم أن يسافر ليرجع من غيره؟! يشفق على نفسه من مستقبل بالملامح نفسها، بأن يترصده هذا الزوال الجاثم على صدر أبيه، وربما بهذا المعدل السريع.

ولا يختلف الأمر كثيرًا مع الأم، فهو يراها في حالة مستمرة من التدهور، بالعلاوة على زيارتهما غير المعلنة للعيادات والمستشفيات. ملسوعًا أخذ يامن يتقلّب على أرضية الحجرة، من أجل أي هدف هذا الإرهاق؟ انتفض على صرخة أبيه الملتاعة المستغيثة: "تعبت.. نفسي ارتاح!" كم من مرة تردّدت هذه الآهات، حتى الحوائط ضجت من سماعها، وعندما يسمعها للمرة المائة تلتهب أعصابه. قام من رقدته، فتح باب حجرته على سعته، اندفع بجموح من يرغب في الانتقام، أصبح في حلبة المعركة، وقف ينقل البصر بينهما في توتر وغيظ. كانت الأم في حالة تحفز مجروح، وعلى وجهها قناع الكرب الذي التصق به، ولم يعد بالإمكان انتزاعه، وكان الأب منهارًا والانكسار في عينيه غير محتمل. اتجه صوب الأم، صاح في وجهها: "يسافر تاني ليه؟ يسافر تاني علشان مين بالضبط؟" التصقت الجملة بلسانه، وكما لو كانت قد أصابته لوثة، راح يرددها وهو يهزها من كتفها: "يسافر تاني علشان إيه؟ علشان مين؟! هه!" شعر بالتنميل يشل يده، وبكتف أمّه الهش وقد انخلع.

الأم تبحث له عن امرأة

تنبهت أخيرًا إلى حاجته الماسة لامرأة، لا تذكر مناسبة رأته فيها يصادق فتاة، مما جعلها تصرف النظر تمامًا عن التفكير في هذا الموضوع، وكأنه من الطبيعي ألا تتشعب علاقاته خارج نطاق البيت، لم يهدها تفكيرها إلى هذه الحقيقة إلا بعد رجوعه من رحلة البحر، حيث تواترت ثورات غضبه عليها، يهب فيها في كل مرة توقظه فيها بندائها المفضل: "صباح الخير يا حبيبي." حدست بأنه بالتأكيد يتمنى لو أنها امرأته وليست أمه هي التي توقظه بهذا النداء.

ولن تجد فتاة تأنس لها أفضل من ميسا، فالبنت تحبها وتؤثرها على زوجة أبيها، وهي دائمة التردد على البيت، وفي أحيانٍ كثيرة تقضي الليل مع ابنتها نظيرة. حاولت جس نبض يامن، بأن بدأت حديثها معه بالاستعانة بأحد الأمثال: "بنت الأصول عشرتها تطول." لم يستغرق الوقت طويلًا حتى قرأ نيتها، قال في شيئ من اليأس: "الفكرة حلوة، لكن التفاصيل صعبة، لن ترضى ميسا بالعيش معنا."

لم تتردد الأم في اتخاذ خطوات جادة لإنجاز المهمة، دخلت حجرة نظيرة، وجدتها خاملة، في حالة وجوم. أجّلت مفاتحتها في موضوع ميسا، وراحت تستفسر عن أحوال بيت الزوجية المنشغلة في ترتيبه مع خطيبها،

انفجرت نظيرة، صبت لعناتها على كلّ الرجال، وصمتت بعد تنهيدة قرف. لم تكن الأم على استعداد للنبش في علاقة نظيرة بخطيبها؛ حتى لا تصدم برد فعلها، خاصة بعد سابقة فسخ خطوبة. قالت تمهد لمفاتحتها في موضوع زواج ميسا ويامن: "ميسا بنت حلال، يا ريت نقدر نوفق بينهما في الحلال." ظهر عدم الارتياح على وجه نظيرة، قالت بشيء من الحدّة: "ميسا طيبة، ولا يمكن أن تتحمل رذالته، وهلوساته." وبعد هنيهة تردد استطردت: "لعلمك، لقد تقابلا أكثر من مرة خارج البيت، ولم يكن أبدًا لطيفًا معها رغم حبها له." خاب أمل الأم، وكان في اعتقادها أن نظيرة ستكون أول المتحمسين للفكرة، راحت تستعطفها ألا تتحامل على أخيها: "المفروض أن تكوني أكثر حنوًا عليه." ردّت عليها: "ولكن ميسا أكثر حنوًا عليّ منه." لم يكن ما قالته نظيرة غريبًا على الأم، فهي تعرف من طيلة معاشرة ميسا لهم، مدى تعلقها بنظيرة، ولكن الجديد هو ما أسرت لها به عن لقائهما خارج البيت، أدهشها، وربما أجج رغبتها في سرعة إنجاز المهمة. بعد إلحاح ومثابرة انتزعت من نظيرة وعدًا بأن تمهد الأرض مع ميسا، وتترك الباقي عليها. ولأن الأم رأت أن الأمر لا يحتمل التأجيل، وأن فرحها بزواج يامن سيخفف من آلامها، ومن يدري ربما تحدث معجزة ويمتد بها العمر لترى حفيدها، انتهزت أول فرصة زارتهم فيها ميسا، اختلت بها في حجرة ابنتها. كان الأمر أسهل مما تتصور، أبدت ميسا فرحتها، بل وعانقت الأم في امتنان من طال انتظاره لهذه اللحظة. لم يبق إلا أن تقتنع ميسا بالعيش معهم في الشقة، حتى يتدبران أحوالهما، وتكون لهما شقتهما الخاصة. كانت الأم تتكلم بقناعة وحماس من يعرف مدى رغبة ميسا في الهروب من بيت زوجة أبيها، كما لم

يخف عليها حب ميسا لابنها، وكانت ميسا ترهف السمع في استثارة من يعتقد بأن يامن هو صاحب الفكرة. لم يبد عليها التوتر إلا فيما يخص العيش معهم في الشقة، ولم تكن لتقبل هذا العرض، لولا أن الأم أقنعتها بأن الأب سيسافر، ونظيرة ستنتقل خلال شهر للعيش في بيت زوجها الذي بدأ العفش يتكدس فيه، وبأنّها هي نفسها لن تعيش طويلًا، بكت الأم. ارتمت ميسا على كتفها، تربت على ظهرها، تقول بنشيجٍ رقيق: "لن تكتمل سعادتي يا ماما إلا بوجودك بيننا." ومع امتزاج الدموع ببعضها، بدت الموافقة الضمنية على الاقتراح، كمقدمةٍ ضرورية لزواج يامن بميسا.

جرت الأم إلى حجرة ابنها، مهلّلة ومستبشرة: "ميسا وافقت يا حبيبي على العيش معنا."

هرم الحقائب

مدّ يده إلى هرم الحقائب، في الركن المخصص لها في حجرته، سحب أصغر حقيبة، لملم أكثر الأشياء احتياجًا لها، شعر بشيء من الراحة عندما استقرت الحقيبة على كتفه، خرج إلى الشارع مبكرًا جدًا عن موعد سفره إلى الغردقة.

قال معلّقًا على ظهورها المباغت أمامه: "لا يمكن أن أصدق أن تكرار لقائي بك بهذا الشكل ليس إلا محض صدفة!" هزّت رأسها، قرصته في أنفه في شقاوةٍ جديدةٍ عليه: "أنت الذي تقودني إليك برغبتك الشديدة في أن تراني، ألم تكن ترغب في رؤيتي قبل رحيلك؟" سألها مدهوشًا: "ومن قال لك أنني أرحل؟" ابتسمت: "حقيبتك." تململت في وقفتها، تلفتت حولها، رجعت لعينيه: "أعرف مكانًا نجلس فيه أفضل من الشارع." ضبط خطواته مع خطواتها، يمشي مع الجزء الظاهر منها، يفكّر في الجزء صعب المنال، المتخفي، والغامض. أخذ مكانه قبالتها، في الكافي شوب الذي اختارته، نظر في ساعته، تحسس بحركة عفوية تذكرة أتوبيس الغردقة، ما زال هناك متسع من الوقت ليفك شفرتها، وشفرة المقابلات معها، وأهم من كل ذلك، شفرة شركتها الوهمية. وكأنّها تسد عليه الطريق لفتح أي موضوع، بخلاف ما ترغب هي الكلام فيه، قالت وهي تميل بصدرها في اتجاهه: "يامن! عندي شغف

لسماع مغامرتك في البحر، وفي الجزيرة التي يتحلل فيها الموتى إلى حصى وحجارة بالتفصيل، لنبدأ من رصيف الإسكندرية." ابتسم في ارتباك. وإلى متى سيظل يحتمل أن تناديه باسمه وهو يجهل اسمها؟ قال: "أليس من الغريب ألا أعرف اسمك حتى الآن؟!" ضحكت بعذوبة: "ولكنك تعرفه، بل أنت الذي أطلقت عليّ الإسم." ردّ مستثارًا: "أي إسم؟" خبطت رأسه بأطراف أصابعها في حركة سريعة: "هل نسيت؟ صاحبة الشركة الوهمية." هل الفرصة مواتية لينتزع منها أي خيط؟ سألها: "ألم تكوني أنت؟" برقت عيناها واتسعتا، وهو يبحر فيهما، غرق السؤال، لم تمهله ليعاوده، بسرعة ألقت به على متن سفينة الحاويات، تستفسر منه عن تجربته مع الملّاحين، اقشعرت فروة رأسه وهو يفكّر في الأنذال، وفي الصناديق المعدنية، حكى لها عن تفاصيل كل ما مر به، بعد أن أصغت باهتمام شديد لكل كلمة وراقبت كل إيماءة. سألته وهي تدق على حقيبته التي وضعها على المقعد الخالي بينهما: "إلى أين تتجه هذه المرة؟" زاغت عيناه، كررت السؤال، ردّ عليها: "إلى منتجع سياحي في البحر الأحمر." سألته في جذل مشاغب: "هل سرقت بنك؟" رد عليها مستعيرًا رنّة صوتها: "سوف أشتري المنتجع، هل تشاركينني؟" أمسكت بباكو السكر أمامه: "هل أفضّه لك؟" تناوله منها وهو يتمتم بكلمات الشكر، أفرغه في كوب الشاي أمامه وراح يقلب فيه، لفترة أطول من اللازم، بدا في استغراقه وكأنّه يستمتع برنين الملعقة على جدران الكوب، قالت مداعبة: "سوف أشاركك شراء المنتجع بمجرد أن تفيق." حدق في وجهها بحدة، منفعلًا قال: "أفيق!" داعبت خصلة شعرها الحمراء في حرج من ارتكب حماقة، استدركت: "الحقيقة إن الناس كلها في غيبوبة." لم يستطع أن يمنع

نفسه من مهاجمتها: "أنت نفسك في غيبوبة، لا تعرفين ما الذي يجري تحت قدمك، ولا تشعرين بالصهد." ازدادت حدة انفعاله: "قريبًا جدًا جدًا سوف تتبلورين." دقت بأصابعها على المنضدة، صوبت سبابتها إلى عينه: "لا أسمح لك." اتسعت عيناها عن آخرهما، شعر بأنها لا تقصد التهديد، لكن لتجتذبه ليحلق في فضاء عينيها من جديد، ارتسمت ابتسامة مبهمة على وجهها، ربتت على حقيبته، تقول برنة منغمة ودودة: "تسافر وحدك!" وبالفعل انبسطت ملامحه وهو يلمح في عينيها وربما لأول مرة تمايز الألوان فيهما. قالت وهي تعلّق حقيبتها على كتفها: "أحمل حقيبة مثل حقيبتك." كان ما يزال مشدودًا لعينيها. حوّلت نظرها إلى حقيبته: "ولكنّك لم تقل لي ما الذي تأخذه معك هذه المرة؟" لم يخف فرحته بالسؤال، ضحك لملابسه الداخلية التي تطل من الحقيبة، قال مازحًا وهو يدفسها بالداخل: "دعاية للملابس الداخلية." أخرج من الحقيبة عينة من الكتب التي يحملها. مدّت يدها، ناولها أحد الكتب، قرأت العنوان بصوتٍ مرتفع "انتروبيا"، قلبت في الصفحات، ارتسمت علامات استفهام واستغراب على وجهها وهي تقرأ ما كتبه على الهوامش بصوتٍ مسموع: "عشوائية.. تحوّل.. ديناميكا حرارية.. كلّما ازدادت الفوضى كبرت قيمة الانتروبيا.. الانتروبيا نقيس بها كم التشتت في الطاقة، وكم الفوضى في أي نظام." أغلقت الكتاب وظلّت تحتضنه بين كفّيها، سدّدت نظرة غريبة له، برقةٍ شديدة أرجعت له الكتاب، راحت تتأمّله وهو يعافر في ترتيب حقيبته، بدت عصيّة على الغلق بعد أن تهرّأت السوستة. نادى على النادل يحمل الأكواب والبواقي، حتى يتسع المكان لحقيبته. نهضت، وهي تتأهب للخروج سألته عن موعد سفره، نظر

إلى ساعته: "ما زال أمامي بعض الوقت." هزّت رأسها في ارتياح: "لا تتحرك، سأرجع مرةً أخرى." أومأ موافقًا بحركةٍ آلية، وكان ما زال منشغلًا في ترتيب حقيبته على المنضدة. بعد أن انفضّ من حقيبته، أسند رأسه بين كفيه، أغمض عينيه، فتحهما عندما استشعر بداية التنميل في يده، أجال بصره فيما حوله، وجد المقاعد وقد امتلأت بالناس، افترش بعضهم الأرض، ومع كثرتهم لم يسمع منهم أي صوت. لم يصدق بصره عندما قرأ المكتوب على لافتة ارتفعت من وسط المجموعة التي تفترش الأرض "تحابّوا قبل أن تتبلوروا". وهو يهم بالنهوض من على مقعده من أجل رؤيةٍ أوضح، اختفت كل المشاهد. هرش رأسه بعصبية، نظر في ساعته، تشكّك في رجوعها، ولكنّها خيبت ظنّه ورجعت. كانت بيدها حقيبة سفر غير تلك التي تعلّقها على كتفها. مستثارًا ومليئًا بالتوقعات صفّق بيده مرحًا. إلى هذا الحد كان مهووسًا بصحبتها! تلك الفتاة تخبله بمفاجآتها، وبحيوية عينها المترعة بالحرية، لم تمهله للتمادي في التخمين. جرّت مقعدها للوراء، وضعت فوقه حقيبة السفر، فتحتها، رفعت حقيبته من مكانها، أفرغت كل محتوياتها في الحقيبة الجيدة التي اشترتها له. نحّت حقيبته التي صارت فارغة جانبًا. هربت الدماء من وجهه، ولم يجد ما يقوله، انشغلت عنه بالنقر على أزرار المحمول لهنيهة، ثم بالنقر على ظهره، استشعر فيها دقّة أظافرها. راح يتأملها صامتًا وهي تغادر المكان، بدا من تعجلها ومن المحمول الذي ألصقته بأذنها أن هناك من ينتظرها.

الحقيبة الجديدة التي اشترتها له كبيرة ومتينة، ويمكن جرها من يدها، وهو لا يحب هذا النوع الذي يجر، بعد أن يفرغها سوف يتركها مكانها، نظر إلى

حقيبته منفرطة السوستة، وهي ملقاة بإهمال، أعاد ترتيب الأشياء فيها من جديد، غطّى سطحها هذه المرة بالكتب، علّقها على كتفه، ثقل الحقيبة على كتفه يمتعه.

استمر في المشي على طول الرصيف بمحاذاة الدكاكين والمقاهي، وكان الطريق إلى البحر الأحمر لا يزال طويلًا جدًا.

تقرير إلى أبي

مشكلتي يا أبي ليست ذهنية ولا نفسية، وسامحني لأني لا أتمالك نفسي من سماع ما تتحادثان به أنت وأمّي عنّي. لا أعرف على وجه التحديد أي انطباع تركته تصرفاتي الغريبة عليكما! ولكن دعني أدخل مباشرة في لب الموضوع، وأبدأ بما فتحت عيني عليه، وهو وضعي الغريب في هذا العالم الذي فوجئت به. أربكتني المفاجأة في طفولة مبكرة جدًا بأنني ولدت عجوزًا. لتتجسد حالتي العصية على الوصف، لحظة الفقد غير المفهوم، وغير المبرر لأختي الرضيعة. ليتخبط ذهني بعد ذلك، في الدهاليز الخفية للوجود، متجاوزًا الواقع المعاش، وهائمًا في ثنايا هذا الكون المذهل. وكما لا يخفى عليك فإن مثل هذه المسائل الميتافيزيقية، لا يصلح معها طبيب أمراض نفسية، أو ذهنية. وأي طبيب مهما تعددت شهاداته، لن يكون أقل مني جهلًا بوضعه في العالم. لقد قضيت عمري لا أثق، ولا أصدق، ما أقرأه، وما أراه، وما أسمعه، من ناس مثلي ومثلك! ربما يبرر لك هذا إقصاء أشياء كثيرة من دائرة اهتمامي، لاستهانتي وعدم اقتناعي بها. ومع ذلك لم أتخل عن رغبتي في التنقيب عن مسارب، ومنابع جديدة للمعرفة، غير تلك التي في الكتب الدراسية المقيتة، وبعيدا عن ثوابتهم ومعتقداتهم التي أراها أكثر شرًا من الكذب. وكانت النتيجة الطبيعية لذلك هو رسوبي المتكرر، ولم يأت تفوقي

بامتياز في سنة التخرج، إلا عندما ألغيت عقلي الآدمي، بعد تخرجي، كنت أتوق يا أبي إلى عمل لا يحتقر تفكيري ويجهد روحي، ولكنني لم أجده، ومن دواعي السخرية أن العمل الوحيد الذي رغبت فيه بشدة، وهو نفسه الذي رشحته أنت لي، لم يكن إلا وهمًا كبيرًا، ومع ذلك دعني أوجز لك بعض هذه الأعمال التي قمت بها مرغمًا، وأخفيتها متعمدًا عنك؛ حتى أوفر إحساسك بالشفقة على، وهي بدون ترتيب زمني، كالآتي:-

١- صائد حشرات في منتجع سياحي. تخيّلت أنني سوف أمتّع نفسي في جو من الهدوء والبهجة في الغردقة. قالوا سنبدأ معك من أول السلم ونرتقي بك بعد ذلك، بمجرد أن قبلت بالعرض، سلّموني تي شرت أحمر بشعار المنتجع، بنطال كاكي، مضرب مُكهرَب، وشبكة كبيرة تنفذ منها قطة بحجم كلب. وأصبح من الواضح أن أول السلم يعني صيد الذباب والبعوض والقطط. اجتذبتني الابتسامات على الوجوه الوردية، ألف حولهن بمضربي الصاعق، أتصيد الذباب الذي يحوم حول أجسادهن شبه العارية، حدث وأنا أمرر المضرب لأصعق ذبابة كانت تحلق حول مؤخرة إحداهن، أن لمحني مدير المنتجع، لم أطق تعنيفه لي، ألقيت بالمضرب تحت قدمه، خلعت التي شرت الأحمر وألحقته بالمضرب، احتفظت فقط بالبنطال الكاكي.

٢- سائق تاكسي. وكنت أنت أول من أوحى لي بهذه الفكرة، بل وأبديت استعدادك لشراء عربة لي بالتقسيط، ورغم أنني رفضت ما اقترحته علي، إلا أنني قررت أن أخوض التجربة بعيدًا عنك. لم يقم أي تفاهم بيني وبين صاحب العربة، ولا بيني وبين الزبائن، أعدت العربة إلى صاحبها، بعد

حادثة خبطت فيها من الخلف عربة كانت قد وقفت بشكل مفاجئ في الإشارة. وجدت الباشا صاحبها، يقف في مواجهتي، يسبني برذاذه، رد على اعتذاري له بسخافة: "اشرب أسفك!" مع كل محاولة لتهدئته يزداد هياجًا: "عارف بكم ثمن الفانوس اللي كسرته؟" أخرجت له المائة جنيه التي تحصلت عليها وقتها، سألني وهو يقلب في وجهي بامتعاض: "كم؟" رددت عليه ويدي ممتدة له بالنقود: "كل إيراد اليوم." احتد أكثر: "يعني كم؟" بدأت الضجة تزداد، الناس تتجمع، والشرطة تحوم، تحت إصرار الرجل ألا يقل المبلغ عن خمسمائة جنيه. لك أن تتخيل يا أبي كيف كان منظري في هذه اللحظة، وما جرى لي بعد ذلك.

٣- مندوب لشركة منظفات، وأكثر ما كرهته هو رباط العنق الذي كانوا يجبرونني على ارتدائه. كنت أتطلع إلى رؤية الابتسامات تتقافز على أوجه ربات البيوت الجميلات، وهن يقبلن على عرضي المغري بتخفيض عشرين في المائة على المنتج، من الصعب أن أصف لك حجم الحرج الذي كنت ألاقيه مع كل باب يوصد بشراسة في وجهي، حتى من قبل أن أفتح فمي بكلمة.

٤- حمّال على متن سفينة حاويات. ولكي أمرر لك كابوسية التجربة، يكفي أن أقول لك بأن أبطالها جزيرة عشوائية، وأشكال شبحية لملّاحين أجانب أنذال، لا يتمايزون عن الحديد والسلاسل والكلّابات والصناديق المعدنية، في صلابتهم، وبرودهم، وخبطاتهم القاتلة.

هل أبوح لك بسرٍ آخر ربما يدهشك، أنا أعشق جو الهذر والمرح، وما إن تقع عيني على شيء جميل، حتى يتوهج قلبي بفرحة حقيقية، أحب الحياة

جدًا، ولست في حالة خصام معها، بالرغم من عدم تصديقي لكل ما أشاهده، وبالرغم من شعوري بالصهد الذي يخترق ظهري أثناء نومي على الأرض، أحاول تعويض فشلي في الاستمرار في أي وظيفة لا تناسب مؤهلي، باستغراقي في البحث عن أنسب الطرق التي نستطيع بها أن نحمي كوكبنا من الدمار، أبحر في كل ما كُتِب عن باطن الأرض التي يقترب صهيرها بسرعة غريبة من القشرة، وكيف استفادت دولة مثل أيسلندا من استغلال الطاقة الحرارية التي تنبعث من الصهير في توليد الطاقة الكهربية. قرأت عن الكويكبات والمذنبات التي تتقاطع مساراتها مع مسار الأرض، والتي من الممكن أن تصطدم بكوكبنا أو تنفجر داخل غلافه الجوي. قرأت كثيرًا عن الثقوب السوداء شفّاطات الكون، وعن الانتروبيا، حيث تتبدد الطاقة، وتضمحل القوة الدافعة، فيزداد الاضطراب وتعم الفوضى. وما أراه أهم من كل ذلك، هو وضع الإنسان الغريب في كون من شيمته الدوران. رغبت بشدة في أن أوضح لك همومي كتابةً! فإذا ما كان الدوران يا أبي هو القاعدة، فبأي حق تلومني على لفي ودوراني حول نفسي؟! وأخيرًا أرجوك يا أبي ألا تقلق بشأني، فأنا لا أعدم وسيلة للسير في ركاب الحياة، وعندما تتهددني رهبة التشوّش، أسبح في أخيلتي، وهو أمر لا يزعجني، بل يلهيني. ولا تشغل بالك بما ذكرته عن وضعي الغريب في هذا العالم، فمهما يكن من أمر، فلا أجد بديلًا عن تحمّل ما لا فكاك منه، بل وبتحدّيه إذا ما لزم الأمر.

مرّت عدة أيام، لم يتلق ردًا من أبيه على رسالته الأولى، فحرّر له رسالة ثانية. كتب فيها: "في هذه اللحظة التي يسري فيها التنميل في أصابعي، لا أستطيع أن أمنع نفسي من الفضفضة لك. أحب أن أراك أمامي مجسدًا وأنا أكتب إليك، ولأنني أشيخ بمعدل سريع أشعر بأن القواسم المشتركة بيننا كثيرة، رغبت بشدة في أن تكون أول من أبوح له بحقيقة النيران التي انبثقت من الأرض، وبدأت بالفعل تمسك بأذيال الكثير من الناس، وأكثر ما أخشاه أن تطال بيتنا، وليس ببعيد حادثة قطتنا التي أمسكت النيران بذيلها، فراحت تجري كالممسوسة وتحرق كل ما تصادفه، لم أكن أنا الذي أشعلت النار في ذيلها، ولم تكن أعقاب سجائري كما قد تبادر إلى أذهانكم، أقسم لك يا أبي بأنني برئ من ذنب القطة التي اشتعلت فيها النيران، وبرئ من تهمٍ كثيرة وجهتموها إليّ، كنت أتقاعس فيها في الدفاع عن نفسي، وهو الشيء الذي كان يوصمني مُذنبًا. ألم تكن أنت أول من لفت نظري إلى وجود مظلومين خلف الأسوار، لا يجيدون، وربما لا يرغبون، في الدفاع عن أنفسهم. أرجو ألا تنزعج يا أبي من كل ما أشرت إليه بشأن النيران، فقط رغبت في إعلامك بالحقيقة التي ينبغي أن تقال مهما كانت قسوتها، أن كوكبنا ينحدر في اتجاه الفوضى، وأرجو ألا يؤثّر هذا بأي حال من الأحوال على وضعك الراسخ فوق هذه الأرض، وأؤكد لك يا أبي بأنني لا أتمنى شيئًا في هذه الحياة، أكثر من أن يشيب شعري مثلما شاب شعرك، وأن أقف على الأرض بقوة الثبات التي تقف بها أنت عليها، والتي بالتأكيد أحسدك عليها. أعذرني يا أبي لو كنت بالغت في تصوير أي شيئ لا يتفق مع منطقك الرصين، فالتنميل يزحف أحيانًا إلى رأسي."

ندم على الرسالتين اللتين حررهما لأبيه، لأن آخر ما كان يخطر على باله، هو أن يُطلع أمّه عليهما، فمن ناحية لن تفهم محتوياتهما، ومن ناحية أخرى لا حاجة لها وهي مريضة، أن تطّلع على ما يجعل المرض يشتّد عليها. سمعه يقول لها بصوت خنقه الانفعال: "يبعث لي برسائل! وكأن قنوات الاتصال الطبيعية بيني وبينه انسدّت!" لم يسمع ما ردّت به الأم همسًا، حتى جعل صوت الأب يهدر منفعلًا: "اتفضّلي يا ستي اقري بنفسك الحال الذي وصل إليه ابنك الميتافيزيقي!" سمع أمّه تشهق: "يا ساتر يا رب.. بتقول ميتا إيه؟!"

حجرة العزوبية هي نفسها حجرة الزواج

وكأن الزواج هو الوصفة السحرية التي تشفي من الأمراض المستعصية، وعلى رأسها الأمراض الميتافيزيقية، تآمر كل سكان البيت على الإسراع بإتمام مراسم زواج ميسا ويامن.

لم يعترض يامن، ولم يهلل، أما ميسا فقد قبلت ببساطة مدهشة كل ما هو متاح. تعهّد والدها بمساعدتها حتى تتوظف بشرط أن تعفيه من أي مسئوليات أخرى مثل تجهيزها وتكاليف الفرح ومثل تلك الأشياء. كل ما ألحّت في طلبه هو تجديد أثاث حجرة يامن بما يليق بعروسين. تم الزواج في جو يخلو من الكلفة، وبأقل عدد من الناس وتقريبًا بدون تكلفة تذكر.

لم تعد الحجرة بعد كما كانت، فبدلًا من السرير الذي يتسع لشخص واحد، أصبح سريرًا عريضًا يتسع لاثنين، مما جعله يمكث فترة مستغربًا وضع نومه الجديد. توافق زواج يامن بميسا مع انتقال نظيرة إلى شقة إيجار جديد، استأجرها عريسها. تركت غرفتها بكل محتوياتها لميسا، واتفقت معها على أنّها عندما تأتي لزيارتها، سيكون هذا في حجرتها، وليس في حجرة يامن.

الأشياء الصغيرة في حياة العروسين اصطبغت بمعان مختلفة. جاءت ميسا بملابسها، وكل كريمات وأصباغ التجميل التي رصتها على طاولة زينة بمرآة

طويلة، لتشغل الركن الذي كان يحتله هرم حقائب يامن الذي تهدم. أما كتبه فقد انتقلت إلى الصالة، رصها مع كتب أبيه. وظلت كتب ميسا وأدواتها الدراسية في حقيبة خصصتها لهم.

بدا كل شيء في حياتهم الجديدة وكأنّهم ترانزيت، في حالة انتظار لرحلتهم المؤجلة. لا ينقطع لهث العريس وراء وظيفة لائقة بخريج امتياز. والعروس تجتهد لتنهي مقررات الشهور القليلة الباقية على تخرجها.

العريس يعيش في حجرة العزوبية نفسها، لكن بإيقاعات مختلفة، صوت ميسا، وأنفاسها، وتقلبها، ودقات شبشبها. العروس في حجرة غير تلك التي اعتادت النوم فيها، تشعر بحرج الغريب. صحيح أنّها ضجت من ثرثرة ونرجسية زوجة أبيها، ومن بلاهة طفليها المزعجين، لكنها لم تهرب إلا من أجل التغيير للأفضل. الانقلاب في حياتهما أسبغ على وجهيهما تعبيرات ملتبسة.

يرزحان تحت عبء رغبتهما المهووسة في الارتواء، ولا يرتويان، كيف وهو يتقلب على مخدع يشاركه فيه غيره؟! وكيف وهي تحاذر ألا تفلت منها شهقة لذة، أو صرخة ألم.

وبعد مرور شهرين على زواجهما، وفي حجرتهما كان يامن مستلقيًا على ظهره، يبحر بعيدًا بعينيه، فكّرت ميسا أن تعيده إليها، في حركة بطيئة تقدمت في زحفها نحوه، وقبل أن يصل فمها إلى فمه، انتفض مذعورًا، لم يكن هذا ما انشغل تفكيره به في هذه اللحظة. في محاولةٍ أخرى، مدت يدها تلاطف يده، نامت برأسها على كتفه، داعب شعرها بآلية غائبٍ عن

الوعي، كان لا يزال منشغلًا بالخروجات المريبة المتتالية لأمّه وأبيه، وبأعراض المرض الغريبة التي بدأت تظهر على أمّه. كانت قد أطلعت ميسا على كل محتويات المطبخ، وكل أدواته، تطلعها على كل التفاصيل، وكأنّها كانت تسلم لها العهدة، قبل المغادرة.

قبّلته ميسا في رقبته قبلة خفيفة وابتعدت، تأففت بصوت هامس: "أوه.. الدنيا حر." بدّلت ملابسها وبقيت بقميص نومها الشفيف، نهض من على السرير واتجه إلى باب الحجرة يغلقه بالمفتاح، رجع إليها عاريًا بعد أن اكتشف أنّها سبقته لفعل ذلك. مقرفصًا أمامها على السرير، راح يتملى بشغف في عينيها النهمتين، وفي جسدها الذي تورد وتفتحت مسامه. استسلم لدفعها له، تركها تدغدغ حواسه، وتوقف نشاط ذهنه. مستسلمًا لتلك النقلة اللذيذة، التي حوّلت مجرى تفكيره تمامًا، وركّزته عليها، البنت كريمة في عطائها، تمنحه بسخاء كل ما حُرِم منه، لا تفتعل شيئًا، ولا تقاوم رغبة، تتقلب معه على السرير العريض، الذي يتسع لاثنين، بعد أن همدا، انتفض على صوت سعال أمّه المتواصل. سرى التنميل في كل جسده، ولم يعد يشعر بملمس ميسا الناعم، ترك لها الفراش، وقف يمعن النظر في هذا الحضور الأنثوي البرئ الطاغي، علامات الهم التي ارتسمت على وجهها، تفضح قصوره في التعامل مع أنوثتها، شعرها المصفف بعناية، وأظافرها التي تجيد طلائها بدقة فنان، يتأمل تضاريس جسدها الممدد العاري. دون أن يجد أي شيء فيه يخصه. تعكّر وجهها، وانمحت النشوة التي كانت تعربد عليه. عيناها زائغتان، نهداها الصغيران بحلمتيهما الداكنتين ليستا من أجله، لكنهما مرصودان لطفل يستحلب رحيقهما، جسدها يبدو غريبًا بدون ملابس.

وقف مدوخًا، لا يجد ما يتشاركان فيه سوى عريهما، شعر فجأة بسخافة تطفله، عندما وجدها تفرد الملاءة وتغطي جسدها؛ تذكّرت عريها، نهضت لترتدي ملابسها، أمسك بها، ضمها بقوة لصدره، بكت على كتفه، أفلتت منه وارتدت ملابسها. ارتدى هو أيضًا ملابسه. جلست على حافة السرير تجهش بالبكاء. جلس بجاورها يحايلها أن تبوح له بسر بكائها. مسحت دموعها. ثم رجعت تسيلها من جديد. سألها محايلًا: "مالك؟!" عقدت يديها خلف رأسها، ظلّت شاخصةً ببصرها نحو السقف، في احتداد من نفذ صبره أعاد عليها السؤال، ردّت باندفاعةِ من يلقي بما يثقل كاهله: "تغمض عينك وتتوه عن الدنيا، وكأنك تستمني، وكأن في مخيلتك امرأة أخرى غيري." سمع صوت تنفسه وهو يناضل من أجل ملء رئتيه بالهواء، يرتعد من الداخل، بهذا الإحساس المهين بدك حصنه، يندهش لهذه القدرة الغريبة على أن تصعد به إلى سماء النشوة، ثم بهدوءٍ شديدٍ تلقي به كخرقة بالية في أتون المتع المحترقة. يشعر بأن جسده منهك، وروحه مجروحة. عيناه مغبشتان، ونظرة القهر تتصاعد فيهما، الانفعالات باتت واضحة في تقلص عضلات وجهه.

لم تأت صدمته مما قالته، بقدر جسارتها الغريبة على التفوّه به. وكأنّها تسرّعت في إدانته، ارتسمت على وجهها ملامح الاستياء مما قالته، لم تكن من قبل تبوح، إلا بتلميحات، زفرات، تنهدات، إيماءات. سكتت وراحت تتأمله بحزن، وقد أطرق برأسه مصدومًا، ومفعمًا بالخزي. مرّت فترة طويلة من الصمت، يفكر كلّ منهما في الآخر، كيف يكون قريبًا، وفي الوقت نفسه نائيًا إلى درجة الانفصال؟ وما الذي يأملان فيه؟! غطّت سحابات الغم على عيونهما، غلالات الحزن على وجهيهما، تعكس شعورًا غريبًا بالوحدة،

واللاانتماء، بل وبعبثية حياتهما. بدا كل واحدٍ منهما متواريًا وراء همّه، منهكًا، وبريئًا. تلاقت نظراتهما المغبّشة، ليسترجع كل منهما صورة الآخر، عندما إلتقيا أول مرة خارج البيت. تفكر ميسا بشيء من الشجن الحزين، بأنّهما لم يستفذا إلا القليل مما بينهما من ود، وما زال نبع المشاعر الطيبة متدفقًا، وبالطبع لم تخمد بعد جذوة الرغبة. ارتخت ملامحها، أطلقت تنهيدة ارتياح، وكأنّها شفيت. ضمته، ولكنه لم يتجاوب، زحفت إلى مكانها على السرير بجوار الحائط، قالت بنبرة حانية ودودة: "تعال نم جنبي." كان التنميل قد وصل إلى رأسه، ارتعد جسده وهو يتابع تحوّلها. عيناها تنزفان دموعًا بلون الدم، ولكن بدون أن تترك بقعًا قانية على الملاءة الساتان البيضاء. شعرها أخذ يتساقط متزامنًا مع الضمور التدريجي لملامحها، ما الذي فعله بميسا المسكينة؟! ملامحها بدلًا من أن تعكس متعة، تعكس خذلانًا، ومرارة. ميسا البريئة فقدت عذريتها من أجله، وما زال يستعذب نزفها. ليس هناك أبشع من إيحاءات التلاشي المقبض، كيف يفقدها وهي لا تزال معه؟ ولماذا هذا الجفاء وهو يرغب فيها؟ لا بد أن ثمّة خطأ ما قد حدث في تعجلهما للزواج. سعال أمّه لا ينقطع. وما جرى على ميسا من تحوّل يجري عليه، الهواء ينسحب من حوله، أوعيته تنقبض، وجهه يحتقن، وشعر رأسه يتساقط، يشعر بعينيه تنزفان دموعًا مثل دموعها، بلون الدم. يرى نفسه وقد تهتّك شيئًا بداخله. ومثلها تمامًا، فقد هو أيضًا عذريته.

سفر بدون ضجة

بطفرةٍ غريبة، أخذت ملامح الأم في التبدّل، صغر حجم وجهها، ضاقت عيناها، وتراجعت إلى الداخل، خفّ شعر رأسها وتركته لبياضه بعد أن كانت تداريه بالحنة، ودّ يامن لو يستطيع أن ينتزع منها ما تحاول أن تخفيه عنه. عندما عرض عليها أن يذهب معها إلى طبيبٍ آخر، بخلاف طبيب الأسرة، عنّفته بشدة: "لا تتعامل معي أبدًا كمريضة." قالتها وهي تنظر إليه بعينين خبا بريقهما. عندها حق، من الأفضل لها أن تعيش وهم خلودها، في نوبات ألمها تكابر لتتخذ مظهرًا يوحي بالتماسك، فيزداد الأمر سوءًا، تتلوى، وينكمش عنقها الذي نحل وترهّل جلده. شعر بضرورة النفخ في صورتها، بأن يشجعها أكثر على أن تعيش وهمها، وهو يربت على كتفها يشيد بقوتها، أمسكت بيده، راحت تقبلها، وتبللها: "سامحني يا ابني لقد قصرت في حقك." لم يفهم أي حق هذا الذي قصّرت فيه، جرّته من يده، اتجهت به إلى خزانة ملابسها، ومن الركن العميق بالخزانة، أخرجت صندوق كنوزها، مدّت يدها تناوله له، مشفقًا على يدها المرتعدة، حمله عنها، سد أذنه حتى لا يسمع كلمات هذه المناسبات الكئيبة. بصدرٍ منقبض، اتجه إلى خزانتها، وأعاد الصندوق إلى ركنه العميق. وفي مرةٍ أخرى، عندما جددت المحاولة، أغلق خزانة ملابسها بالمفتاح، وألقى بالمفتاح فوق سطحها. شاخصة في

الفراغ، تتفادى النظر مباشرة إليه، يحايلها أن تفضفض بما تنشغل به وبما يؤرّقها، لا تستجيب لرجائه، يود لو يستطيع أن يلعب دور الابن البار، فلا تعطيه الفرصة. فات الوقت. يخرج ويعود، فلا يسمع منها سوى اقتراب موعد الرحيل. وبإشارةٍ أخرى استدعته همسًا وأسرّت له بآخر وصيةٍ لها: "في البلد قطعة أرض صغيرة يا يامن باسمك، خالتك فهيمة ستدلك عليها، اقتسمها معها، هي غلبانة وأنا أهملتها." يستشعر المنحنى يقترب أكثر من نقطة النهاية. ولماذا عند هذه النقطة بالذات يتعجلها ويطلبها لها؟ لقد تيبّست ملامحها، وفي تبدلات سريعة، تنسف أمام عينه نتاج حياة كاملة، بلا رجاء، وبلا أملٍ في العودة. بدت وهي تقف على حافة الهاوية، وكأنّها تأهبت تمامًا، لتلقي بجانبها، وتخلع عنها كل ما كان يمت لها بصلة في هذه الحياة. تتطلع إليه بنظرة تستجدي الراحة، هل يفعل معها مثلما فعل مع أخته الرضيعة وهو طفل، هل يدفع بها إلى الهاوية ويريحها، هل يكتم أنفاسها حتى لا يسمعها تتألم؟! يهتك روحه هذا الانتظار الموجع، وهذا التعجل المهووس لبلوغ النهايةّ؟! ارتعد كيانه وهو يعيش الموقف نفسه مع أخته الرضيعة، احتوى أمّه بين يديه، ملامحها تخبو، وتنطفئ، جسدها يتراخى، ويبرد، تداعى كل شيء فيها وهو يرقدها على ظهرها. أمّه تموت على يده بمثلما ماتت أخته. هو قاتل بالفطرة. هَلِعًا جرى من أمام مخدعها. دخل حجرة الزوجية، صفق الباب خلفه بعنف، كان جسده ينتفض، بينما كانت ميسا ممددة على السرير بقميص نوم يشف عن كل شيء تحته، تقرأ في كتاب بغلاف ناعم، عن جودة الحياة.

وضع رأسه بين يديه يفكر في أمّه التي سافرت في رحلتها الأبدية، ليس من أجل أي أحد ولا من أجل أي شيء، ولا حتى من أجل نفسها. تركته أشد احتياجًا لها، أكثر مما كان عليه في وجودها، أشد رغبة في أن يحبها أكثر، بلا أدنى أمل في رجوعها. كان أقسى ما في الأمر، هو وقفتها على الحافة، تترقب لحظة السقوط، التي لن تشعر بها، يسترجع في شيء من الراحة هدوءها المستسلم الغريب وهي تتأهب للسفر، لم تطلق آهة توجّع، ولم تثر أي جدل، كانت في أبهى صورة عندما خلع الموت عن وجهها، أخيرًا، قناع الكرب. هل يحتفل بموتها بمثلما رآهم يفعلون في تلك الجزيرة التي لم يستدل على اسمها، ولا على موقعها. هل يقبلها؟!

تركها في رقدتها الأخيرة، ومن حولها أفراد الأسرة، لم يرغب في رؤيتها على أي صورة، غير تلك التي في ذهنه. لم يبق لتلقي أي عزاء، بدون أدنى رغبة في مصافحة أي يد تمتد له في هذه المناسبة. خرج إلى الشارع، لفعته ريح متربة، لم تستمر. كان الشارع مزدحمًا بالناس، برغبةٍ أكيدةٍ في أن يراها من جديد، سرى التنميل في كل خلاياه وهو يبحث عنها في كل الوجوه، وبدلًا من أن يراها، رأى الخوف في العيون، والأطفال نائمون في الشارع ملتحفون بالجرائد والبعض منهم فرشها تحته، عدوى الخوف تنتشر بسرعة، حتى أنهم أخذوا يحتشدون في مجموعاتٍ صغيرة، تتشابك أياديهم في عناقٍ محموم، الباعة الجائلين وتلاميذ المدارس والموظفين، نساء وأطفال، كلهم في حالة تضافر وترقب مذعور، وسط أصوات مع ضجيجها، فاقدة لنبض الحياة.

ميسا وشند

كلما حاول تنحية مشاعره السلبية تجاه أخته نظيرة، تواجهه بأسوأ ما فيها، حتى أنّه لم يعد يجد فيها ما يرتاح له إلا وضوح غضبها، فظاظتها المعلنة، ونقدها اللاذع. لم يرها أبدًا جذابة، رغم أنها بمقياس الجمال ليست قبيحة. في دواخلها قدر كبير من التمرد والسخط، ربما لأنّها أدركت منذ وقت مبكر من حياتها الاختلاف الجوهري بينها وبين أخيها الوحيد. كان يغيظها بتفوقه عليها في بعض الألعاب التي تستلزم قوة جسدية وخشونة. بعد موت الأم ازدادت وتيرة ترددها على البيت، فهي من ناحية ما تزال تحتفظ بحجرتها لنفسها، ومن ناحية أخرى لا تطيق الابتعاد عن ميسا. في كل مرة تحاول فيها أن تكدّس حقيبتها بأشياء مما تركته الأم سرعان ما تفرغها وهي تقول متحسرة: "الأشياء تبدو أفضل في مكانها، لا تطاوعني نفسي لأخذها رغم طمعي فيها." لوت شفتيها وقطبت حاجبيها وهو يؤاخذها على رفضها اللحاق بزوجها بعد أن تؤدي آخر امتحان لها في الكلية. كان زوجها قد سافر في بعثة دراسية لمدة عامين.

ردّت عليه وهي ترفع الصحون من على المائدة: "نار بلدنا ولا جنة الغربة." قال مشاكسًا: "عريس جديد لم يهنأ بعروسته." ردّت عليه: "إذا كنت لا أطيقه هنا فكيف سأطيقه هناك؟" كانت هذه المرة الأول التي تجاهر

فيها نظيرة بعدم توافقها مع عريسها، كان ثلاثتهم يامن وميسا ونظيرة يجلسون إلى مائدة الطعام بعد أن انتهوا من وجبة الغذاء، الأب قد تركهم إلى حجرته التي لا يغادرها إلا في الضرورة، لبثّ يامن يتأملهما وهما مندمجتان في رفع الصحون وبها بقايا الطعام الذي تعبتا في إعداده، غابتا فترة طويلة في المطبخ، المكان الوحيد في البيت الذي يحظى باهتمامهما، بعد رجوعهما من المطبخ، وكان ما يزال جالسًا في مكانه، فوجئ يامن بنظيرة تسأله رأيه في أن يعيرها ميسا لتشجعا بعضهما على المذاكرة استعدادًا لامتحان التخرّج. كما لو أنها خبطته بحجر أداخه، لم يستطع أن يمنع نفسه من الهب في وجهها: "هل هي زوجتي أم زوجتك؟!" اتسعت عيناها في تحد، ردّت عليهٍ: "زوجتي." لم تبد ميسا أي رغبة في إبداء الرأي، أتعبه حيادها، تمكن التنميل من لسانه، انتفض منفعلًا، تركهما في الصالة واتجه إلى حجرته، ألقى بنفسه فوق السرير، تطلع إلى النافذة، مفتقدًا طائره، الذي ترك له زغبه واختفى، انزلق من على السرير إلى الأرض، زحف تحت السرير، وصل إلى مكان الحفرة العميقة التي يخبئ فيها المسدس، وهي الحفرة التي بذل جهدًا كبيرًا في تمويهها، وقبل أن يرفع الغطاء، سمع دبيب خطوات ميسا تقترب من الحجرة، رجع بسرعة إلى مخدع الزوجية. جلست بجواره، داعبت شعره، تقول بحنو: "ليس الأمر كما تتخيل يا يامن."

- وما الذي أتخيّله يا ميسا؟ نظيرة استحوذت عليك، مسخت شخصيتك، وتأخذك مني.
- هل ذنبها أنها تشكو من الوحدة بعد سفر زوجها؟

- ولماذا رفضت عرضه عليها أن تلحق به بعد أن تنتهي من الامتحان؟

- هي لا تحب الغربة.

- قصدك لا تحب أن تتركك.

- أنت تتوهم أشياءً لا وجود لها في الواقع.

انتفض من رقدته حانقًا: "لا تحاربيني بسلاحي الفاسد يا ميسا، لا تدعينني أندم على مصارحتي لك بأوهامي، لكن ليس كل ما أراه وهما، أستطيع أن أميّز أليس كذلك؟!"

- أحيانًا.

- أحيانًا! وهل أنا واهمٌ عندما أراكما تقطعان حديثكما في كل مرةٍ أدخل عليكما فيها؟! ألم أرك تبكين على صدرها وأنت ممدّدة بجوارها.

- لم أكن أنا التي تبكي.

ترك لها السرير ووقف أمامها متحفزًا: "نظيرة أبعد ما تكون عن البكاء."

- لم أكن أبكي، كنت أواسيها، فهي تنتهز فرصة زيارتها لنا، لتشكو لي من مزاج زوجها المتقلب، وبخله.

- وطبعًا، وبالمرة تفضفضي معها عن عدم رضاك عن أحوال زوجك!

- ما أشكوه منك، أشكيه لك.

- ولكن من الواضح أنّك تفضلين صحبتها على صحبتي.

- ليس في الأمر أفضلية، لكن لا تنسى أن عمر صداقتي بها أطول بمراحل من عمر زواجي بك.

- لا فائدة، ليست عندك جرأتها لتصارحيني بالحقيقة.

- ما الذي رغبت في معرفته ولم أصدقك الإجابة عليه؟

- لم تقبلي بالزواج مني يا ميسا إلا لتكوني بالقرب من نظيرة، أليس كذلك؟

- لا طبعًا. ليس كذلك، لا تجمعنا إلا الصداقة والمذاكرة، هذا هو كل شيء، وكفاية أوهام يا يامن.

انتفض ثائرًا: "لن أسمح لك بعد ذلك بأن تشهري في وجهي هذه العبارة، والآن يجب أن تعترفي بأنّك قد سلّمت قيادك لها، تأتمرين بأمرها، نظيرة متسلّطة ولها اليد العليا عليك يا ميسا، اعترفي.. اعترفي." بدلًا من أن ترد عليه، جلست إلى منضدة زينتها، ألهت نفسها بإعادة ترتيب أدوات التجميل، تطلع بغيظ إلى المنضدة التي احتلت مكان حقائبه، يود لو يكسر المرآة المستطيلة التي تخايله في كل مرة يمر فيها أمامها، وهي نفسها التي تسرق منه ميسا. بدون أن تدق على الباب، اقتحمت نظيرة عليهما الحجرة، وقفت مستندة بظهرها على الباب بعد أن أغلقته، كتمت صوتها وهي تهب في وجه أخيها: "صوتك أيقظ بابا مذعورًا." اقترب منها، صوّب نظرةً قاسيةً إلى عينيها، هزّها من كتفها: "لقد دمّرت حياتنا يا نظيرة." في شيء من العنف أزاحها بعيدًا عن الباب، تربّع على الكنبة في الصالة، مال برأسه يريحها على

المسند، أخذه تفكيره إلى مشهد شند وعايدة في آخر مرة رآهما فيها، يدوي صوت عايدة في أذنه: "لقد دمّرت حياتنا يا يامن."

ولأنّه الإبن الباقي

انتهز فرصة خروج ميسا للتسوق، دخل على يامن في حجرة الزوجية، وكانت هذه هي المرة الأولى الذي يدخل الحجرة بعد زواجهما. فتح الجريدة التي معه على صفحة الحوادث، أطلعه على حادثة قتل فيها عاطل أمّه. لم يراع شدة حساسية ابنه للكلمة، نسى قابليته للاستثارة، خاصة عندما يتعلق الأمر بتلميحات مبهمة، في وقت تتلبسه فيه صفة العاطل. لم يمكث يامن أكثر من شهر في وظيفته الجديدة، كمحصل لفواتير الغاز. كان من الطبيعي أن تملأه الهواجس بما يفكر فيه أبيه، لماذا من بين كل الأخبار والسياسة والأزمات، ينتقي له هذا الخبر؟! ولأنه اغتاظ من أبيه، رغب بشدة أن ينال منه، يجفف نبع طاقته الحيوية، حتى يتيبّس، ومعه تتيبّس الصورة المشوّهة التي كوّنها عنه، رد عليه بما يؤجّج شكوكه، بما يخيفه أكثر، بما ينال من كبريائه: "وما الذي تتوقعه من عاطل غير ذلك!" بعد أن نطق بالجملة، نهض من مقعده بجوار الأب، وقف محدقًا في هذا الوجه الذي بات غريبًا عليه، بملامح مغبّشة، بالكاد يستطيع أن يصدّق بأنه يعرف صاحبه. ما الذي جرى للرجل بعد أن تركته امرأته ورحلت؟! يلازم حجرته، ولا يخرج منها إلا ليرجع إليها، لينام. لا يطيق أن تقدم له ميسا الطعام، لا يأكل إلا من يد نظيرة التي تزورهم من وقت آخر، ولا يحلو له التحرك في البيت إلا بعد منتصف الليل،

انقلب ميزان توقيتاته، وبدا مثل سلحفاة انقلبت على ظهرها وتحتاج إلى من يعدلها، ما الذي يدور في رأسه بالضبط؟! لن يعرف إلا إذا أثار أعصابه، وفجر ما يكتمه بداخله. بخ في وجه أبيه في تحد: "توقع أي شيء، أي شيء، من عاطل." ارتجفت الصحيفة في يد الأب، نحاها جانبًا، أمعن النظر في وجه ابنه، مترقبًا أن تنبسط أساريره بما يطمئنه، لم يرغب في أكثر من أن يجالسه، بعد أن قضى الليل بطوله ساهرًا، ولم يأته النوم بالنهار، ولا يجد ما يسليه سوى تصفح جريدة الصباح، لم يرغب في أكثر من تجاذب الحديث مع ابنه، ولكنه أخفق في اختيار الموضوع، يحاول في ربكةٍ واضحة أن يبرر سبب اختياره هذا الخبر بالذات: "لم أقصد.. لا يمكن أن أقصدك. لم أرغب في أكثر من أن تواسيني وتخفف حسرتي على ما جرى من تلوث في أخلاقنا.. لا تسِء فهمي." ولكنّ ابنه الذي لم تبرد رأسه، ضغط على الكلمات بتأكيد أكثر: "توقع أي شيء من عاطل." الولد يعني ما يقوله بإصرار مقلق، وهو كأب، لا يرغب في أن تكون المشاهد الأخيرة له في الحياة مأساوية، ولن تستقيم الأمور بينهما، إذا ما نخر السوس في علاقتهما بأكثر من ذلك. الكبح ضروري مع موتور خربان، ومع انفلات السرعة، لن تكتب النجاة إلا لمن استعد بكوابحه. وخلال محطات كثيرة في حياتهما، توقف التصادم بينهما، لكنّه لم ينته. حان الوقت، وقبل أن يداهمه الموت، أن يعترف لابنه بما اقترفه من أخطاء في بداية مشوار حياته مع أمّه؛ ربما يساهم ذلك في انتشال ابنه من المستنقع الذي غمره فيه منذ طفولته.

صندوق قمامة الذاكرة

وهل ينسى ابنه الوحيد الذي لم يكن قد تجاوز الخامسة من عمره، عندما نطق بما أذهله: "دعوها تموت." ضغط الأب بيدين متشابكتين على رأسه، استنفر كل ملامحه، وكل أجهزته الداخلية، لكي يطلق ذخيرته دفعةً واحدة، ليفجر بها نفسه، وليس ابنه. لقد سكت طويلًا جدًا، حتى الرسالتين اللتين كتبهما ابنه له، لم يرد عليهما؛ كيف يجرؤ على الرد وقد أداختاه، ولمستا أوتارًا كثيرة بداخله؟ تجاهلهما متعمدًا، دون أن يكاشف ابنه بما فعله لهيبهما به. سامحني يا ابني! هل يجرؤ الآن ويقولها؟ يكز على أسنانه، بعد أن تنبه أخيرًا، أخيرًا جدًا، وبعد أن كبر ابنه وتخرج بامتياز، بأنه قد تركه يعيش بعقدة الذنب بأنه كان السبب وراء موت الطفلة، بينما هو القاتل الحقيقي.

يضوي في ذهنه شبح حجرة حقيرة، عفنتها الرطوبة، وخاصمها الضوء، حجرة كانت تسكنها البهائم. طردوا منها البهائم وأحلّوا العروسين بدلًا منها، في قرية من أكثر القرى فقرًا. ترك الرضيعة تفقد كل سوائلها حتى ماتت. كان ابنهما الوحيد يامن تحت أقدامهما، وهم ثلاثتهم يحتلون السرير، الذي انكسر تحت ثقلهم أكثر من مرة، وكانت الرضيعة على الأرض، تعافر من أجل الخلاص. تسأله امرأته: "ألا توجد أي وسيلة لانقاذها؟" يرد بأسى: "من يوم مولدها وهي لا ترغب في الحياة، رفضت الرضاعة، تطرد كل ما

يدخل فمها، وتخرج كل ما يدخل بطنها، لا أعرف ما الذي يمكن عمله." تسأله الأم في جزع: "وما الحل؟" يأتيهم الرد من تحت أقدامهم بصوتٍ مكتوم ضعيف لطفلٍ صغير هزيل: "دعوها تموت." وهل يفلح التكتم الآن! كيف يغمض عينيه عمّا يجري، بعد أن انزاح رغمًا عنه، وبغتة، الغطاءِ الثقيل المطمور تحته تاريخ أسود من التكتم، والخوف. جاءت رسائل ابنه لتوقظ ما قد مات، ليتجسد شعوره بحجم الجرم الذي ارتكبه في حق ابنه، يوخزه شرخ الانقسام بينهما، هذا الشرخ الذي منه تدفق الصهير ليبلور رأس الولد، ويطيح به خارج كوكب الأرض. يدين له بالاعتذار، عن كل لطخة على وجهه، ومع كل كلمة شاردة تطيش من فمه. حان الوقت ليجعل من الشرخ بينهما قناة للاتصال، متنفسًا جديدًا لرئتيهما، لا يزال أمام ابنه متسع من الوقت ليلاحق أمنياته. بزغت إلى السطح تلك المشاهد المدفونة في طين الذاكرة، طفت في أكثر الأوقات احتياجًا لها، لكي يوقف دوران ابنه، يشده من جاذبية الكون المدوّخة، ويرجع به إلى حضيض الأرض.

فتح فمه مشدوهًا للسؤال: "هل تفكر أحيانًا في أختك الرضيعة؟" كانت هذه هي المرة الأولى في حياته التي تجئ سيرتها على لسان أبيه، ظلّ يحدق في أبيه في ريبة. وبدون أن يتلقى إجابة، قرأ الرد في سراب عين ابنه، خلطة غريبة من الفضول والحزن والحيرة، ردّ نيابة عنه: "أنا أيضًا أفكر فيها كثيرًا، لأنني أهملتها." تردد الأب في الاستمرار، عندما استشعر الاضطراب على وجه ابنه، لكن لم يعد أمامه خيار بعد أن شق المشرط طريقه في اللحم: "بعد قصة حب كادت أن تقتلني، قررت بدلًا من التخلص من حياتي أن أنفي نفسي، تركت أهلي وكل أصدقائي في المدينة، وذهبت للعمل بمؤهل

متوسط في تلك القرية النائية، كان من الطبيعي بعد أن تعقّدت من بنات المدينة، أن أفتّش عن بنت ريفية جميلة وبسيطة، بدون تطلعات ترهقني. تزوجت أمّك، فتاة ذكية وعطوفة. بعد السنة الأولى من زواجنا، حملت أمّك بك، وبعد ولادتك، صارت الحياة أصعب، ونحن نتقاسم حجرة كئيبة ضيقة. قررنا أن نكتفي بك، ولكن بعد السنة الثالثة أو الرابعة من ولادتك، حملت أمّك بالطفلة التي ماتت. كانت ولادة مبكرة عن موعدها، ولم يتوفر لها حضانة في ذلك الوقت ليكتمل نموها بشكل طبيعي. وكأن المسكينة استشعرت بؤس حياتنا، ولم ترغب في مشاركتنا لها، فماتت." مصغيًا بكل حواسه لأبيه، أحس بانقباضة في صدره، وهو يسترجع الصورة المغبّشة ل اللفافة البيضاء التي كانت مكتومة بداخلها: "ألم يكن من الممكن انقاذها؟"

- كان قد فات الأوان.

أخذه صمت أبوه المأزوم إلى تلك اللحظة التي كان يجلس فيها وحيدًا على المصطبة يفكر فيها، وفي تلك الفتاة التي طافت حوله بعينيها متعددة الألوان، والنظرة اللطيفة التي شملته بها، لتطمئنه وتبدد أحزانه.

قفز السؤال على لسانه: "كيف كان لون عينها؟" رغمًا عنه، فتح الأب فمه على سعته، وكما أن منافذ الهواء قد انسدّت، تحشرج صوته، أغلق فمه على الكلام الذي انحبس داخله، ظل ساهمًا بنظرةٍ متأسية، سحبه تفكيره إلى باطنه، إلى العيب الخلقي، هل أرعبه ما ستكون عليه حياتها بعين لا تبصر؟! اهتّزت رأسه بعصبية، وفي دفعة واحدة قال: " لم يكن لعينيها لون، لم ترغب المسكينة حتى في رؤية الحياة، فظلّت مغمضة العينين حتى ماتت." تفتحت

كل حواس يامن في استنفارٍ وفضول شديدين: "هل تلمّح بأنها ولدت ضريرة؟!" حدّق الأب مأخوذًا بلهفة الابن. هزّ رأسه بالإيجاب.

- أمن أجل هذا تركتها تموت؟

- لم أتركها تموت، ولكنني لم أعرف كيف أنقذها، كانت ترفض وتلفظ كل شيء، حتى صدر أمّها.

- كيف كان موتها؟

- ماتت بهدوء شديد على فرشتها.

- تقول على فرشتها؟!

- لم يكن لها مكانًا بيننا؛ كان السرير بالكاد يسعنا أنا وأنت وأمّك، في الواقع لم تكن تطيق حضن أي أحد غيرك.

- ألم تسقط؟

- لا لم تسقط.

- هل أنت متأكد أنها لم تسقط.

- وما سر إصرارك على سقوطها؟

- ألم تقع على رأسها؟

- لا. لم تقع على رأسها، أؤكد لك أنّها ماتت في مكانها الذي تنام فيه.

- ولكنني أتذكر أنني كنت أحملها.

- نعم كنت تحملها ولكن ليس عندما ماتت.

- ألم أفعل شيئًا لا أذكره؟

- مثل ماذا؟

- لا أعرف، أنا أسألك.

- فعلت شيئا واحدًا غريبًا، وهو أننا فوجئنا بك في الليلة التي سبقت موتها تنزل من السرير لتنام بجوارها على فرشتها، حدث هذا بعد حوار دار بيني وبين أمّك. لم يخطر على بالنا احتمال أن تكون مستيقظًا وتسمعنا. كانت أمّك تسألني عمّا يمكن عمله من أجل إنقاذ البنت وكان ردي عليها بأنه لم يعد هناك ما يمكن عمله بعد أن استنفذنا كل السبل.

- هل ماتت في تلك الليلة التي نمت فيها بجوارها؟

- يا ابني أنت لا دخل لك بموتها من قريب أو من بعيد، أنت يا ابني أحببتها كما لم تحب أي إنسان آخر في الدنيا، ربنا يسامحني لأني لم أقم بما كان ينبغي عليّ القيام به نحو انقاذها، كنت بدواخلي أطلب لها الموت لأن هذا ما كنت أفكر فيه لحظة احتضارها، أن أتخلص منكم واحدًا واحدًا، ثم أقتل نفسي بعد ذلك.

- أنت؟!

- نعم أنا.

أشياء أليفة مثل الكائنات

وهو يعيش مع ابنه وزوجة ابنه تحت سقف البيت نفسه، تؤلمه تفاصيل معاناته الصغيرة، التي يحاول جهده أن يداريها عنهما، تكرار الذهاب إلى دورة المياه، السعال، البصق، إطفاء النور، إغلاق النوافذ، الكلام مع نفسه، ومع نفسه لا ينتهي الكلام. كان الوضع مختلفًا في وجود امرأته، فميسا امرأة ابنه، وليست امرأته. ربما يأخذهما التفكير إلى أن الحياة ستكون أفضل في عدم وجوده. لم يكن شيئًا عاديًا أو مقبولًا أن يتزوّجا بهذه السرعة، بدون أن تنهي ميسا دراستها، وبدون أن يتم تجهيز شقة خاصة بهما، ولكن هذا ما حدث. تعجّلت ميسا مغادرة بيت أبيها الذي يفضل زوجته عليها، ويامن لا يترك بابًا للعمل إلا وطرقه، يكاد يقتل نفسه من أجل القيام بمسئولاياته نحوها، وهو الأب قابعًا وحده، متكورًا في الركن الذي اعتادت امرأته الانزواء فيه. راح يمزق صفحة الحوادث التي قرأ منها الخبر، يفكر في شجن حزين في رهافة حس ابنه. يخشى عليه أن يقدم على عملٍ مأساوي، لا يستطيع أن يخمّن طبيعته، ربمّا ينتحر! ما فائدة كل ما صنع على الأرض؟! وما فائدة تضحيات وشقاء السنين؟! فكّر أن يترك لهما الشقة ويرحل، ألا يشغل باله بما سوف تأتي به الأيام، فلم يعد باقيًا منها الكثير، حكاية اقتربت من نهايتها، لن يهتم لو قضاها حتى معلقًا من رقبته.

كان يلملم حاجياته، يلتقط كل ما يراه ضروريًا، ليذكره برائحة كل ما عايشه، وهل هو في حاجة إلى أن يتذكر! ولأي هدف يتذكر! ربما النسيان أفضل! اكتشف وهو يفاضل بين ما يأخذه وما يتركه أنه يستطيع أن يتخلى عن أشياء كثيرة، ما فائدة أن يأخذها ليتركها بعد ذلك، الأشياء أطول عمرًا، سيسافر وربما سيموت ويظل الدولاب في مكانه والسرير في مكانه، ولكن هناك من بين تلك الأشياء التي لن يحتاجها، ما يجد نفسه متعلقًا به، الأشياء التي عاشرها تتمحك فيه كحيوانات أليفة، كلها لا قيمة لها إلا في رمزيتها، ومهما حاول التملص، ستلاحقه رائحة الأيام. يحشو الحقائب بها، ثم يفرغها، يود لو يستطيع أن يتحرك بدون حقائب، هو يكرهها، بالنقيض مع ابنه، الذي ظل يعمل من حقائبه هرمًا، ثم جاءت ميسا وهدمته. جلس بجانب الأشياء التي كوّمها، أجال النظر فيما حوله، لم يجد ما يسانده في اتخاذ قراره، تحسّس الجانب من السرير الذي كانت تنام عليه كان يستشعر دقاتها الهاربة وهي تتقلب بجانبه وتئن من الألم، عاش معاناتها لحظة بلحظة، اتفق معها ألا يبوحا بسر مرضها لأحد، رغم أن نذر المرض كانت تخيم في الجو. ظلا وحدهما يتنقلان بين الأطباء ويتوهان في أروقة المستشفيات، ويدوخان من روائح العقاقير. عندما أيقن أنّه لا سبيل من الفكاك من قبضة الموت، بات يتوقعه لها في كل لحظة، يخبط رأسه في الحائط، وهو يتعجل مجيئه، ومثله مثل ابنه عندما جاء انتابته مشاعر مخزية من الفرح بنجاتها، ولا يذكر أنّه بكى لفراقها، ابتلع حزنه ودموعه، سافرت بدون كلمة وداع؛ لأنها استنفذت كل كلمات الوداع قبل المغادرة الفعلية بزمن طويل. تصلّبت عينه على الصور التي كانت امرأته تغطي بها شروخ الحوائط، أخيرًا وجد ما

يستحق أن يأخذه، لا أحد من خلفته يهتم بهذه الصور، بل كثيرًا ما ثار الولد في وجه أمه: "ما الذي يعجبك في صور الموتى تلك؟" وهو ينهض ليخلع الصور، فوجئ بابنه يدخل عليه، يقف أمامه، ينقل بصره بينه وبين حقائبه، يقول برنّة حاسمة وكأنّه الأب: "إذا كان على أحدنا أن يترك البيت، فهو أنا."

البلد

خالته "فهيمة" لم تكن ترغب في شيء بقوة بقدر رغبتها في رؤيته. تستقبله الآن بالأحضان والتهليل، ترتعش في حضنه، ثقلت عليها الشجون فأبكتها، وهي لا تكف عن ترديد إسمه: "يامن.. يامن.." كلما أبعدته عنها تقربه منها، لا تكاد تصدق أنّه الطفل نفسه الذي أرضعته مع ابنتها البكر، ومع جده المشلول الذي فقد القدرة على تناول الطعام، يشعر بجسدها أكثر نحافة وأشد صلابة مما تركها عليه، يضمها بحنو شديد يود معه أن يمحو علامات الزمن التي غزتها بلا هوادة، الجفون المرتخية، وبعض الترهلات في مواضع مختلفة من الجلد، تراقب حركة شفتيه بغبطة ودهشة، وتتذوق باستمتاع كل كلمة يخرجها من فمه، ببطء، وبهدوء. ترد عليه وقد قرأت شفتيه تؤكد على فهمها لما يقوله: "أشتاق إليك يا خالتي يا جميلة.. يا خالتي.. وحشني حضنك." تلكزه وهي تضحك: "يوه.. جتك إيه يا يامن.. كبرت وبقيت راجل." يطمئنها على أنه الطفل ذاته الذي بكى على صدرها، وهو ينطق بشفتيه الكلمات التي أخذ علقةً من أبيه بسببها: "حبشتك من قدام، وحبشتك من ورا، وعيون ناعسة، نايمة في الدرة." انفجرت في الضحك بمجرد قراءتها لأول كلمة، راحت تمسح دموعها التي بدأت تغسل وجنتيها: "فاكر يا يامن.. فاكر العلقة إللي خدتها من أبوك؟"

في دار خالته فهيمة وجد نفسه وكأنه حبّة سكر يتزاحم عليها النمل، بنات الخالة وهن يتحلقن حوله، يترامقن في شغف إبنة الخالة، اللغز الذي اختفى مع أبيه الغامض ليظهر من جديد بعد فترة غياب دامت لسنين طويلة، من بينهن من تزوجت، ومن تتطلع إلى عريس. وهو يتفحص الوجوه ليختبر ذاكرته وهو الآن يراهن في مرحلة عمرية مختلفة عن تلك التي تركهن عليها، وجوههن قد تغيرت، وأجسادهن قد تغطّت بعد أن كان متاحًا له رؤية الكثير من تفاصيلها في أوضاع حركاتهن التلقائية والعفوية المتباينة، وهن ينمن أو يجلسن على راحتهن، وهن يغسلن، أو يتعثرن، أو يصعدن السلالم. لا شيء يثير حفيظته الآن إلا التبدّل الذي طرأ عليه هو نفسه، فعيون الطفل التي يفترض فيها البراءة ليست هي نفسها عيون الرجل الذي قد تترجم نظرته الآن على أنها تبجحًا، وربما تحرّشًا.

أمضى معهم فترة الظهيرة كاملة، التهم طعام الغذاء في تلذذ صائم، وقد اشتمل على أصناف لم يذقها بهذه النكهة الفريدة، وقد خصّته خالته بمنضدة لا يشاركه فيها أحد. بعد أن أكل وشرب الشاي، حدست أنّه في حاجة إلى أن يريح جسده؛ السفر مرتبط في ذهنها بالتعب الذي يستوجب الراحة، وحتى تعفيه من حرج المغادرة الفورية بعد الأكل بادرت بسؤاله: "مش ناوي تقوم معايا يا يامن.. تشوف دارك؟" علّق حقيبة يده على كتفه، سار معها بمزيج غريب من الانقباض والانتشاء، الروائح والأصوات التي غابت عن حواسه لفترة طويلة، هبّة هواء العصاري المعبقة برائحة الطين، والطبيخ المسبّك، وروث البهائم الطازج، ممتزجًا بأريج زهور، وثمار، وأوراق. ما يراه مخالفًا لما احتفظت به مخيلته؛ اختفت مصاطب وتداعت بيوت كان يميّزها

بناسها، وظهرت مبان جديدة، انسدت فراغات كثيرة كان يروح عن نفسه باختراقها في اتجاه المزارع التي عشق هندسة تناسقها، تطبق خالته على يده بحرارة وهي تبادر بتقديمه لكل من تمر عليه، تضغط على مخارج إسمه بزهو وبفرحة: "يامن.. يامن." وضع يده في يدها الخشنة الممتدة إليه ليستبقي كفّها في يده. ظلّ يمشي بجانبها يجاهد أن يضبط خطواته مع خطواتها البطيئة جدًا بعد أن شعر بها تعرج، عيناه على قدمها المتورّمة التي تداريها بجورب بالي. تتكئ عليه وهي تتجاوز مطبًا. وأخيرًا عندما وصلا، وقف أمام واجهة الدار في وجوم حزين هائم، برجفة قلب وكأنه يدخل غرفة العمليات تخطّى عتبة الدار، في لفتة سريعة متلهفة سألته خالته التي سبقته إلى الداخل: "دخلت برجلك اليمين يا يامن؟" وكيف له أن يتذكر. هز رأسه بالإيجاب، كانت تعرفه بما يكفي لأن تفهم من عينيه أنه يكذب، ضحكت وهي تزغده.

بدت خالته أكثر منه لهفة لطمأنته على مكان نومه، وعلى حال الدار بعد طيلة غياب. أطبقت على يده وهي تقتاده إلى حجرة النوم، تترك يده لتتحسس الملاءة وتخبط على المرتبة بيدها: "زي الفل يا يامن. خالتك بتغير الملايات كل أسبوع، ولما تقدم باشتري واحدة جديدة." راحت تفتح الدولاب، والأدراج، وتريه ما تحت السرير وما فوق الدولاب، وما فوق المنضدة، وفي الأركان: "ما فيش جنس حاجة ناقصة." وقف واجمًا وعيناه تجولان في أرجاء الحجرة، على خلفية الضوء الذي يتسلل من كوة التهوية العلوية، ومن النافذة المواجهة لها الواطئة التي تكاد تلامس الأرض، تبزغ ذكريات المكان، كل ركن يرى فيه بقعة سوداء بتفاصيل مغبّشة وغائمة، هنا

ماتت أخته، ومن هذه النافذة الواطئة تسلل فأر أفزعه بصرخة أطلقها وهو راقد تحت أقدامهما، وفي هذا الركن من السرير القريب من النافذة، كان ينكمش على نفسه ويفتّش عن الإصبع الكبير لقدم أمّه ليضعه في فمه وينام، وتحت على الأرض تتجسد له فرشة أخته الرضيعة.

يتطلع بقرف إلى باب المرحاض الذي طالما كرهه ويفضل عليه الفضاء، وهو يسرح ببصره عبر الردهة المظلمة التي تتسع وتضئ في نهايتها عندما تقترب من الباب الخارجي. كل شيء يقع نظره عليه يستثير تلك الرغبة المزعجة في البكاء. بدا العالم منكمشًا، وضيقًا، وضاغطًا، الجدران تغلق عليه، والسقف يطبق على رأسه، ولكن البشاشة على وجه خالته شيء آخر، انتبه إلى أنّه لم يكن يصغي باهتمام لما تقوله عن عدم تخليها عن العناية بالدار، وعن مراعاتها غلق الباب بالقفل: "حتى لا يعتبه جنس مخلوق." عندما انتبهت لعدم متابعته لما تقوله، وقفت أمامه تحاول أن تقرأ في عينيه الشاردتين شيئًا من الاستجابة، لكزته في جانبه: "سارح في إيه يا يامن؟" عندما لم تتلق منه ردًا، جلست على حافة السرير تلتقط أنفاسها، تقول بخجل طفولي: "خالتك عجّزت يا يامن." ربت عليها بحنو: "أنا اللي عجزت يا خالتي." تقرأ شفتيه وتردد وراءه: "أنا اللي عجزت يا خالتي." تلكزه بكوعها: "ربنا يكفيك شر العجز يا يامن." يقرأ شفتيها ويردد وراءها: "ربنا يكفيك شر العجز يا يامن." تضحك وتمازحه بزغدة قوية كادت تسقطه: "ما تعيبشي على خالتك يا واد." ضمته وبكت: "فاكر يا يامن لما غضبت مني وانا باقول لك انك أخو جدك في الرضاعة؟" بهتت ملامحه، لكزته في كتفه: "يوه! أنت غضبت تاني؟" كرر عليها ما قالته وهو يبدي

استغرابه المصدوم لما تقوله، بعد أن رددت وراءه ما يستفسر عنه، أكّدت عليه وهي تعيد إلى ذاكرته ما فقد منها: "أنا التي أرضعتك يا يامن عندما مرضت أمّك وانقطع اللبن فجأة عنها، مسكين جدك عندما شاخ وأصابه الشلل والسهيان، كان بيغير منك وانا بارضعك، ياخد على خاطره، يبكي ويتشنج ولا يهدأ إلا لما أرضعه، كان المرحوم قد فقد القدرة على بلع الطعام، ولم يكن يقبل بشيء آخر غير الرضاعة، وهكذا فارق الحياة –رحمه الله– وهو على صدري، كان جسمه خفيفًا بوزن طفل وليد." وكيف يلومها الآن على ما أدخلته في وعيه وهو طفل أنه أخٌ لجده؟!

صامتًا، ومشفقًا، راح يتملى في وجهها الباسم الذي أنهكه التعب.

في نهاية اليوم وقبل أن يسافر قال لها: "أمي أوصت لك بالدار وقطعة الأرض يا خالتي."

عرق السنين

سئم الاستماع إليه، وهو يتكلم عن نفسه ميتًا. دخل عليه، كان في وضعه المفضّل، ممددًا، مسندًا ظهره بظهر السرير، مرتكزًا بمرفقه على المخدة التي يحتضنها وهو نائم، كان بين يديه حقيبة جلدية باهتة اللون، لم يرها من قبل، خمّن بأنّه نادى عليه من أجل أن يطلعه على شيء ما بداخلها، لا يستطيع أن يخمن ماهيته، فوجئ به يقول ما كان يخشى سماعه: "قررت السفر، ربما تكون رحلتي الأخيرة، ولكنها الأهم على الإطلاق." وبدون أن يفسر له سبب هذا القرار المباغت، أو لماذا عدل عن موقفه الرافض للتغرب مرةً أخرى، مدّ له يده بالحقيبة: "هي لك." بدأ الجزع يتصاعد كالعصارة السامة في شرايين يامن، دائمًا ما تربكه مفاجآت أبيه، وتحيره، تردد في تناول الحقيبة منه، يعرف بأن الرجل ما إن يقرر شيئًا، لا يحب مراجعته. صاغرًا، أخذ الحقيبة، حاول أن يستفسر منه عما بداخلها، بسط الأب راحة يده في وجهه بإيماءة يعرف جيدًا مغزاها، لم يشأ أن يعكّر مزاج أبيه الرائق، التزم الصمت، ذهب إلى حجرته، والحقيبة في يده منغلقة على سرها، ألقى بها على السرير، فتحها على الفور، ارتّد منزعجًا لما تشممه من رائحة عطنة، ولما رآه بداخلها. مفزوعًا، ظلّ يحدّق فيها، يخشى أن يقترب منها أو يلمسها، لا يصدق أنّها أوراقًا مالية، إلا ليقينه بأن الرجل لن يحتفظ بداخلها

بجثة متحللة، بدا منظرها بشعًا وهي مُستّفةٌ في رزم، تفوح منها رائحة القِدم، لم ير مثل هذا الكم المستفز من الفلوس من قبل، كما أنّه لم يشعر بكراهيته لها بمثلما شعر به في هذه اللحظة. اقشعر بدنه عندما حاول لمسها، راح يقاوم وهو يخبط الأرض بقدمه، رغبة مخيفة في تمزيق كل ما فيها من أوراق مالية، تراجع عن رغبته المهووسة، عندما لفح وجهه لهيب العلامات المحفورة عليها، عرق السنين، عذابات الامتهان، ليالي الأرق الطويلة، كله علشانكم! علشان مين؟! كان وجهه يحترق، وهو يبلّله مثل القطط بلعابه. فوجئ بميسا تشهق من خلف ظهره، بشعرها المبتل والمنشفة على كتفها: "من أين جئت بكل هذه النقود؟" رقد بنصف جسده العلوي على السرير، يده خلف رأسه، وقدمه على الأرض، قال بمرارة: "أبي يوزّع التركة حيًا." قرفصت أمام الحقيبة تقلّب في الرزم: "كلها فئة المائة والمائتين، المبلغ كبير يا يامن." وقفت، دلكت فروة رأسها، ثم فردت المنشفة على الحامل، جلست على حافة السرير بجوار يامن، سألته وهي تقلّب في الأوراق وتزنها بكفها: "تفتكر كم ألف؟!" عندما لم تتلق منه ردًا، قالت متحرجة: "ربما قصد أن نبحث عن شقة ونترك له البيت!" انتفض من نصف رقدته، انقضّ على الحقيبة، انتشلها من بين يدّي ميسا، مندفعًا دخل على أبيه وبيده الحقيبة التي لم يغلقها جيدًا، كان الرجل لا يزال على الوضع نفسه الذي تركه عليه، التقت العيون في نظرة طويلة، رغب في أن يرتمي على صدر أبيه، تمنى لو كان قادرًا على البكاء، ولكن كيف وقلبه منقبض؟ وقف مضطربًا، الحقيبة بيده ترتعد مثل حيوان يعافر من أجل الخلاص، بدأت ملامح الاستبشار على وجه الأب في الأفول، وبالتدريج خبا ألق الزهو بالعطاء، انفلتت الحقيبة من يد الابن،

سقطت بخبطة مدوية، وعلى الأرض وتحت أبصارهما تبعثر كل ما بداخلها من عرق السنين.

ميسا تدخن

انشغل يامن في تجهيز نفسه للخروج، انتفضت ميسا من رقدتها، مسحت دموعها، سألته: "ألا تريدني أن أخرج معك؟" ردّ عليها: "لست ذاهبًا إلى أي مكان." كان قد ارتدى ملابس الخروج، طلبت منه أن ينتظرها حتى تفعل مثله، ردّ عليها يذكرها بالأيام القليلة الباقية على امتحان التخرج، وهي تخرج بلوزتها وبنطالها من الدولاب قالت: "لا تقلق عليّ ولا على نظيرة." اتجه إلى الباب ليخرج، لحقت به واستوقفته من يده: "لا تتركني وحدي يا يامن وتخرج." ردّ عليها بفتور: "أتركك معها."

– اختك رجعت إلى بيتها، من فضلك! لست في أفضل حالاتي، دعني أخرج معك.

– وأنا أيضًا لست في أفضل حالاتي لأكون معك، أرغب في الاختلاء بنفسي.

بدت متحفزةً للشجار: "أنت تختلي بنفسك طوال الوقت." كانت تتكلم وهي ترتدي ملابس الخروج، قال في إصرار وبشيء من الاحتداد: "لماذا لا تحترمين رغبتي في أن أكون وحدي."

– لم تتزوجني لتتركني مع أبيك.

تهالك على المقعد مصدومًا، للرنّة غير الودودة في صوتها، قال مدافعًا: "الرجل يحبس نفسه في حجرته ولا يخرج منها إلا بعد أن ننام لدرجة أنني نسيته." جلست على حافة السرير بعد أن ارتدت ملابس الخروج: "هذه هي المشكلة، يظن بأنه يفعل ذلك حتى لا يضايقنا، ولكنه يضايقنا بحبس نفسه، ويجعلني أشعر بالذنب." نهضت وسبقته إلى باب الحجرة تدير فيه المفتاح: "تخرج معي، أم أخرج وحدي؟!"

في الكازينو المطل على النيل، وفي المكان نفسه الذي اعتادا اللقاء فيه قبل الزواج، كان النادل شابًا صغيرًا، ملامحه بمسحة نبل، تعكس مفارقةً بينها وبين زي المحل العفريتي الذي يرفل فيه. عندما سمع من يطلبه، ترك ما بيده على المنضدة التي كان منكبًا عليها ينظّف فيها، اتجه نحوهما، تطلّع إليهما بأدبٍ منكّسر، طلبت منه ميسا أن يبدل المفرش على المنضدة أمامهما لوجود بقعة مياه غازية عليه. رجع إلى المنضدة التي ترك فوطته الصفراء عليها، نهرته ميسا عندما عرفت نيته في مسح البقعة من على المفرش: "طلبت منك أن تغيره." انقّض بيده كطائرٍ صغيرٍ تدرّب حديثًا على الاقتناص، يلملّم بارتعاشةٍ خفيفةٍ حذرةٍ المفرش من كل الأركان، ينظّف بالفوطة المساحات المتّسخة من الطاولة العارية.

جلسا صامتين، يتابعان التبدل الذي يجري على المنضدة أمامهما، المفرش الجديد، والطلبات، يتلهيان في تذوق ما طلباه، يختلسان النظر، كل واحد منهما يترقب أن يبدأ الآخر بالكلام، أشعل يامن سيجارة، قرر أن يبادر بالكلام، اعتمد بكوعيه على المنضدة ومال بصدره في اتجاهها: "لا

تنسي يا ميسا أنني لم أخدعك، لقد كشفت لك عن كل عيوبي في بداية معرفتي بك." أزاحت دخان سيجارته من على وجهها، أطرقت برأسها مفكرة، تطلعت إليه بعينين غائمتين: "هناك أشياء مهمة من الصعب أن نعرفها قبل المعاشرة الحقيقية." سألها مندهشًا: "مهمة مثل ماذا؟" ترددت، تفتش عما يجب عليها أن تبدأ به: "مثل.. مثل.. شطحاتك التي ليست إلا هروب من الواقع." خبط كفًا بكف وقال منفعلًا: "شطحاتي يا ميسا! شطحاتي كانت أول صفة تعرفينها عني منذ بداية تعارفنا. ألم أترجاك في أكثر من مناسبة ألاتنزعجي منها؟"

- لا أستطيع التظاهر بأنّها لا تزعجني، أحيانًا تحدثني عن أشياء لا وجود لها. وأحيانًا تقدم على فعل أشياء لا معنى لها، ثم أنني لا أفهم سر تحاملك على نظيرة، نظيرة تحبك.

- لم تحبني أبدًا؛ فهي دائمة الثورة عليّ، ليس لأي سبب إلا لاختلافنا البيولوجي والميتافيزيقي.

- نظيرة تحبك يا يامن، لقد غيّرت رأيها، قررت بعد الامتحان أن تلحق بزوجها، وتترك لنا شقتها.

- قلت لك ألف مرة أنه ستكون لنا شقتنا، ولسنا في حاجة لأي تبرعات أو تضحيات من أحد، ليس هذا هو موضوعنا على أي حال، السؤال هو نستمر أو نتوقف؟

بإيماءة سريعة مدت يدها، سحبت سيجارة من علبته، كان منظر السيجارة غريبًا بين شفتيها، فميسا لا تدخن، بل كانت تلح عليه أن يقلع

عنها، سألها باستغراب: "منذ متى وأنت تدخنين؟" ردّت بشيء من التحدي الغريب عليه: "منذ الآن." أشعل لها السيجارة، ظلّا صامتين لفترة طويلة، كانت تتابع خط سير سحابات الدخان، وكان هو يتعجب للدخان الذي انحبس فترةً في صدرها، دون أن تسعل. ميسا تكذب عليه! هو يعرف أن نظيرة تدخن، ولا بد أنها هي التي جرّت رجلها. واجهها بكذبتها، أجفلت، جذبت نفسًا آخر بالقوة نفسها: "لم أخبرك لأنني كنت آمل أن تقلع أنت عنها، لا ألجأ إليها إلا في الضرورة القصوى." الدخان الذي يحجب وجهها خلفه، يحرق عينيها ويلهب فمها، السيجارة نفسها تتوهج من صهد روحها، وتحترق نيابة عنها. أخذه تفكيره لأبيه، لم يره أبدًا يدخن، قال وقد تأججت لديه الرغبة في الكلام عنه: "أبي حزين." أطرقت رأسها في حرج: "إنني أراعي شعوره بالاهتمام نفسه، هل تراني قصرت في حقه في شيء؟" ردّ عليها: "هو لا يحتاج منّا شيء، لكنّ اكتئابه يزعجني." قالت مدافعة: "ليس بسببي." رفع وجهه لفوق: "ربما بسببي، لأنني رددت له نقوده." عقدت حاجبيها في كرب: "ربما لأننا نقيّد حركته في البيت!" سكتت تغالب دموعًا تعافر لتفر من عينيها، أطرفت لترطّب بها جفونها، نطقت في حشرجة انفعال: "لا تشعراني بالذنب أنت وهو؛ فهو الذي يقيد حركتنا، ومن الأفضل أن نتجاهل هذا الموضوع، لأن وجودنا معه ليس بالوضع المثالي." وكأنهما شركاء في جريمة، أطرق كل منهما مفكرًا، كان هو أول من رفع رأسه، رغب في أن يصل معها إلى نتيجة تريحهما من كدر الاختلاف المتنامي بينهما: "هات ما عندك يا ميسا، أنا على استعداد لتقبّل أي نقد آخر منك بخلاف ما قلتيه لي عن أنانيتي في الفراش." رجعت بظهرها إلى الوراء، مرّرت منديلًا ورقيًا

على عينيها، سدّدت إليه عينين متسائلتين، ظلّت هكذا فترةً طويلة، قال مجددًا بنبرة مشجعة: "فضفضي." خفضت من صوتها وكأنّها تخجل مما تقوله: "بصراحة، أحاول طيلة الوقت أن أتغاضى عن العيوب، أتحامل على نفسي في مواقف كثيرة." مدّت يدها تخرج سيجارة أخرى من علبته، منعها: "لا داعي للتمادي." استطردت بشيء من التوتر: "بصراحة أنت شكّاك، وعنيد، وبصراحة شديدة صعب المعاشرة."

- يعني نتوقف؟
- أنا لم أقل هذا.
- نستمر؟
- يامن، من فضلك، الكلام بهذا الأسلوب يتعبني.
- ويتعبني.
- دعنا نغير الموضوع.

أمعن النظر في قسمات وجهها، التي رغم توترها، لم تخف طيبتها. عيناه لا تفارقان وجهها الذي يضوي، لكن بشحوب رومانسي. لم يحتمل نشيجها الطفولي، وما أحزنه أكثر هو وهج الحياة الذي خبا في عينيها، زحزح كرسيه ليلاصقها، ويطوقها، طبع قبلة حانية طويلة على رأسها، مدّدت ساقيها، أطلقت تنهيدة ارتياح، وكأنها شفيت. نهضت، مدّت له يدها، قالت بنبرة ودودة طيبة: "تعال نتفرج على المكان الذي ألقيت فيه بالعلبة الصفيح؛ ربما نجد الدبلة طافية على سطح الماء." بقيا فترة طويلة جامدين لا يتحركان،

تقاطعت نظراتهما في صمت بريء، وفجأة وباتفاق ضمني سريع، أمسك برفق باليد الممتدة له.

ليس من أجل أحد

هل يفعل أبوه مثلما فعلتها أخته الرضيعة! يمتنع عن الحياة في الغربة! أم أنه فعل مثل الأفيال، استشعر قرب النهاية، فتحامل على نفسه، وسافر، ليتوارى بعيدًا، عن أعين كل ما يهمهم أمره! يفكر فيه بشجن، وبرغبة جارفة في رؤيته، ليتعامل معه من جديد.

تركهم الأب، وترك لهم البيت، عنده حق، فكيف تستقيم الحياة مع ميسا وهي تراه زائدًا عن اللزوم! ومع ابنه العاطل، بضلالاته، وبجموح فكره الذي يتخطى حدود المنطق، ومع نظيرة التي أرهقته بعدم استقرارها، وبمطالبها التي لا تنتهي، وما هو أدهى تعلقها الغريب بميسا. لم يحتمل الرجل، وله كل العذر، أن يراهم في ضعفهم، ولا أن يروه وهو على وشك التداعي.

ترك خلفه كل ما جمعه، وسافر، هذه المرة، ليس من أجل أحد، ولا حتى من أجل نفسه.

رغبت ميسا في إعادة ترتيب حجرة الأب. قال يامن معترضًا: "سنترك كل شيء على حاله حتى يعود." ردّت ميسا: "هو نفسه تركها تحت تصرفنا نفعل بها ما نشاء."

- هل قال هذا؟

- قالها لي.

طلب منها أن تتركه وحده بالحجرة. بدت الحجرة غريبة، وقد خلت من ناسها، ومن الأشياء، وقف برهة يتأمل الأطر الخالية من الصور، وقد بدت كهياكل عظمية تآكل اللحم الذي يكسوها، وخلخلت هوية المكان، هل حملها الرجل معه أم مزّقها؟ وما أهمية ذلك! وهو لا يحب أن يشاهد صورة أي شخص في ماضيه، حتى لا يضطر إلى أن يعقد مقارنات سخيفة. اتجه إلى مكتب أبيه، أدار المفتاح في الدرج الكبير، وجد ورقة مطوية فوق الحقيبة الجلدية المحشوة بالنقود، وبجوارها يرقد صندوق أمّه وفوقه الكراسة التي كانت تجمع فيها الأمثال الشعبية وقد بهت غلافها، هاجمته نوبة عطس بعد أن تشمم رائحة رفاتهما معًا. لم يكن ليستدل على وجودهما، لو لم يطلعه أبيه على مكانهما. فوجئ به وهو يودعه في المطار، يقدم له مفتاح الدرج قائلًا: "ستتعفن الأوراق إذا لم تستخدمها." أخذ الورقة، والكراسة. أغلق الدرج بالمفتاح، وكذلك فعل مع باب الحجرة. خرج بالمفتاحين إلى الشارع، يهرول في اتجاهات عديدة، يفتّش عن أنسب الأماكن، ليتخلص فيه منهما، أخيرًا عرج على الكورنيش، ألقى بالمفتاحين في النيل، جلس على أحد المقاعد العمومية، أخرج من جيبه الورقة التي كانت فوق حقيبة أبيه، كانت رسالة منه: "سامحني يا ابني، ارتكبت أخطاء كثيرة في حقكم، ومع ذلك حاولت التكفير عن ذنبي بمعالجة بعض الأخطاء، عش يا ابني أوهامك كما يحلو لك، هي على أقل تقدير أفضل من أوهام أبيك." فتح الكراسة التي كانت فوق صندوق أمّه، كانت تدهشه بهوايتها الفريدة في تجميع الأمثال، كانت بمجرد أن تسمع المثل تستمهل قائله دقيقة، تجري خلالها لتحضر الكراسة التي تدون

فيها الأمثال، ملأت كراسة مدرسية بكاملها، لم يكن يهتم بما تكتبه ولم يكن ليصغي إلى أي مثل تردده على مسامعه. والآن وهو يقلب في أوراق الكراسة يكتشف مدى اهتمامها بترتيبها. وجد أن بعض الأمثال مرتبة على حسب البدايات المتشابهة أمثال تبدأ باللي: "اللي متغطي بيك عريان – اللي تسلمه صباعك يشد دراعك – اللي عنده مخ ما يباتش من غير عشا – اللي يعوزه البيت يحرم على الجامع" وأمثال تبدأ بزي: "زي ما ترسي دقلها – زي الوز حنية بلا بز – زي معيز الشام حليب مفيش ونطح خد" وأن هناك صفحات تم تخصيصها لأمثال متفارقة العبارات: "أهل الهنا يارب هنيهم، طلعوا للشقا شبط الهنا فيهم – أهل الشقا يا رب اشفيهم – طلعوا للهنا شبط الشقا فيهم" وصفحات رتبت الأمثال فيها على حسب الحروف الأبجدية فمثلًا على حرف القاف: "قرد يسلليني ولا غزال يرميني – قليل البخت يلقى العظم في الكرشة – قلبي على ولدي انفطر وقلب ولدي عليّ حجر – قليل العقل تحتار الناس فيه" وعلى حرف الكاف: "كتر الأسية تقطع عروق المحبة – كفى العايب عيبه – كل شارب وله مقص" هناك أمثال خطت تحتها بخط واحد أحمر: "البطران عشته قطران" وأمثال خطت تحتها بخطين: "العيال يلزمها أم حديد وأب سعيد – اللي أولها مرة آخرتها حلوة" قضى اليوم بطوله يتجول بين السطور وكأنه يكتشف كتاب الحياة بالأمثال. غير أن الدمع غالبه بعد أن توقف كثيرًا أمام المثل الذي كتبته بأحرف نسخ كبيرة: "اللي بكى عليّ في دنيتي يوفر دمعه في آخرتي."

التحليق في حيز ضيق

تؤدي المضيفة بآلية مملة، الحركات البكماء، وهي تقدم شرحًا عمليًا لإجراءات السلامة، الإشارة إلى اليمين وإلى اليسار، وإلى مقدمة الطائرة، ومؤخرتها لتحديد مداخل ومخارج الطوارئ، تثبيت أحزمة المقاعد، كيفية استخدام أقنعة الأكسجين التي تتدلى من مخبئها، كيفية تثبيت صديرية النجاة بعد العثور عليها، غلق موائد الطعام، تقويم ظهور المقاعد.

ثم يجئ هذا الوقت، الذي يتلهف فيه الركاب على فض أغلفة المأكولات، يتفحصون المحتويات بشغف وفضول، قبل أن يقبلوا عليها ويلتهموها في شهية. تناول أي شيء في الجو له متعة خاصة، وتأتي المفاجأة، عندما يرفض راكب الوجبة المقدمة له. كان الراكب شاردًا، عندما طلب منه المضيف بإيماءة مهذبة أن يفرد مائدة الطعام الصغيرة المثبتة على المقعد أمامه، وعندما لم يذعن الراكب، اضطر المضيف أن يفتحها له بحركة آلية سريعة، وضع فوقها وجبته الساخنة المغلفة. وجد الراكب يعيدها إليه كاملة قبل حتى أن يفض غلافها. مال المضيف عليه يسأله: "حضرتك نباتي؟!" رد عليه يامن: "أنا يا سيدي لا نباتي ولا حيواني." جرب المضيف أن يغير من رنة صوته لتكون ودودة طيبة: "تحب وجبة خفيفة؟" رد يامن في شيء من عدم الارتياح: "يا سيدي لا خفيفة، ولا ثقيلة." راح المضيف يشكو حاله لحاله،

لا تخلو رحلة من شخص أو أكثر يعكر مزاجه، أو يوبخه بدون سبب. دفع ترولي الطعام أمامه، وراح يوزع بقية الوجبات. هذه هي المرة الثانية خلال هذا الشهر التي يرفض فيها راكب الوجبة المخصصة له، ولكن ليس بذات الأسلوب، في المرة الفائتة، تعارك مع الراكب الذي ضحى بالوجبة من أجل مشاغلة زميلته المضيفة، في كل مرة تمر بجواره يستبقيها، ليطلب شيئًا بسيطًا مثل كوب ماء، علبة عصير، قهوة. عندما قررت تجاهل آخر طلب له، قرر الراكب السمج أن يتجه إلى ركن الضيافة. انبرى له، لقنه درسًا في كيف تتجسد امتهان الكرامة، في هذا الحيز الضيق الطائر. ومثلما توقع، وبعد انتهاء الرحلة فوجئ بشكوى مقدمة من الراكب يتهمه فيها بالتطاول، والتعدي عليه.

رفض الوجبة هذه المرة يبدو مختلفًا تمامًا، لا يستطيع أن يخمن سببه، صحيح أن الرجال يفضلونهم مضيفات خاصة الشباب منهم، إلا أن هذا الراكب غريب الأطوار، لم يبدر منه ما يشي بهذا التفضيل. قرر المضيف أن يكون أكثر تلطفًا، وهو يقف أمام يامن بترولي المشروبات. انحنى بأدب أمامه، سأله: "عصائر.. مياه." عندما لم يتلق منه ردًا، مال أكثر ناحية أذنه وأعاد عليه السؤال بلطف أشد: "أي نوع من العصائر تفضل حضرتك؟" رفع يامن رأسه وحدق إليه بنفس النظرة الشاردة، سأله المضيف هذه المرة بالإنجليزية، وبشئ من المهنية: "چوس.. ووتر." فزع يامن وكأنه استيقظ من كابوس، رفع كف يده كالمرآة أمام وجه المضيف: "يا سيدي شكرًا، مش عاوز أي حاجة." دفع المضيف العربة أمامه مخاطبًا نفسه: "يا سلام لو تعملها الطيارة وتنفجر في الجو!"

حتى الجرائد لم يلتفت إليها، مع إنه تعمد أن يتوقف أمامه برهة: "جرائد. جرائد." تجاهله يامن تمامًا. شتمه المضيف وهو يغمغم لنفسه: "الله يخرب بيت أمك! لا تطيق النظر في وجهي، ربما لأنك تشبهني.. حاجة تقرف! مكتوب عليّ أن أدفع بعربة وسط أصناف غريبة من البشر، تطمع في كل ما يمكن أن تناله مجانًا. يا سلام لو تعملها وتنفجر!"

للمصادفة الغريبة، أن هذا المضيف في مثل عمر يامن، ومثله رغب بشدة في التحليق. عندما تقدم لهذه الوظيفة كان يحدوه الأمل في رؤية العالم الواسع من فوق، لم يخطر على باله، ولا على بال يامن أنهما سينحشران في هذا الحيز الضيق، وسط ناس بأمزجة متضاربة. كان جار يامن قد خلع حذائه، ملأ المائدة الصغيرة أمامه بالمناديل الورقية، لا يكف عن النحنحة والتمخط بصوت مقرف.

في زاويتهم التي ينحشرون فيها، كان المضيف يحكي لزملائه عن الراكب الذي يرفض تقبل أي شيء من يده، ردّ على تساؤل إحدى زميلاته إذا ما كان قد بدر عنه ما يغضب الراكب، ردّ عليها: "بصراحة اغتظت منه عندما لم يفتح المائدة الصغيرة أمامه، انتظرت منه أن يفتحها، لم يفعل، فردتها بعنف واضح، ومع ذلك أشفق عليه من ساعات السفر الطويلة." طلب من زميلة له حديثة الخدمة، لا زالت ابتسامتها طازجة لم تجف، ولعيونها هذه القدرة على التواصل، أن تجرّب وتحاول معه: "ربما يتقبّلها منك بشكل أفضل، فالرجال يفضلونها مضيفة." وبالفعل ذهبت المضيفة إلى حيث يجلس يامن. لم تطل وقفتها أمامه أكثر من دقيقة، رجعت بعدها تقفز بخفة ومرح،

ترفع يدها بعلامة النصر، قائلة في انتشاء: "شاب وديع، لم يطمع في أكثر من فنجان قهوة، وزجاجة ماء، وحبتين أسبرين، إلا أنني خيبت ظنه عندما سألني إذا ما كان بإمكانه أن يجد مكانًا يشعل فيه سيجارة."

تملّك المضيف شعور مزعج بالتأنيب: "لماذا لم يخطر على بالي أنه خرمان سجائر، أو مريض!"

تعلن الطائرة عن هبوطها بصوت الاحتكاك العنيف بأرض المطار، وبأزيزها الهادر في الآذان، قبل أن تهدأ في نهاية المطاف، وتستكين. بعد التوقف انفتح الباب، لتكون لحظة غزو ضوء نهار القاهرة المبهر للمكان، ولحظة تدافع الركاب، وهي اللحظة نفسها التي يبدأ فيها طاقم الطائرة في الاصطفاف لتهنئة الركاب بسلامة الوصول. اصطّف المضيف مع بقية الطاقم عند مدخل الطائرة بجوار السلم الذي أُعِدَ للنزول. هيّأ عضلات وجهه لتنسجم مع ما يردده من كلمات أو إيماءات الوداع. لم يكن يهمه في كل من يودعهم من الركاب، إلا هذا الراكب غريب الأطوار، الذي جعله يوبّخ نفسه على عدم كياسة تعامله معه، يفتش عنه في كل الوجوه التي بدأت تتحرك إلى المقدمة، ظل يترقب ظهوره ليسترضيه بوداع لائق. الركاب يتعجلون النزول، وهم يتوافدون على المخرج، والشاب لا يظهر، قال المضيف لنفسه: "يا خبر اسود! مصيبة لو كان مات! لن أغفر لنفسي أبدًا لو حدث له أي مكروه." شهق بارتياح، عندما لمحه على قيد الحياة، يظهر متمهلًا في نهاية الطابور. ولكن سرعان ما انقلب الارتياح إلى غم، عندما وجده لا يحول عينه عنه، يكابد ليفهم ما تنطوي عليه تلك النظرة المتربصة، هناك بالتأكيد

ما يضمره هذا الراكب الغامض ويتحفز لقوله، لا بد أنه تعمّد أن يكون في مؤخرة الصف، حتى ينفرد بالكابتن ليبثه شكواه. وقف المضيف مضطربًا وقد داهمه الجزع والقلق، يحس بأكلان في رأسه خلال هذا الترقب الذي لا ينتهي، متى ينتهي هذا العذاب؟ لم يبق في الصف إلا راكبة أوروبية تتقدم هذا الراكب المضمر للشر، فوجئ المضيف بيامن يقترب منه، ويقف بجواره، اقشعر بدنه لهذا التقرب الغريب والملح، قال في نفسه هناك شيء غير مألوف في إيماءات هذا الراكب، الذي ركّزت شمس القاهرة عليه ضوءها، لتفضح كل قسماته، بدا وكأنه يكتم صرخة تشعبت ذبذباتها في عروقه فضخمتها، في عينيه السوداوين المحتقنتين نظرة ذاهلة لا تفصح عن شيء، كما أن عضلات وجهه المتوترة، لا تدعه يستقر على ملمح، ولماذا اختاره هو بالذات ليظل واقفًا بجواره بدون أن يتحرك نحو سلم الهبوط؟ قال له المضيف يحرك صمته: "حمد الله على السلامة." أطرق يامن برأسه ولم يرد. همس المضيف في أذنه بكلمات اعتذار عمّا يكون قد بدر منه من سوء خدمة، رد عليه وهو يهز رأسه بالنفي بصوت متحشرج واهن: "أبدًا.. أبدًا.. أنا الذي أدين لك بالاعتذار.. سامحني." اعترى المضيف خجل شديد ولم يعرف بماذا يجيب، على اعتذار، لم يكن أبدًا في الحسبان، بعد أن اطمأن إلى أن الراكب لا يحمل له أي ضغينة، رغب بشدة في أن يراه يتحرك نحو السلم. قال يشيعه بكلمات وداع استعادت روحها وتدفقت فيها الحياة: "حمد الله على السلامة، ألف حمد الله على السلامة يا فندم." ارتبك يامن، بدا ضائعًا وهو يتخبط فيما ينبغي قوله، لم يتحرك، وبدا مشغولًا بشيء آخر، قال له المضيف مدفوعًا برغبة حقيقية في مساعدته: "هل هناك أي شيء أستطيع أن

أقدمه من أجلك؟" اختنق الكلام في صدر الراكب الشاب، لينفجر في شهقة متأسية، يطوي انقباض صدره في نشيج مكتوم، بأصابع متشنجة أشار إلى أسفل الطائرة، انحشر الكلام في حلقه، جسده كله ينتفض في رعشة المحموم، أسنانه تصطك، يعرق، مع الشهيق المتألم، تتقلص يده، يطبقها ويفردها، بدون أن تكف عن الانحراف إلى أسفل، طيلة الوقت تصوب نحو القاع، والكلمة المخنوقة تندفع ملتاعة: "جثمانه! جثمانه!"

عودة إلى التراب

استيقظ يامن بعد يومين من النوم المتقطع، الذي كان يتخلله نوبات يقظة قصيرة بالكاد تكفي للذهاب إلى دورة المياه، ولقضم لقمة. اكتشف بعد أن لملم شمل نفسه، أنه ما يزال بالهدوم التي حمل بها نعش أبيه، النعش الذي تشبث به ولبث يقاوم نزوله إلى القبر، لم يهدأ إلا عندما انهارت قواه، وما زال هادئًا، بدون رغبة في عمل أي شيئ، لا يقيم وزنًا لزمن، كما فرغت رأسه من الأفكار، يتنفس فحسب، مثله مثل أي كائن بدائي وجد نفسه متورطًا في الحياة. وقف وسط الصالة، بدا البيت متصدعًا بعد أن فارقته كل الأصوات، وكأن الموت ليس إلا هذا الفراغ المر، ربما كانت ميسا على حق عندما اختارت بيت نظيرة كبديل مريح لهذه الكآبة القابضة للصدر. يبدو أن كلهم على حق عندما غادروا هذا المكان الذي ضجّ من القِدم، حتى الجديد الذي أتت به ميسا أصابته عدوى القِدم.

عندما رن جرس الباب هرع مؤملًا أن تكون ميسا قد غيرت رأيها ورجعت، عندما فتحه أخرسته المفاجأة وجمّدته في مكانه، وقف متأرجحًا بين الدهشة وعدم التصديق، أقصى ما يستطيع أن يتوقعه أو حتى يتوهمه أن يراها في بيته، تفرّس فيها طويلًا، في غمضة عين انتقل من حالة إلى حالة، جمالها الطبيعي الآسر، ألقى به في عالم آخر، كانت ترتدي سروالًا ضيّقًا أبيض

اللون، وبلوزة سوداء بياقة مرفوعة، تكاد تتماس مع خصلة شعرها الحمراء التي ازدادت رقعتها: "ألن تدعوني للدخول؟" تنبّه إلى أنها لم تتخط عتبة الباب: "تفضلي، تفضلي." وهو يتقدمها بحركة سريعة سوى شعره بيده، غطّى وجهه، تركها تتخير مكان جلوسها في الصالة، اتجه مسرعًا إلى دورة المياه ليمحو أثار النوم، خرج من الحمام مبتل الشعر والفوطة على كتفه، كانت واقفةً تتأمل المكان، اعتذر في خجل للفوضى في الشقة والإهمال في ملبسه، طلب منها الجلوس، وذهب إلى حجرته ليصلح من مظهره المغبّش بالنوم، بمجرد أن رجع إليها وجلس قبالتها بادرته بالكلام: "كان رحمه الله إنسانًا عطوفًا وكريمًا." وبدلًا من أن تبدد دهشته، أججت من فضوله، تؤكد أكثر على معرفتها الوثيقة بأبيه: "في آخر رسالة طلب مني أن أكتب له تقريرًا شاملًا أطمئنه فيه على حالتك." امتقع وجهه، أطال النظر في عينيها: "حالتي!" خففت من نبرتها: "آسفة، أقصد أحوالك." ومن تكون هي ليسألها أبوه عن أحواله أو عن حالته! ومع ذلك فالمفاجأة ليست بهذا الثقل، فكثيرًا ما حدس أن هناك علاقة ما بينهما، واجهها بما يفكر فيه قائلًا: "جاء عليَّ وقت بدأت أشك فيه بأنكما معًا تدبران شيئًا ضدي." تفقدت المكان مرةً أخرى بعينيها، علقت على لوحة تتوسط الحائط لكثبان رملية متماوجة، تتشعب في بعض المواضع بلمسات خضراء لنبات الصبار وشجرة غير مورقة، سألته: "لوحتك؟" ردّ عليها بدون حماس: "رسمتها وأنا في الثانوية العامة." لم تكن تنتظر ردّه، وهي تدير في رأسها ما ينبغي أن تقوله بشأن تواطؤها مع أبيه: "كنا ندبر شيئًا في صالحك وليس ضدك، نحاول معًا أن ننتشلك من وحل أوهامك؟" عقد يده خلف رأسه وهو يتطلّع إليها في استخفاف

متحفز، اعتدل فجاةً وقال منفعلًا: "أنا أعرف جيدًا كيف أفرّق بين ما هو حقيقي وما هو وهمي في تجاربي الحياتية."

- بالتأكيد.. بالتأكيد. أنا واثقة تمامًا من ذلك. على الأقل فيما يخص أختك الرضيعة.

غامت عيناه، يسترجع اعتراف أبيه بمسئوليته عن موتها، قال بشيء من الأسى: "تركني أعيش بعقدة الذنب لسنين طويلة."

- أنت لا تقدر حجم معاناته بسببك.
- وهل كان يقدر هو حجم معاناتي بسببه؟
- لا تكن قاسيًا في حكمك على الرجل، على فكرة وقبل أن أنسى، لقد أوصاني أن آخذ منك المسدس.
- هل أوصاك بذلك؟
- طبعًا، وإلا كيف عرفت بوجود مسدّس معك.
- طبعًا، طبعًا. لكن ليس قبل أن أعمل بوصيته، أطلق الرصاصة التي ما تزال بداخله.
- وعلى من تنوي أن تطلقها؟
- لم أقرر بعد.
- ليس هذا هو المهم الآن، أعتقد أن الأمور بدأت تتضح لك، وأنا على ثقة بأنّك في وضع أفضل لتعرف موقع قدميك.

- ربما يكون الأمر كذلك، على الأقل ظاهريًا، لكن حتى الأمور الظاهرية يظل بعضها غامضًا، ويستغلق على الفهم.
- من الواضح أن هناك مواقف تتجسد فيها المشاهد بصورة تجعلك لا تميز، بل ولا ترغب أن تميز بين ما هو حقيقي وما هو وهمي.
- ولكن لماذا من بين كل المشاهد المختلطة تبقى الشركة هي أكثرهم التباسًا وتعقيدًا؟!

بدلًا من أن تردَّ عليه تناولت حقيبتها، نهضت من مكانها، وقفت بجانبه، قوّست ظهرهاّ ألصقت عينيها بعينيه وكأنّها على وشك أن تقبّله، تشمم رائحة جسدها، داعبت شعر رأسه: "أما زال يساورك الشك من ناحيتي؟" نهض ووقف قبالتها، أطال النظر في عينيها، حتّى أنّها أجفلت، لأول مرة يراها وقد اصطبغ وجهها بحمرةٍ محبّبة في حياء نادر، بحركة مباغتة ضمها إليه، احتضنها بقوة، نام برأسه على كتفها، ظلّ هكذا لفترة طويلة، أراحت بطن يدها على رأسه: "أنت إنسان جميل.. شكرًا على هذه الطاقة الرائعة من الحب." راحت تكرر الكلمة: "شكرًا.. شكرًا.. شكرًا." مذاق جديد للمتعة غزا حواسه، حتى أن كل ما بدا غير قابل للفهم صار مفهومًا، وأن ما يترقب حدوثه من كوارث لم يعد له قيمة، بل أن الحياة نفسها قد صارت خلودًا. لقد كانت هي طوال الوقت بتلك العيون متعددة الألوان. بنعومة حررت جسدها من تطويقة يده. تراجعت خطوة للوراء. بعد أن أبعدته عنها، قالت برنة موحية: "ملابسك غير مكوية، ألا تنوي أن تغيّرها؟" تفحص الهدوم التي نام بها، سألها في صوت أوهنه الحرج: "إلى أين؟" ردت

عليه: "إلى الشركة التي تقول عنها وهمية." ابتسم في بلاهة، لبث صامتًا حتى خاف أن يلتصق لسانه بحلقه، فأطلقه عنوة، سألها: "أليست كذلك؟" ردت بابتسامة زهو: "سوف تعرف بنفسك." لمعة الانتصار في عينيها استفزته، لكنه أخفى ذلك، طلب منها أن تمهله بضع دقائق ليغير ملابسه، لاحقته بنظراتها وهو يتوارى خلف باب حجرته التي أغلقها. انتظرته طويلًا حتى خرج بشعره غير الممشط بعناية، وبقايا خطوط النوم التي تشبه التجاعيد ما تزال موجودة، تخطت عتبة باب الشقة وتركته مفتوحًا، لحق بها، وجد عربةً في انتظارهما، جلس بجوارها في المقعد الخلفي، تسارعت دقات قلبه مع السرعة التي تخترق بها العربة الأماكن المألوفة، توقفت العربة أمام مبنى الشركة التي أجرى فيها الاختبار، ما تزال الصفيحة الصدئة في مكانها، وفي طينتها المشققة تنتصب الشجيرة ذابلة الأوراق، دخل في نوبة قلق جارف، أي نوع من التجارب سيمر به! وقف أمام باب الشركة مذهولًا؛ كانت اللافتة الكبيرة على الباب تحمل اسم الشركة نفسها التي تمت فيها المقابلة، المقاعد تغيرت أوضاعها، وكذلك المكتب في الواجهة. بمجرد أن رآه، أقدم عليه السكرتير، صافحه بحرارة واحترام. تعرف يامن عليه عندما دقّق في ملامحه، بتلك الوحمة التي تشبه عين ثالثة بجوار عينه، وبصدره البارز قليلًا للأمام، سارت معه في الممر الذي سار فيه من قبل، وقع بصره على شخص حليق الرأس بوجهٍ مطموس الملامح، يجلس أمام الحجرة التي جرت فيها المقابلة. انتفض الرجل غليظ الرقبة من على كرسيّه محييًا. كان ينتزع نفسه انتزاعًا كطفل تجره أمّه مرغمًا للحضانة. بعد أن تقدمته وفتحت الباب الزجاجي، حدّقت فيه بابتسامة مرحّبة، أدهشته البهجة التي تشع من وجهها وهي تشير إلى حيث

كانت تجلس في التصفية النهائية، انحنت بإيماءة احترام ودودة: "مكتبك." نساها وهو يدور بعينيه يمسح كل بقعة في المكان، استغرق تمامًا في رؤية أشباح الماضي، وهي تتراقص في خيوط الضوء الناعس. توافق أن يكون اليوم هو أول أيام الشتاء، والشمس في الخارج تروي الأرض بضوء مبهر، ولم يرغب في شيء هذه اللحظة بأكثر من أن يلتحف بدفئها، جرى إلى الشارع، احتضن الشمس بشغف من التقاها بعد فقد، جذب نفسًا عميقًا، زفره برنّة ارتياح.

الكائن الهمجي القديم

جلس على حافة السرير، يسترجع آخر مواجهة له مع أخته نظيرة، كانت في حالة هياج، وباندفاعة متشنجة، اقتحمت حجرته، وقفت متحفزة تسأله بغلظة: "ما الذي فعلته بميسا؟!" حدّق فيها في وجوم، بلا أدنى رغبة في التبرير أو الدفاع.

احتّد صوتها أكثر: "ردّ عليّ ما الذي فعلته بالبنت، إنها لا تكف عن البكاء." زعق فيها: "اسألي نفسك ما الذي فعلته أنت بها، لقد قضيت عليها تمامًا."

أطلقت آهة نفاذ صبر ممطوطة: "أنت الذي لم تعرف كيف تعاملها، لم تعد تصلح لها، فهي لم تنل منك سوى الأذى." ضيقت من عينيها، وقربت من حاجبيها: "كلكم حمقى، كلكم نفس العينة من ضلع أعوج، ميسا ستظل عندي ولن ترجع لك أبدًا." دفعها بيده دفعة خفيفة تجاه الباب، لم تبد أي نية للتمادي أو المقاومة، أوصد الباب خلفها بالمزلاج، فكّر بأنّه لم يكن في حاجة إلى أن تعيد على أذنيه ما سبق وقالته من قبل، لقد أيقن تمامًا بأنّه لم يعرف كيف يعامل ميسا، ولم يعرف كيف يعامل شند، ولا عايدة، ولا نظيرة، ولا أي من الأبوين، لم يبذل أي جهد يذكر للارتقاء بأي علاقة، ولم

يحاول تفهم أمزجتهم المتقلبة، وكأنّه لسببٍ خبيثٍ وبإصرار كان ينشد الفقد، فقدهم جميعًا الواحد تلو الآخر.

انتفض جسده من التوتر، وهو يزحف تحت السرير، ليصل إلى الحفرة العميقة التي ترك المسدس فيها. رفع الغطاء الذي يموّه به الحفرة، في ترقب متوتر، أدخل يده ليخرج المسدّس، لم يستشعر أي سخونة مثلما ظل يعتقد طوال الوقت، خرج من تحت السرير، لبث يتأمّل المسدس وكأنّه حشرة معدنية سامة منقرضة، نبّهته برودته إلى حماقة تقديره، لما كان من الممكن أن يحدث، لو أن الحرارة اشتدت بالفعل في الحفرة وانطلقت الرصاصة، كان سيقتل غدرًا وهو نائم! كيف استطابت له الفكرة لحظتها! وكيف انشل منطقه الأخرس عن تقدير حجم الخطر! ليس المهم الآن مراجعة نفسه أو لومها عما كان من الممكن أن يحدث، لأنه لم يحدث، المهم هو إطلاق الرصاصة، عملًا بوصية أبيه الذي لم يستخدم المسدس إلا مرةً واحدةً فقط، وكانت المناسبة فرح. يسترجع بشيء من الانقباض ذلك الموقف الرديء وهو يزعق في وجه الرجل مؤنّبًا على خلفته له، سلمه المسدس، وتركه متخبطًا في اختيار الهدف.

خطر بباله أن يتأكد من وجود الرصاصة، فتح الخزينة وأخرج الرصاصة بمثلما تعلّم من أبيه، أعادها إلى مكانها. سوف يثبت له أنه أصبح قادرًا على الضغط على الزناد، لقد سئم الخوف، وكره الرعب، رغم بداية الشتاء، استشعر سخونة الجو، وضع المسدس على حافة السرير، خلع كل ملابسه، تناول المسدس، وجد نفسه في حالة غريبة من التجرد من كل شيء، لا

يستطيع أن يركّز على شيء بعينه، لم يكن هذا مريحًا، وقد بدأ يتفرج على نفسه، عاريًا، جاهلًا، منعدم الرغبة، مهمومًا، ومندهشًا، يندهش لرؤيته لقدميه الحيوانيتين، ولجسده المبقّع بالشعر، جزر من الشعر الخفيف على صدره، ومناطق كثيفة على ساقيه وفخذيه، كيف لم يلحظ من قبل عدم التناسق بين طول ساقيه النحيفتين وقصر فخذيه الممتلئين؟! يشعر باشمئزاز من فكرة القرابة المزعومة بينه وبين القردة، يصيبه شيء من الخدر وهو ينزلق إلى داخله وخارجه، الدوار نفسه الذي خبره عندما ماتت أخته الرضيعة، كانت أشد اللحظات رعبًا وإيلامًا، غرابة وضعه في العالم. والآن يعاني من تجسد غرابته مع نفسه. أصبح مثل حيوان يلف ويدور أمام وحول المرآة، باحثًا عن الآخر الذي يراه ويخشاه، وليس باستطاعته الإمساك به، ولا حتى لمسه. ما يراه في ذهنه عن نفسه ليس هو ما يراه بعينه، من منهما يصدق! لامس إصبعه الزناد، لم يعد هناك ما يخشاه بعد أن تجسّد له التهديد، والآن وقد تحدد الهدف، قرّر أن يجتاز مرحلة التخبط، يحاول لم شتات أفكاره المبعثرة، ويركز عليه. أحكم قبضته على المسدس، وكأنه يمسك برقبة ثعبان سام، يخاف أن يفلت منه ويلدغه، أسند ظهره إلى الحائط، ألصقه به في تحفز، واحتماء، تشبث بالأرض، كان الهدف في مواجهته، على مرمى بصره بالضبط، الوجه الذي تجمّعت فيه كل الوجوه التي رغب في الانتقام منها، الكائن البغيض الذي أداخه وأربكه، الذي ظل يعمل بدون كلل على احتكار ذهنه وروحه، وعلى طمس هويته، الكائن الهمجي القديم ذاته الذي راهن على النّيل من الإنسان ككائن فريد من نوعه، لا يمكن تعويضه، العيون نفسها المتربصة، المفعمة بالغل، وبالرغبة في الفتك، هو ذاته الوحش النهم

الذي لايشبع أبدًا، وما تزال الدماء تقطر من فمه، إن لم يقتله، سوف يدمّره، لا سبيل سوى أن يخلد إلى السكينة، وما الذي ينشده سوى الراحة! الرغبة بداخله للضغط على الزناد تدور كالإعصار، تقتلع في جموحها كل ما عداها من رغبات.

كيف ينقلب كل شيء في لحظة؟ تتمزق أوصال السكينة! تهتز كل الصور التي ارتسمت في مخيلته عن العالم! لم يعرف معنى أن تنطلق رصاصة من مسدّس، رصاصة حقيقية، وما يتبعها من تشظي، ومن جروح، ومن صخب عنيفٍ مدمّر وكأنه الانفجار العظيم، إلا بعد أن رصد عدوه القديم البغيض، متحصنًا داخل السطح اللامع العاكس لطاولة زينة ميسا، وضغط بكل قوةٍ على الزناد.

❖❖❖